

الهجرة

بداية مراحل التحول والانطلاق

تأليف

محمد عبد الله السمان

السنة الرابعة ـ الكتاب السادس والأربعون

غرة المحرم سنة ١٣٩٢هـ ـ فبراير سنة ١٩٧٢م

سلسلة البحوث الإسلامية



الهجــــرة

بـدايـة مـراحل التحول والانطلاق

تأليف

محمد عبد الله السمان

السنة الرابعة ـ الكتاب السـادس والأربعون

غرة المحرم سنة ١٣٩٢هـ ـ فبراير سنة ١٩٧٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لفضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ٠٠ والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ٠٠ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين آمنوا به ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، وعاشوا حياتهم لنصرة دينه وعزة عقيدتهم ، ففازوا بشرف الدنيا وسعادة الأخرى ٠٠ ورضى عمن اتبع هداهم الى يوم الدين ٠٠

وبعد

فان حادث الهجرة من أخطر الأحداث فى مسار الدعوة الاسلامية ، بل أعظمها شأنا ، اذ كانت نقطة البدء فى قيام الدولة الاسلامية ، وبروزها الى الوجود البشرى ٠٠٠ مشرق هداية ، ومبعث حياة فى كل جوانب الحياة على وجه الأرض ٠

وكان من توفيق الله سبحانه أن يؤرخ فى الاسلام بهذا الحادث الخطير العظيم ، ليذكر المسلمون دائما أن قوة العقيدة وحدها مجردة من كل قوة مادية هى التى حققت للاسلام ودعوته أعظم نصر ٠

واذا كانت الهجرة من مكة الى المدينة ــ كحدث ــ قد مضت، فان معنى الهجرة مكتوب له البقاء مابقيت السماء والأرض ، مشعلا للأمة الاسلامية على طريق النضال والدعوة الى الله ٠

جاء فى صحيح مسلم أن مجاشع بن مسعود السلمى قال :

« جئت بأخى أبى معبد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح فقلت : يارسول الله بايعه على الهجرة .. فقال صلى الله عليه وسلم : قد مضت الهجرة بأهلها .. قال مجاشع : فبأى شىء تبايعه ؟ قال : على الاسلام والجهاد والخير » ..

الاسلام .. والجهاد .. والخير .. ما أجدر الأمة الاسلامية فى مشرق الأرض ومغربها أن تتدبر مضامينها وتطبقها فى حياتها اعتقادا وعملا واقعا .. فهذه المضامين التى استطاعت أن تجمع حولها خير أمة أخرجت للناس كفيلة أن يجتمع عليها سبعمائة مليون من المسلمين اليوم على وجه البسيطة ، صادقى العزيمة ، خالصى النية ، فيعطيهم صدق العزيمة ، واخلاص النية ما أعطى أسلافهم السابقين ، من مجد لايطاول ، وعزة تشرئب اليها الأعناق ..

واذا كانت الأمة الاسلامية فى حاجة الى أن تذكر الهجرة فى كل زمان ومكان ، فهى اليوم أشد حاجة الى ذكر الهجرة والتمعن فيها ، وهى تخوض معركة مقدسة ، ونضالا مريرا مع قوى الشر والعدوان .

وكتاب (الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق) للأستاذ محمد عبد الله السمان طاقة من طاقات الدفع الى الأمل المرجى ، والهدف المنشود .

والله نسأل أن يجعل هذا العام الهجرى الجديد عام نصر وعزة وتوفيق لأمتنا العربية والاسلامية .. انه نعم المولى ونعم النصير ..

دكتور محمد عبد الرحمن بيصار

الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سيظل التاريخ يسجل إلى الأبد ، أن الهجرة المحمدية حدث جليل من أبرز أحداثه ذكرا ، وأخطرها شأنا ، وأعمقها معنى ، وأبعدها أثرا .

وستظل الهجرة المحمدية معينا لا ينضب أبداً ، لأعذب المعانى ، وأصفى المبادئ وأسمى القيم ، وإذا كان القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للإسلام كدين وعقيدة ، فإن الهجرة المحمدية أيضاً ، هى المعجزة الكبرى للإسلام كحركة جديدة ، وإذا كان سر الإعجاز فى القرآن الكريم يكمن فى بلاغته التى أعجزت — وستظل تعجز البشر عن أن يأتوا بمثل أقصر سورة واحدة من سوره ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ويكمن فى تشريعه المحكم الذى يتضاءل أمامه التشريعات الوضعية منذ عهد فلاسفة الإغريق ، أو عهد مشرعى الرومان إلى عهد تشريعات ما بعد الثورة الفرنسية — فإن سر

الإعجاز فى الهجرة المحمدية يكمن فى إعجاز المفكرين عن أن يحيطوا بكل معانيها الحية ، أو يلموا بكل مبادئها وقيمها العظيمة .

وليس فى هذه الكلمات أى لون من ألوان المبالغة فى التعبير ، و الإسراف فى القول ، أو التكلف فى اللفظ ، لا لأن الهجرة المحمدية وحسب — قصة من أجل ما عرف تاريخ المغامرة فى سبيل الحق والعقيدة والإيمان قوة وروعة — كما يقول الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » ولا لأن الهجرة المحمدية : « لم يكن فى حياة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — حادث أعظم شأنا وأجل أثراً فى ذيوع الاسلام وانتشاره بين ربوع العالم منها » كما يقول المستشرق الفرنسى : « إتيين دينيه » .. ولا لأن الهجرة المحمدية ، كانت من أجل الارتفاع بمستوى البشرية وتمكين المثل الرفيعة من نفوس الناس وقلوبهم ، كما يقول المرحوم الشيخ شلتوت ، ولكن أيضاً لأن الهجرة المحمدية — على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التسليم — كانت نقطة تحول فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، ومرحلة انطلاق لها ولأتباعها معاً ، تمت بسرعة مذهلة ، وبصورة مدهشة ، وبمخططات محكمة ، وبمناهج سديدة .

إن عناية الله قد اختارت للهجرة الزمان والمكان المناسبين ،

فلو أنها سبقت زمانها بأعوام أو تأخرت عنه بأعوام ، وأيضاً لو يممت وجهها إلى غير يثرب ، لكان احتمال الفشل قائماً .

ومما لا ريب فيه ، أن الهجرة المحمدية كانت تحولا خطيراً فى تاريخ الدعوة الاسلامية ، امتازت على الانقلابات السياسية أو العسكرية بأن تلك الانقلابات تعتمد فى نجاحها على عنصر المفاجأة ليس إلا ، أما الهجرة فلم يكن عنصر المفاجأة يلعب دوراً خطيراً فى نجاحها ، فأتباع الدعوة ظلوا زهاء عام يهاجرون إلى يثرب تباعا ، ولم يكن لعنصر المفاجأة دوره الخطير إلا فى هجرة محمد — صلوات الله عليه — وصاحبه أبى بكر رضى الله عنه ، إذن فهناك عناصر أخرى أسهمت إسهاما فعالا فى نجاح حركة الهجرة محورها الإيمان بالله عز وجل ، والتضحية من أجل هذا الإيمان بكل ما تحمل لفظة التضحية من معان .

* * *

إن هناك حقيقة يجب أن نتقبلها بصدر رحب ، هى أن معظم المؤرخين وواضعى السيرة المسلمين قد عنوا بالسرد التاريخى لأحداث الهجرة ، عنوا بالأزمنة والأمكنة والأشخاص دون العناية بتحليل الأحداث الذى يبرز معانى الهجرة الحية ، والذى يقرأ ما دونه الأئمة

فى هذا المجال ، مثل ابن إسحق ، والطبرى ، والواقدى ، وابن هشام ، وابن الأثير ، وابن سعد ، والمقريزى ، وابن كثير ، وغيرهم ، لا يكاد يحس بفروق ذات شأن ، إلا ما كان من خلاف فى الرأى حول تحقيق للزمان أو المكان أو الأشخاص أو العمليات الإحصائية .

وليس معنى هذا ، أن عملهم لم يكن عملا جليلا ، يوفيهم حقهم من التقدير ، كلا ، فإن الجهد الذى بذلوه ، هو جهد أجل من كل تقدير ، وحسبهم من التقدير أنهم أوجدوا المادة لمن بعدهم ، ولهؤلاء أن يصوغوا هذه المادة فى القوالب التى تصلح لزمانهم ، والتى تبرز المعانى الحية للهجرة ، ومبادئها العظيمة ، وقيمها الرفيعة .

* * *

وإذا كانت حركة الهجرة — كنقطة تحول فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، ومرحلة انطلاق لها ولأتباعها — قد أثارت دهشة المنطقة العربية وما حولها آنذاك ، ولا تزال تثير دهشة المؤرخين الذين عنوا بدراسة الإسلام مسلمين وغير مسلمين — فإن نجاح هذه الحركة العظيمة راجع أولا وقبل كل شىء إلى العقيدة الدينية السليمة التى أخذت بمجامع قلوب أتباعها ، فصاغتها فى قوالب من الإيمان القوى ، والإخلاص الندى ، والطاقة الرائعة من الاحتمال ، والتضحية الكبرى

بكل مرتخص وغال ، وأخذت بمجامع العقول ، فوهبت لها فكراً ثاقبا ، ورأياً ناضرا ، ومع الإيمان والإخلاص ، والاحتمال والتضحية ، والفكر الثاقب والرأى الناضر ، ثقة كبرى فى الله عز وجل .

وهكذا وضعت حركة الهجرة المبادئ الأساسية لكل حركة تهدف إلى الإصلاح ، وأية حركة إصلاحية ستمنى بالفشل إذا قامت بلا عقيدة ، أو إذا فقدت مبدءا من المبادئ الأساسية التى تضمنتها حركة الهجرة ، وشواهد التاريخ أكثر من أن تحصى ، ولسنا بحاجة — فى هذا المجال المحدود — إلى سرد أمثلة من هذه الشواهد التاريخية ، وإذا خيل لواهم أن هناك حركات قامت ونجحت دون أن يتوافر لها العقيدة السليمة أو المبادئ الأساسية التى قامت عليها حركة الهجرة المحمدية — على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التسليم — فقد فات هذا الواهم أن ذلك النجاح كان مؤقتا ، وقد أعان عليه قوة السلطان أو قوة المال ، أو القوتان معاً .

* * *

وبعد — فإذا كان للمسلمين اليوم — وهم أكثر من ستمائة مليون ، أن يتساءلوا :

أين نحن اليوم من دولة الإسلام التى مهدت لقيامها الهجرة ،

والمسلمون يومئذ يعدون بالمئات ، واستطاعت هذه الدولة فى بضعة عشر عاما أن تفتح مشارق الأرض ومغاربها ؟ .

فعليهم أن يتساءلوا أولا :

أين نحن اليوم من مبادىء الهجرة الأساسية والتى قامت عليها دولة الإسلام ؟ .

بل عليهم أن يتساءلوا :

أين نحن من الإسلام نفسه ؟

محمد عبد الله السمان

تمهيد

لا جدال فى أن الدعوة الاسلامية قد مرت بمراحل ثلاث :

أولا : مرحلة التحرير الفكرى :

حيث بدأ هذا الانقلاب الفكرى فى مكة وعلى مسار ثلاثة عشر عاما . لتحرير العقل من رواسب الجاهلية الأولى ، هذه الجاهلية التى فرضت على آدميين كرمهم الله . وأرادهم ممثلين لخليفته فى الأرض ، وحاج بسببهم الملائكة — أن يعكفوا على عبادة أوثان صماء من حجر ، لاتنطق ولا تسمع ولا تفقه ، ثم لتوجيه هذه العقليات إلى عبادة إله واحد قادر على كل شىء . .

ولئن كان هذا التحرير الفكرى لم يحقق كل أهدافه فى البيئة المكية ، إذ لم يستجب إليه — على مسار الثلاثة عشر عاما — إلا عشرات من أهل مكة يسهل حصرهم . إلا أن حركة التحرير الفكرى استطاعت أن تحدث اهتزازا فى تفكير البقية ، وأن تهز — على الأقل — صورة الوثنية المترسبة فى أذهانهم ، حتى الصناديد الذين تولوا أكبر التصدى للدعوة الجديدة الناشئة .

يقول الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » نقلا عن كتب السيرة بتصرف :

« بدأ أشد قريش خصومة يسألون أنفسهم : أحقا أن محمداً يدعو إلى الدين القيم ، وأن ما يعدهم وما ينذرهم هو الصحيح ؟

خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام ، والأخنس ابن شريق ليلة ليستمعوا إلى محمد وهو فى بيته ، فأخذ كل منهم مجلسا يستمع فيه وكل منهم لا يعلم بمكان صاحبه ، وكان محمد ـ صلوات الله عليه ـ يقوم الليل إلا قليلا يرتل القرآن فى هدوء وسكينة ، ويردد بصوته العذب آياته القدسية على أوتار سمعه وقلبه . فلما كان الفجر تفرق المستمعون عائدين إلى منازلهم ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم ، ولنصر محمدا عليكم .

فلما كانت الليلة الثانية ، شعر كل واحد منهم فى مثل هذا الموعد الذى ذهب فيه أمس كأن رجليه تحملانه من غير أن يستطيع امتناعا ليقضى ليله حيث قضاه أمس ، وليستمع إلى محمد ـ صلوات الله عليه ـ يتلو كتاب ربه ، وتلاقوا عند عودتهم مطلع الفجر ،

وتلاوموا من جديد ، فلم يحل تلاومهم دون الذهاب فى الليلة الثالثة . فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف ، تعاهدوا ألا يعودوا لمثل فعلتهم ، وإن ترك ما سمعوا من محمد فى نفوسهم أثرا جعلهم يتساءلون فيما بينهم عن الرأى فيما سمعوا ، وكلهم تضطرب نفسه ، ويخاف أن يضعف وهو سيد قومه ، فيضعف قومه ، ويتابعوا محمدا معه . . » .

إن الفترة المكية التى بلغت ثلاثة عشر عاما ، كانت بمثابة مرحلة انتقال بدعوة الإسلام إلى التحول والانطلاق ، وهى فترة ليست بالطويلة إذا وضعنا فى الاعتبار أن العرب قد خضعوا للوثنية وتقاليد الجاهلية الآخذة بمجامع قلوبهم ، وميراث الآباء العتيق الذى كان يمثل فى وجدانهم أقدس ألوان القداسة ، وأعظم ألوان الولاء ، وأعنف ألوان التعصب الأعمى ، لم يكن من اليسير اجتثاث هذه كلها فى عام أو عامين أو عشرة ، إذا أضفنا إلى ذلك الاعتبار أن سادة قريش قد تصدوا للدعوة الجديدة بصلابة وعنف ، لا لأن عقولهم لم تستسغها ، ولا لأن أفئدتهم لم تهو إليها . ولا لأن نفوسهم لم تطمئن بها ، ولكن لأن الحسد والتنازع كان معنى راسخا فى أذهانهم والحرص على أن لا تذوب أشخاصهم وأشخاص قبائلهم ذوبانا سريعا

فى خضم الأتباع المستضعفين للدعوة الجديدة التى أعلنت على ملأ منهم إذابتها للفوارق فى الحسب والنسب والجاه .

إن أمية بن الصلت كان ممن حدثوا عن نبي يقوم فى العرب قبل ظهور محمد — صلوات الله عليه — حتى طمع هو فى النبوة ، وأ كلت قلبه الغيرة حين لم ينزل الوحى عليه ، فلم يرض — كما يقول الدكتور هيكل — أن يتابع من ظنه منافسه مع غلبة الحكمة على شعره ، حتى قال عليه السلام يوما وهذا الشعر يروى أمامه : « أمية آمن شعره وكفر قلبه . . »

وكان الوليد بن المغيرة يقول : « أينزَّل على محمد وأُترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين ؟ . .

وهذا النضر بن الحارث ، كان إذا جلس رسول الله — صلوات الله عليه — مجلسا فذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله ، خلفه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : « أنا والله يامعشر قريش ، أحسن حديثا منه ، فهلم إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه » ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم ، ثم يقول : « بماذا محمد أحسن حديثا منى . . ؟

وهذا الأخنس بن شريق يذهب إلى أبى جهل فى بيته ، بعد أن استمعا ومعهما أبو سفيان إلى القرآن ثلاث ليال متتابعة — كما تقدم — فيسأله : يا أبا الحكم : ما رأيك فيما سمعنا من محمد ؟ وكان جواب أبى جهل : « ماذا سمعت ؟ : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحى من السماء ! فمتى ندرك مثل هذه ؟ ! والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه » .

ويعقب الدكتور هيكل قائلا :

« والحسد والتنازع فى هذه النفوس البدوية من عميق الأثر ما يخطىء الإنسان إذا هو حاول الإغصاء عنه ، أو لم يقدره حق قدره . ويكفى أن نذكر ما لهذه الشهوات على النفوس جميعا من سلطان ، لنقدر أن التخلص من أثرها ، يجب أن يسبقه تهذيب طويل يصقل الفؤاد ويرفع حكم العقل على نزعات الهوى ، ويسمو بالعاطفة وبالروح إلى مرقى يجعلك ترى الحقيقة على لسان خصمك بل عدوك هى الحقيقة على لسان حميمك ووليك ، وتؤمن بأنك أكثر غنى بملك الحقيقة منك بمال قارون وجاه الإسكندر ، وملك قيصر .

هذه مكانة قلّ من يصل إليها إلا من هدى الله قلبه للحق .. »

إذن ، فثلاثة عشر عاما كمرحلة انتقالية ، ليست بالفترة الطويلة لغرس عقيدة جديدة فى أرض قاحلة ، ولا جتثاث عقائد شتى أرستها الجاهلية مئات السنين فى الأذهان حتى رسخت ، وتقاليد أرستها الجاهلية أيضا فى الوجدان حتى استقرت ، وأصبحت ميراثا يحرص الناس عليه حرصهم على حياتهم ، ونحن إذا استقرأنا صفحات التاريخ القديم والحديث معا ، وجدنا انقلابات سياسية أو عسكرية على مستوى محلى محدود ، تمتد فترات الانتقال فيها إلى عشرات السنين ، مع الفارق الشاسع بين هذه الانقلابات وبين حركة التحرير الاسلامى ، فبينما نرى الحركة الإسلامية تحمل عقيدة جديدة تناقض تماما عقائد البيئة التى قامت فيها ، وتحمل أيضاً تقاليد جديدة تناقض تماما تقاليد البيئة المتوارثة ابنا عن أب ، وأبا عن جد ، بينما نرى ذلك فى التحول الاسلامى ، نرى الانقلابات السياسية أو العسكرية لا تحمل عقائد جديدة ، فكل ما تهدف إليه ، إما تغيير فى نظام الحكم ، وإما تغيير فى نظام الاقتصاد ، وإما أن يكون الدافع نزعة السيطرة وشهوة الاستيلاء ، يضاف إلى ذلك فارق له أهميته ، فقد واجه الاسلام مقاومة عنيفة ، ولم يستجب له إلا قلة من الأرقاء والمستضعفين .

والمعدمين ، فمثلا ، بعد مضى خمسة أعوام على حركة التحرير الإسلامى الفكرى والسلمى معاً ، أسلم عمر بن الخطاب على رأس أربعين اعتنقوا الإسلام قبله ، بينما نرى الانقلابات السياسية أو العسكرية تستجيب لها الكثرة من الشعب ، وقلّ أن تجد مقاومة ، اللهم سوى مقاومة خفية فى معظم الأحايين ، وبينما نرى طابع التحول الإسلامى ، طابعا سلمياً يناقش العقول على أساس من المنطق ، ويخاطب القلوب على أساس من العاطفة ، نرى طابع الانقلابات السياسية أو العسكرية ، طابعا عنيفا ، يتفوق فيه الترهيب عن الترغيب ، وبينما لا يملك الإسلام إلا جزاء أدبيا ومعنويا للمستجيبين له ، وحتى هذا الجزاء الأدبى والمعنوى ، يكلفهم تضحيات باهظة ، إذ بالانقلابات السياسية أو العسكرية تملك للمستجيبين لها ألوانا من الجزاء المادى ، دون أن يكلفهم هذا الجزاء المادى أى لون من ألوان التضحية .

* * *

ثانياً : مرحلة التحول السياسى :

هذه المرحلة تتمثل فى الهجرة إلى يثرب التى أبدت استعدادها لاستقبال الدعوة الجديدة التى لفظتها أرض مكة ، ورفضتها عقول شعبها وتنكرت لها قلوبه ، وقد استغرقت هذه المرحلة بعد التمهيد لها

ببيعتى العقبة عدة شهور ، حيث بدأ المسلمون يتسللون لواذا من مكة إلى يثرب بتوجيه من الرسول — صلوات الله وسلامه عليه ، كانت بيعة العقبة الثانية فى العام الثانى عشر من بداية الدعوة ، وكان أول المهاجرين أبو سلمة ، إلا أنه قد هاجر قبل بيعة العقبة الثانية بسنة لظرف خاص به ، كان قد قدم على رسول الله — صلوات الله عليه — مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش ، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجرا ، ولقى ما لقى من عنت قريش فى سبيل هجرته ، فقد رفض رجال بنى المغيرة رهط زوجه أم سلمة ، أن تصحبه معه ، كما رفض بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة أن يتركوا ابنه « سلمة » مع أمه ، وكان أن فرق بين أم سلمة وبين زوجها وابنها ، وقد لبثت سنة تخرج كل غداة فتجلس بالأبطح تبكى ، إلى أن رق لها رجل من بنى عمها ، ويسر لهـا أن تلحق بزوجها فى صحبة ابنها .

وإذا كانت هجرة المسلمين قد استغرقت عاما أو أكثر من عام ، فإنما كان ذلك لحكمة اقتضتها السياسة المحمدية الرشيدة ، فلو أن المسلمين قد أجمعوا رأيهم على الهجرة دفعة واحدة جهرا . . لكان فى مثل هذا السلوك معنى التحدى لقريش ، التى لم تكن

لترضى عن هذا التحدى أو تقف موقفا سلبيا منه ، والتى كان فى استطاعتها أن تقاوم هذا الاتجاه بكل ما تملك من أساليب البطش والإرهاب ، أو على الأقل ، العنت والإرهاق .

ومن جهة أخرى ، فإن فى هجرة عشرات إلى المدينة دفعة واحدة ، ونزولهم على الأنصار ، وهم يومئذ قلة ، إثقالا على الأنصار أنفسهم ، فقد يعسر عليهم إعداد المنازل ووسائل العيش ، ولا سيما أن كثيراً من المهاجرين قد صحبوا أهلهم معهم ، نساء وأطفالا .

أما هجرة الرسول ، فقد اقتضت السياسة الرشيدة المشمولة برعاية الله عز وجل ، أن تكون مفاجأة لقريش وسادتها ، إذ لم يكن مقبولا ولا معقولا أن يعلن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — عن هجرته ، لتتصدى له قريش بكل ما أوتيت من قوة ، وقد نجحت الخطة المحكمة على الرغم من إحكام الرقابة على تحركات الرسول — صلوات الله عليه — من قريش التى أسقط فى أيديها ، واعترفت فى قرارة نفسها بأن هذه أول هزيمة منكرة لحقتها من محمد عليه السلام ، ولم يكد يعلن نبأ خروج الرسول من مكة سرا ، حتى راحت قريش تبذل محاولات جبارة لإعادته إلى مكة ، لكنها باءت جميعها

بالفشل الذريع ، وأصبح لزاما عليها أن تلتزم الصمت . . والصمت المؤقت ، لتفكر من جديد .

كان هذا التحول السياسى تحولا سلبيا محضا ، وكان ضروريا بمثل هذا الأسلوب ، فلم تكن الدعوة الإسلامية تملك من القوة عددا وعدة لتواجه بها قريشاً ، أو تقيم بها دولة داخل الدولة ، فقد مرت أيام عصيبة على الفئة المؤمنة فى مكة ، لم يكن يقيم بين ربوعها منها إلا مستخف أو من هو فى جوار ، وحتى السنة العاشرة عندما عاد الرسول — صلوات الله عليه — من رحلته إلى الطائف التى رده أهلها أسوأ رد ، دخل مكة فى جوار المطعم بن عدى ، ومهما حاول ذوو الأهواء من المستشرقين وكتاب الغرب الذين تجرى الصليبية فى دمائهم ، أن يلصقوا بحركة الهجرة صفات الهرب والفرار والخوف ، فستظل رمزا على أسمى ألوان البطولة والمغامرة ، وصورة مشرقة لأعظم ألوان التضحية والفداء .

* * *

ثالثاً : مرحلة التغيير الاجتماعى :

مما لا ريب فيه أن الفئة المؤمنة على مسار ثلاثة عشر عاما فى مكة ، لم تكن مجتمعا قائماً بنفسه مستقلا بذاته ، وهم يومئذ يعدون

بالعشرات ، ولا حول لهم ولا قوة إلا إيمان بالله وثقة فيه ، وإنما كانت الفئة المؤمنة تستوعب نماذج رفيعة من الأشخاص ، يصلح كل منهم أن يكون مجتمعا سليما بسلوكه وأخلاقياته ، وبالتزامه بهدى القرآن ، وتوجيهات رائد الدعوة عليه السلام .

إن هذه المرحلة تعتبر مرحلة تأسيسية لإقامة مجتمع جديد ، له كل مقومات المجتمع المتكامل ، ثم إقامة الدولة الناشئة التى يتوافر لها كل عناصر الدولة الأساسية ، من أرض وشعب وقانون ، أما الأرض فهى يثرب ، وأما الشعب فهو الفئة المؤمنة ، وأما القانون فهو كتاب الله وسنة رسوله — صلوات الله عليه — .

ليس معنى هذا أن هذه المرحلة كانت مرحلة استقرار شامل للدعوة الاسلامية ، كان الاستقرار خلالها نسبياً ، إذ تيسر للفئة المؤمنة أن تهدأ قليلا ، كما تيسر للدعوة الإسلامية أن تنسق للمجتمع الإسلامى الجديد ، والدولة المسلمة الناشئة ، ليكتب لهما معاً الاستقرار الدائم .

لم يكن من المعقول أن تهدأ قريش بعد أن أحرز محمد — صلوات الله عليه — أول انتصار له عليها ، كان انتصاراً من لون فريد ، لم يكلفه قطرة دم واحدة وقد حقق كل ما يبغى ، وحتى لو فرض جدلا

أن قريشاً كانت على استعداد للهدوء ، فقد كان الرسول — صلوات الله عليه — غير مستعد للهدوء ، فالنصر تبعات ثقال عليه أن يتحملها ، لم تكن الهجرة مرحلة انتقالية وحسب ، بل مرحلة تحول وانطلاق معاً . . وأخطر هذه التبعات الثقال ، ليس — وحسب — تأسيس مجتمع نظيف على مثل عليا وقيم رفيعة ، وتأسيس دولة فتية على العدل والحرية والإخاء والمساواة ، بل هناك ضرورة ملحة تستدعى تأسيس جيش إسلامى فتى على التضحية والبذل والفداء ، يواجه به المتربصون بالدعوة الجديدة والدولة الناشئة الدوائر ، سواء من الداخل حيث اليهود بمؤامراتهم ودسائسهم وخياناتهم ، أو من الخارج حيث قريش المنهزمة المغلوبة على أمرها التى لا بد أن يجيش بنفسها العزم على الثأر ، وحيث القبائل العربية الأخرى المحيطة بالمدينة ، والمشايعة لقريش وجاهها وسلطانها ونفوذها .

* * *

هذه هى المراحل الثلاث التى عاصرت دعوة الإسلام منذ بزوغ فجرها حتى لحق رائدها — صلوات الله وسلامه عليه — بالرفيق الأعلى ، وإن كان موضوع البحث هو المرحلة الوسطى ، المرحلة الانتقالية أو مرحلة التحول والانطلاق ، إلا أن المرحلتين الأخريين

وثيقتا الصلة بها ، فالأولى بمثابة مقدمة لها ، والثالثة بمثابة نتيجة لها ، ومن خلال عرض هذه المراحل الثلاث تبرز المعانى الحية ، والمبادىء السامية ، والمثل الرفيعة ، والقيم العظيمة .

إن هذا البحث مقسم إلى فصول خمسة ، تمثل هذه المراحل الثلاث الفصول الثانى والثالث والرابع ، أما الفصل الأول فهو « على هامش الهجرة » تناولت فيه : الهجرة اصطلاحا ولغة ، والهجرة فى القرآن والسنة ، وهجرة الأنبياء ، ثم الهجرة بين السلب والإيجاب ، وأما الفصل الخامس والأخير « الاسلام والمسلمون اليوم وفى مفترق الطرق » تناولت فيه حاضر الإسلام والمسلمين .

على هامش الهجرة

* الهجرة لغة واصطلاحا .
* الهجرة بين السلب والايجاب .
* هجرة الآنبياء .
* الهجرة فى القرآن والسنة .

الهجرة لغة واصطلاحا

فى الجزء السابع من لسان العرب .

الهجر « بالفتح » ضد الوصل ، والاسم الهجرة .

والهجرة « بالكسر » والهجرة « بالضم » الخروج من أرض ، والمهاجرون الذين ذهبوا تبع النبي عليه السلام ، مشتق منه . .

قال الأزهرى : وأصل المهاجرة عند العرب : خروج البدوى من باديته إلى المدن ، وكل من أقام من البوادى بمباديهم ومحاضرهم فى القيظ ، ولم يلحقوا بالنبى ، ولم يتحولوا إلى أمصار المسلمين التى أحدثت فى الإسلام — وإن كانوا مسلمين — فهم غير مهاجرين ، وليس لهم فى الفىء نصيب ، ويسمون بالأعراب .

* * *

فى الاصطلاح الشرعى : يقصد بالهجرة ، هجرة الرسول وصحبه من مكة إلى المدينة . والمهاجرون : الذين قاموا بهذه الهجرة ، وإذا أطلق ذكر الهجرتين ، فإنما يراد بهما : هجرة الحبشة ، وهجرة المدينة .

ويرى ابن الأثير أن الهجرة هجرتان :

إحداهما : التى وعد الله عليها الجنة فى قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة[1] . . . » فكان الرجل يأتى النبى — صلوات الله عليه — ويدع أهله وماله لا يرجع فى شىء منه ، وينقطع بنفسه إلى مهاجره ، وكان النبى عليه السلام يكره أن يموت الرجل بالأرض التى هاجر منها ، فمن ثم قال : « لكن البائس سعد بن خولة » يرثى له أنه مات بمكة — فلما فتحت مكة صارت دار إسلام كالمدينة . . وانقطعت الهجرة . .

والأخرى : من هاجر من الأعراب ، وغزا من المسلمين ، ولم يفعل كما فعل أصحاب الهجرة الأولى ، فهو مهاجر ، وليس بداخل فى فضل من هاجر تلك الهجرة . .

* * *

(١) سورة التوبة الآية ١١١ .

الهجرة .. بين السلب والإيجاب

يطيب لكثير من المستشرقين من ذوى الأهواء ، وكتاب الغرب المتعصبين ، أن يقللوا — وحسب — من شأن هذا الحدث الخطير العظيم ، بل أيضا ، يحاول هؤلاء أن يعتبروا الهجرة سلوكا يعتوره الجبن ، فهم يطلقون على الرسول — صلوات الله عليه — وصاحبه أبى بكر — رضى الله عنه — يطلقون عليهما « الفارين » « والهاربين » وقد يكون من المستساغ استعمال لفظ « الفرار » مادام الفرار إلى الله ، ولم تكن الهجرة إلا فرارا إلى الله ، وقد ورد فى القرآن الكريم هذا اللفظ على لسان نوح عليه السلام :

« ففروا إلى الله . . إنى لكم منه نذير مبين . »

لكن المستشرقين وكتاب الغرب المتعصبين لم يقصدوا هذا المعنى السامى الذى ورد فى الآية الكريمة ، وإنما يقصد معظمهم المعنى المضاد الذى يعنى الجبن . .

وليس من المستساغ استعمال لفظ « الهاربين » لأن الهرب لا يحمل إلا معنى واحدا هو الجبن ، والحرص على النفس . .

ولا يحاول هؤلاء أن يقنعوا أنفسهم ، بل عقولهم ، بأن الهجرة كانت ضرورة ملحة كمرحلة انتقالية ، بل مرحلة تحول لانطلاق نحو آفاق واسعة ، لأن الأهواء قد رصدت نفوسهم ، وأضلت أفهامهم . .

لو ان دعوة الإسلام كانت قاصرة على مكة ، وأن مهمة محمد — صلوات الله عليه — كانت تنحصر فى إقامة دولة ، وتأسيس مجتمع فوق أرض مكة وحدها ، لكان لغمزات أولئك الحاقدين ما يبررها ، لكن دعوة الإسلام لم تكن دعوة محلية ضيقة خاصة بمكة ، ولا إقليمية محدودة قاصرة على المنطقة العربية ، وإنما هى دعوة عامة شاملة ، تهدف إلى خير البشرية والإنسانية فى كل زمان ومكان . .

إن دعوة الإسلام قد لبثت فى مكة ثلاث عشر سنة ، عانى خلالها محمد — صلوات الله عليه — وصحبه الكثير من عنت قريش وصلتها ، وبطشها وتنكيلها ، وإرهابها وكيدها ، وعلى الرغم من صبر الفئة المؤمنة ومصابرتها ، وبذلها وتضحياتها ، وإيمانها وثباتها على الحق الذى آمنت به ، واطمأنت إليه ، على الرغم من ذلك كله لم يزد عدد هذه الفئة المؤمنة على عشرات معدودة ،

على مسار ثلاثة عشر عاما ، إذن فماذا ستكون النتيجة لو أن محمدا — صلوات الله عليه — آثر البقاء فى مكة بدعوته وأصر عليه ؟

إن النتيجة الحتمية والمنطقية معا ، هو أن تظل دعوة الإسلام قابعة بين ربوع مكة ، آخذة فى التقلص إلى أن تتلاشى ، لأن الفئة المؤمنة التى تحصى بالعشرات ، قلة مستضعفة لا جاه لها ، ومن كان منها من ينتسب إلى قبيلة ذات حسب وجاه ، تخلت عنه قبيلته ، وآثر هو الحق والإيمان على جاهها وحسبها . .

إن « الاستراتيجية » الحديثة فى أرقى أساليبها ، تقر انسحاب القائد بجيشه ، إذا كان هذا الانسحاب يؤدى إلى أخذ موقع محصن ، يستطيع الجيش منه أن يتمكن من الدفاع فضلا عن الهجوم ، وهذا الإنسحاب أمر سلبى ما فى ذلك جدال ، لكن هذه السلبية تتضمن إيجابية ما فى ذلك جدال أيضا ، انسحاب هو كالضرورة الملحة التى اقتضتها الظروف القاهرة . .

وليست الهجرة بعد ذلك إلا انسحابا دعت إليه الضرورة الملحة ، أدى إلى أخذ موقع محصن ، وانحياز إلى فئة مؤمنة ، هى

فئة الأنصار . وعند ما يتلى قول الحق تبارك وتعالى فى سورة الأنفال : ١٥ ، ١٦ .

« يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره . . إلا متحرفا لقتال . . أو متحيزا إلى فئة .. فقد باء بغضب من الله . . ومأواه جهنم وبئس المصير » .

عندما يتلى قول الله هذا يتسلل إلى الأذهان حادث الهجرة . فإن حركتها المباركة تتمثل فى الإستثناء الوارد فى الآية الكريمة ، كانت أرض الهجرة الجديدة موقعا ممتازا للدعوة ، وكان شعبها العظيم يمثل الفئة المؤمنة التى انحاز إليها المهاجرون من أهل مكة .



هجرة الأنبياء

لم يكن محمد — صلوات الله وسلامه عليه — بدعاً من الرسل ، فلئن كان قد هاجر من وطنه ومسقط رأسه من أجل الدعوة ، حفاظاً عليها ، وإيجاداً لبيئة خصبة تتقبلها وتستجيب لها ، بل تذود عنها ، فقد هاجر عدد من إخوانه الأنبياء قبله من أوطانهم ومساقط رءوسهم لنفس الأسباب التى دعت رسول الله عليه السلام إلى هجرته .

إن بقاء الدعوة فى أرض قاحلة لا يخدمها . بل قد يعوق مسارها ، ويشل حركتها ، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر فلا تملك أن تتنفس الهواء الطلق الذى هو ضرورى لسلامتها وبقائها ، وقد جرت سنة الله فى خلقه ، أن يقبل البعض من خلقه على دعوات رسله وأنبيائه ، فتشرق نفوسهم لهدايته ، وتشف أرواحهم وتنشرح صدورهم ، وتتفتح عقولهم ، وتستجيب قلوبهم ، وأن يعرض البعض الآخر عن دعوات أنبيائه ورسله ، فتتلبد نفوسهم إزاء هدايته بسحب الغى والضلال ، وتتلبد عقولهم ، وتنقبض صدورهم ، وتنغلق

أسماعهم فينشأ صراع بين الحق والباطل ، ونضال بين الهدى والضلال . .

وتخضع القضية بعد ذلك لشيء من الموازنة . فإذا كانت الفئة المؤمنة من أتباع الحق من القلة بحيث تصبح ولا تملك إلا أن تظل مستضعفة فى الأرض، مغلوبة على أمرها ، تتلقى كل يوم من الفئة الكافرة من أشياع الباطل ضربات لاهوادة فيها ولا رحمة ، وصفعات من السخرية لا أدب فيها ولا عفة ، فلن يكون أمام الفئة المؤمنة إلا أن ترحل لتتمكن من الانطلاق فى أرض أخرى .

وقد يكون لدى الفئة المؤمنة من الإيمان ما يجعلها تتحمل كل صنوف الأذى من أجل دعوتها ، ومن اليقين ما يجعلها تصمد أمام كل ألوان البطش والإرهاب ، ومن الطمع فى رضا الله سبحانه ورحمته ما يجعلها مستعدة للتضحية بأرواحها وأموالها ، لكن هذه الفئة المؤمنة فى مجموعها ليست إلا بشراً لطاقة احتماله حدود ، إذن فالحل العملى هو أن تسعى إلى الخلاص بإيمانها بالله عز وجل . .

أما إذا كانت الفئة المؤمنة من الكثرة والقوة بحيث تستطيع — وهى ممكنة فى الأرض — أن تقف بأقدامها فوق أرض صلبة ، وأن تحمى نفسها ودعوتها من كل كيد يدبر لها ، ومن كل شر يراد

بهما ، وأن تدعو إلى الله وهى مرهوبة الجانب ، فلن يكون هناك مبرر لأن تترك الأرض التى نشأت فوقها ، فسوف يكون لديها القدرة على أن تسلط أشعة الهداية على المنطقة التى تعيش فيها .

هذه الموازنة كانت محل نظر فى سائر دعوات الأنبياء والرسل قبل محمد — صلوات الله علية — وقد قص الله علينا فى كتابه العزيز نماذج من هجرات الرسل — صلوات الله عليهم ، لتبدو لنا — فى وضوح — سنة من سنن الله فى شأن الدعوات ، ليأخذ بها من بعدهم كل داعية إلى الله ، بل كل مؤمن بالله عز وجل ، هذه السنة المقررة من سنن الله ، هى تضحية المؤمن بأعز ما يعتز به فى حياته من أجل إيمانه وعزته وكيانه بأسره ، فإذا أحيل بينه وبين إيمانه وعزته ، واستخف بكيانه ووجوده ، واعتدى على مروءته وكرامته ، وعجز عن أن يبذل دمه وروحه فداء إيمانه هاجر إلى حيث يجد الأمن ، والبيئة الصحية التى تتنفس فيها دعواته .

* هجرة نوح عليه السلام :

ولنبدأ بنبي الله نوح — أول رسل الله إلى الأرض ، كما ورد فى حديث الإسراء على ما روى فى صحيح مسلم — وقد لا يدور بذهن القارئ أن هجرة تمت فى عهده ، علماً بأن هجرته — صلوات

الله عليه — مع أتباعه ، كانت من الهجرات العجيبة والمثيرة معاً ، هجرة تختلف عن هجرات إخوانه الأنبياء من بعده ، فى أن هجرات إخوانه — صلوات الله . وسلامه عليهم — كانت واضحة المعالم ، معروفة الغاية المكانية لها ، أما هجرة نوح ، فلم يكن يعرف عليه السلام وقومه إلى أين المستقر ، فقد أنطلقت السفينة التى أقلت المهاجرين تنتظر الأمر من الله بتحديد غايتها وغايتهم معها .

ظل نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الله عز وجل ألف سنة إلا خمسين عاما ، ومع ذلك فلم يؤمن معه إلا نفر قليل وقد تعرضت دعوة نوح لكل ألوان العنت والعناد من قومه ، كما تعرضت الفئة المؤمنة لكل ألوان الأذى والاضطهاد ، ولما كان أولئك القوم الكافرون قد بلغوا أطول شوط فى التطاول على الله والاجتراء عليه ، والسخرية من دعوته وأتباعها ، فقد أوقع الله عليهم عقاباً صارماً رادعاً ، فأرسل عليهم الطوفان ليغرقهم عن آخرهم ، ونجى نبيه نوحاً عليه السلام وأتباعه معه ، وأرسى السفينة التى تقلهم على الجودى وهو جبل من نواحى ديار بكر من بلاد الجزيرة وهو يتصل بجبال أرمينية . .

ويثير المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فى مؤلفه القيم « قصص الأنبياء » مسألة عموم الطوفان وخصوصه ، فيقول :

« إن بعض العلماء يميل إلى عمومه ، ويقول بعض علماء الجولوجيا : إننا كلما بحثنا فى أعالى الجبال وجدنا بقايا حيوانية من الأحياء التى لا تعيش إلا فى الماء . وهذا يستدعى وجود طوفان على على هذه الجبال ، بل عدد من الطوفانات لوجود الاختلاف فى عمر هذه البقايا . . فلا مانع من أن يكون طوفان نوح أحدها ويكون قد عم ، ويستأنس بقوله تعالى : « وجعلنا ذريته هم الباقين » .

ويميل فريق آخر إلى أن الطوفان لم يكن عاما ، بل على الجهة التى كان يسكنها نوح وقومه ، وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها هذا الطوفان . ويستأنس لذلك بأن الهند كانوا يزعمون أن عمران بلادهم يمتد فى الماضى إلى تاريخ أبعد من الذى قدرته التوراة لنوح وطوفانه » . .

ويميل الشيخ النجار إلى أن يكون الطوفان خاصاً ، وأن النوع الإنسانى لم يكن منتشراً فى جميع الكرة بل كانوا منحصرين فى الناحية التى عمها الطوفان ، وأنهم قد هلكوا وبقى نوح وذريته . .

ورأى الشيخ النجار قابل للمناقشة ، فمن يدرى فلعل النوع الإنسانى لم يكن منحصراً فى منطقة نوح ، بل كان منتشراً فى مناطق بعيدة أخرى لم يتعرض لها القصص القرآنى ، وما دامت دعوة

نوح خاصة بقومه ومنطقتهم ، فلا يعم الطوفان إلا هذه المنطقة ، لأن بقية المناطق النائية المسكونة ، على الفطرة لم تبلغها بعد دعوات الأنبياء والرسل . .

ولا مجال هنا للاستطالة ، فالذى يهمنا — وهو مالا ريب فيه — أن نوحا وقومه هاجروا من الأرض الظالمة ، واستقر بهم القرار فى أرض جديدة يعيشون فيها آمنين ، بعيداً عن أرض الذكريات الأليمة البغيضة إلى نفوسهم ومشاعرهم . .

* * *

* هجرة ابراهيم عليه السلام :

أما نبى الله ابراهيم الخليل عليه السلام ، فقد كان صاحب أكثر من هجرة ، والأسباب والمبررات واحدة ، وقد تصدى لابراهيم قومه ، وعلى رأسهم أبوه آزر ، وهذا دليل على أن التصدى لدعوة الله بلغ ذروته من العناد والعنف ، وهل هناك ما هو أعنف من أن يلقى القوم فى النار داعياً يدعوهم إلى الله ؟ ودليل آخر على أن القوم المتصدين لدعوة الله كان لهم أوثق ارتباط بالوثنية المتغلغلة فى كيانهم ، المسيطرة على مشاعرهم وأحاسيسهم . .

لم يكد ابراهيم يتعرض لآلهتهم التى صنعوها بأيديهم ، وقد فشل

معهم منطق إبراهيم السليم الذى يقيم الحجة التى لا تحتمل الجدل، لم يكد ابراهيم يتعرض لآلهتهم بمنطق عملى ليؤكد لهم فساد عقيدتهم ، حتى ثاروا عليه وهاجوا وماجوا وقالوا : « حرقوه وأنصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين »[1] . .

وخاب كيد القوم ، فنجى الله إبراهيم نبيه من النار .. ولكن هل يظل إبراهيم يجادل قومه دون جدوى ؟

إذن لابد من الرحيل إلى أرض أخرى تتقبل دعوته ، وكان أن رحل إلى أور الكدانيين ، وهى مدينة كانت قرب الشاطىء الغربى للفرات ثم إلى حاران .

ثم هاجر بعد ذلك إلى فلسطين ، وكانت ترافقه زوجة سارة وابن أخيه نبى الله لوط وزوجه . فاجتمعت هجرتان لنبيين فى هجرة واحدة : « فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم » . .

ولنفس الأسباب التى حملت ابراهيم على الهجرة من وطنه ومسقط رأسه بالعرق إلى أرض الشام ، هاجر لوط أيضاً ، والمستوعب لآى الذكر الحكيم يرى كم عانى لوط عليه السلام ومن إتبعه من

(١) سورة الأنبياء ٦٨ .

المؤمنين من عنت قومه وايذائهم ، بل إن لوطاً عليه السلام واجه قوماً ليس أبرز ما فيهم هو إنكارهم لرسالة نبي أرسل إليهم لهدايتهم إلى طريق الحق والنور ، ثم تماديهم فى الغى والضلال ، بل لقد برز فى القوم إنحراف خلقى تمجه النفس الأبية . ويلفظه الذوق السليم ، وكان جهد لوط عليه السلام فى مقاومة هذا الانحراف الخلقى لا يقل كثيراً عن جهده فى إقناع القوم بالله وبدعوته . ولما لم يجد لوط عليه السلام أى أمل فى هداية قومه أو حتى إمساكهم عن ذلك الانحراف الخلقى الشاذ المنفر ، فكر فى الهجرة ، وقد ورد أن عثمان لما هاجر بزوجه رقية بنت رسول الله إلى الحبشة ، قال صلوات الله وسلامه عليه — « إن عثمان أول مهاجر بأهله بعد لوط . .

وأقام ابراهيم فى تلك الأنحاء الفلسطينية ، وكانت أرض الكنعانيين وأقام معه لوط عليه السلام ، لكن المقام لم يطل به هناك ، بل كان ينتقل نحو الجنوب . فرحل إلى مصر ثم إلى أرض أبى مالك ، ثم إلى أرض الحجاز ، وفى نهاية المطاف لحق ابراهيم بالرفيق الأعلى . مات غريباً عن وطنه ، ودفن فى فلسطين فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون ، وفيها دفنت زوجه سارة من قبل ، وهو الموضع الذى عليه مقام الخليل فى جدون ، وتسمى مدينة « الخليل » وكان اسمها فى الأصل « قرية أربع » .

ويلاحظ أن هجرة نوح عليه السلام كانت جماعية شملت الفئة المؤمنة بأسرها ، بينما هجرة كل من إبراهيم ولوط ، كانت هجرة فردية إلا من الزوج ، وهذا بالطبع . راجع إلى اختلاف الظروف والبيئة ربما كان القوم فى عهدى ابراهيم ولوط ، لم يفكروا فى دفع الأتباع المؤمنين إلى الهجرة ، معتقدين أن فى التخلص من الرسولين الداعيين إلى الله ، والمقاومين لانحرافهم العقدى والأخلاقى ، راحة لهم ، واستقرار لنفوسهم . .

* * *

* **هجرة موسى عليه السلام :**

أما موسى عليه السلام فقد جمع بين هجرتين :

هجرة قبل النبوة حين قضى بوكزة على مصرى كان يقتتل مع إسرائيلى من شيعته . وحدث فى أرجاء المدينة ما يشبه حالة التوتر ، فالمصريون لا بد أن يثوروا ، فاعتداء أجنبي على مواطن حتى القضاء عليه إنتصاراً لأجنبي آخر من شيعته . مثل هذا الاعتداء لا يمكن السكوت عليه من المواطنين الذين يشعرون بمهانة وجهت إلى صميم كرامتهم . وعلى الرغم من أن موسى قد أبدى أسفه وندمه ، إلا أن مثل هذا الأسف أو الندم لم يكن كفيلا بأن يطفىء ثورة

المواطنين أو حتى يهدىء منها ، فأصروا على قتله ، لولا أن الله الذى أراد له النجاة قيض له رجلا جاء من أقصى المدينة يسعى ، ناصحاً موسى أن ينجو بنفسه ويهرب قبل أن يدركه الملأ الذين يأتمرون به ليقتلوه ، واستجاب موسى للنصيحة فخرج من المدينة خائفاً يترقب ، ورحل إلى أرض مدين ، وهى فى الجزء الواقع جنوبى فلسطين حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية وشمال الحجاز ، وبقية القصة معروفة . .

أما الهجرة الكبرى فكانت بعد النبوة بعد أن أرسله الله وأخاه هارون إلى فرعون ، وفشلت كل مساعيهما ليظفرا بإيمان فرعون وقومه ، ولما ضاق به فرعون وبشيعته بنى إسرائيل قرر بمشورة مستشاريه ان يتخلص منه ومن شيعته معه فأوحى الله إلى موسى بالهجرة من مصر إلى أرض فلسطين ، ولا مجال هنا لمتابعة القصة المعروفة لدى كل قارىء . .

لقد أرسل الله موسى إلى فرعون وقومه وجعل له من أخيه هارون وزيراً ، فلم يواجه مجرد قوم وثنيين عكفوا على عبادة آلهة لا تضر ولا تنفع ، لأنها نفسها لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعا ، بل حتى لا تستطيع أن تذود عن نفسها إزاء عبث العابثين ، ولم يواجه — كما واجه الأنبياء والمرسلون قبله — قوماً فى صدورهم صدود عن

الهدى، وفى قلوبهم عمى عن الرشاد ، لم يواجه هؤلاء وأولئك وحسب بل بالإضافة إلى ذلك واجه جباراً فى الأرض هو فرعون الذى يدعى الألوهية ولا يقبل أدنى منازعة فيها ، وسواء أكان فرعون هذا هو الذى تربى فرعون فى بيته طفلا ، أم فرعون آخر جاء بعده ، فإن موسى لم ينس بعد قصة المذابح البشرية فى أطفال بنى إسرائيل شيعته ، وعلى يدى أحد الفراعنة ، كما لم ينس بعد صور العبودية التى عاشها بنو إسرائيل على يدى أحد الفراعنة أو أكثر ، ولا بد أنه شهد بنفسه بعضاً منها . .

لذلك كانت مهمة موسى شاقة مضنية ، فهى ليست قاصرة — على هداية قوم منصرفين عن الله إلى عبادة أوثان أو عبادة فرد بل يجب أن تمتد إلى محاولة لهداية جبار يدعى الربوبية لنفسه ، ولذلك أبدى تردده فى قبول الرسالة وأبدى مخاوفه من مستقبلها .

« قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى »[(١)] .

لكن موسى لم يكتف بذلك بل تقدم عليه السلام باعتذار من لون آخر :

(١) طه : ٤٥ ، ٤٦

« قال رب إنى أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون »[1] .

ولم تكن مهمة موسى عليه السلام بالنسبة لقومه إلا مهمة شاقة أيضاً ، فقد كان بنو إسرائيل على جانب من التعنت والتمرد والالتواء مما سبب له كثيراً من المتاعب ، فكان لابد أن يهاجر بهم فاراً من وجه فرعون وقومه الذين أخذوا يأتمرون به ليقتلوه . وكتب الله لهم النجاة بآية من آياته الكبرى ، كانت كفيلة بأن تبعث الايمان بالله فى الجماد فضلا عن الإنسان الذى منح عقلا وتفكيراً ، لكن بنى إسرائيل ما إن بلغوا شاطىء النجاة والأمان ، ورأوا كيف أهلك الله أعداءهم ، حتى راحوا يثيرون المتاعب فى طريق نبيهم موسى ، حتى صار أمرهم معه مثلا، فقد كان رسول الله — صلوات الله عليه— حين يستشعر شيئاً من أذى بعض أصحابه يقول : « رحم الله أخى موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر . .

* * *

هذه نماذج من هجرات الأنبياء والرسل عرض القرآن الكريم

(١) الشعراء : ١٢ ــ ١٥

للخطوط الرئيسية منها ، قد يكون هناك فى تاريخ النبوات والرسالات من تعرضوا لما تعرض له نوح وابراهيم ولوط وموسى ومحمد — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهاجروا بعقيدتهم من ديارهم وهى آخر شيء يضحى الإنسان به ، لكن مهمة القرآن ، ليست سرداً للتاريخ وتقصياً له ، فالقرآن فى كل مجال يكتفى بأن يقدم نماذج تكون بمثابة إشعاعات تضيء الطريق للأجيال القادمة . .

إن هناك أوجه شبه عديدة بين هذه الهجرات النبوية التى عرض لها القرآن فى إيجاز ، وكذلك أوجه اختلاف ربما فى السلوك وربما فى الوسيلة ، لكنها متفقة فى تحقيق المعنى والغاية معاً ، فليس من الخير لدعوة من الدعوات الإصلاحية التى تهدف استقرار البشرية وسعادتها ، ولا من مصلحة أتباعها أن تظل هذه الدعوات الحية قابعة فى حيز ضيق ، غرضا لكل مستخف ، فإذا ضاقت الأرض بها فأرض الله واسعة ولا يعدم الوجود ناساً آخرين يرحبون بها ويحسنون استقبالها ، ويفتحون لها صدورهم . .

إن لدعوات الله أهدافها التى يجب أن تتحقق ، وإن أتباع الدعوات مسئولون عن تحقيق هذه الأهداف ، ومن أهداف الدعوات تحرير الإنسان من استعباد الإنسان له ، تحرير الإنسان من الضعف حتى يشعر بوجوده ، تحرير الإنسان من الخوف حتى لا يعجز عن أن يقول كلمة الحق فى أى مجال . .

الهجرة فى القرآن والسنة

أولا : فى كتاب الله :

ورد لفظ الفعـل « هاجر » أنواعه ومشتقاته فى مواضع عديدة من كتاب الله تعالى ، كما ورد معنى الهجرة دون لفظها فى أكثر من آية ، ويهمنا فى هذا البحث أن نتتبع الآيات التى تضمنت الإشارة — باللفظ أو المعنى — إلى الهجرة النبوية — على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التسليم . .

إن أكثر من آية أشارت إلى قيمة الهجرة النبوية ومكانة الذين شرفوا بهذه الهجرة ، والجزاء الأوفى الذى يليق بمكانتهم فى الدنيا والآخرة ، ويلاحظ فى هذه الآيات ربط الهجرة بالإيمـان والجهاد ، كأنما هذه العناصر الثلاثة هى المكونات للمسلم الحق ، والمؤمن الكامل الإيمان :

فى سورة البقرة : الآية ٢١٨ .

« إن الذين آمنوا .. والذين هاجروا .. وجاهدوا فى سبيل الله.. أولئك يرجون رحمة الله . . » .

وفى سورة التوبة : الآيات ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

« الذين آمنو . . وهاجروا . . وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . أعظم درجة عند الله . . وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا ، إن الله عنده أجر عظيم » .

أما الآية رقم ١٠٠ من نفس السورة . فتجمع بين المهاجرين والأنصار ومن اتبعوهم بإحسان :

« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان . . رضى الله عنهم ورضوا عنه . . وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . . خالدين فيها أبدا . . ذلك الفوز العظيم »

وفى سورة النحل : الآيتان: ٤١ ، ٤٢ ، والآية ١١٠

« والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا .. لنبوئنهم فى الدنيا حسنة . . ولأجر الآخرة أكبر لوكانوا يعلمون . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون . »

« ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا . . ثم جاهدوا .. وصبروا . . إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

قد يقال هنا : إن سورة النحل مكية ما عدا الآيات الثلاث الأخيرة

فهى مدنية ، إذن فهناك احتمال — كما يقول ابن كثير فى تفسير الآيتين الأوليين — أن يكون سبب نزولهما فى مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم .. لا فى مهاجرة المدينة لكن لماذا لاتكون الآيتان ، وما يشبههما قاعدة جزائية عامة ، تشمل مهاجرة الحبشة ، وما بعد مهاجرة الحبشة ، ثم إن ابن كثير قال: « ويحتمل » ومعنى هذا أنه يحتمل أيضا أن يكون سبب النزول فى مهاجرة الحبشة أو غيرهم . ومع ذلك فابن كثير لا يقول بالاحتمال عند تفسيره للآية الثالثة « ١١٠ » ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا . . . الآية » فيكاد يؤكد أو على الأقل يشير إلى أن سبب نزولها فى مهاجرة المدينة ، فيقول :

« هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين فى قومهم ، فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة ، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ، ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وانتظموا فى سلك المؤمنين وجاهدوا معهم الكافرين ، فصبروا . . .

أما الزمخشرى فيجمع بين أصحاب الهجرتين فى تفسيره للآيتين الأوليين ، ويرى احتمالا آخر ، أنهم الذين كانوا محبوسين معذبين

بعد هجرة الرسول — صلوات الله وسلامه عايه ، فيقول :

« والذين هاجروا . . هم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه ، ظلمهم أهل مكة فنفروا بدينهم إلى الله ؛ منهم من هاجر إلى المدينة : وقيل : هم الذين كانوا محبوسين معذبين بعد هجرة الرسول ، وكلما خرجوا تبعوهم فردوهم . منهم : بلال وصهيب وخباب وعمار » .

* * *

فى سورة الحشر : الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ لا تعنى بالمهاجرين وحدهم ، بل تضع إلى جانبهم الأنصار الذين أعانوا المهاجرين على الحياة ثم الذين هاجروا متأخرين أو الذين اتبعوا الطائفتين المذكورين بإحسان :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا . . وينصرون الله ورسوله . أولئك هم الصادقون ..

« والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم » ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا . . ويؤثرون على

أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . .

« والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . . ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين ءامنوا . . ربنا إنك رءوف رحيم .

وفى سورة الأنفال نلمس عرضا يشمل قصة الهجرة ، ومكانة المهاجرين والأنصار ، والذين تأخروا عن الهجرة المحمدية — على صاحبها أفضل الصلاة — وكذلك الذين تخلفوا عنها نهائيا وفاتهم هذا الشرف العظيم .

ففى الآية ٢٦ تذكير للفئة المؤمنة مما كانت عليه قبل الهجرة من الضعف والخوف من أن يتخطفها الناس ، لكن الله بسبب — هجرتهم وإيمانهم بالله وثقتهم فيه — لم يتخل عنهم ، فأواهم إلى يثرب ، وأيدهم بنصره فى معركة بدر ثم رزقهم من الطيبات فى غنائم بدر . ولم يطلب الله عز وجل بعد ذلك منهم شيئا لقاء هذه النعم ، إلا أن يذكروا فضل الله عليهم بالشكر حتى تدوم لهم هذه النعم . وذلك الفضل :

« واذكروا إذ أنتم قليل . . مستضعفون فى الأرض . . تخافون أن يتخطفكم الناس . . فآوا كم . . وأيدكم بنصره . . ورزقكم من الطيبات . . لعلكم تشكرون » .

وفى الآية ٣٠ عرض موجز لقصة المؤامرة التى دبرتها قريش للتخلص من رسول الله — صلوات الله عليه — وكيف بسادتها فى دار الندوة يتشاورون للاتفاق على الوسيلة . واختلفت الآراء ، فرأى يرى التحفظ على محمد فى بيت وتشدد الحراسة عليه ، وتفنن أصحاب هذا الرأى فى أحكام هذه الوسيلة ، فلا يقتصر على حبس الرسول فى بيت مع تشديد الحراسة ، بل يجب أن يشد وثاقه . وأن يسد باب البيت غير كوة يلقى إليه منها طعامه وشرابه ، ثم بعد ذلك يتربصون به ريب المنون .

ورأى يرى أن يحمل محمد عليه السلام على جمل ويخرج من بين أظهر القوم . فلا يضرهم ما صنع بعد ذلك ، بل سيستريحون منه .

أما الرأى الأخير الذى أقروه ، فهو أن يؤخذ من كل بطن غلام ، ويعطى سيفا صارما ، ويضربه الجميع ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، ولا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلب بنو هاشم العقل عقلوه — والعقل معناه الدية .

وبينما كان هؤلاء المتآمرون يدبروا كان هناك تدبير أقوى وهو تدبير الله عز وجل . فأذن للرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ولأبى بكر بالهجرة . وصان الله رحلتهما إليه ، والقوم نيام مستغرقون .

إن هذه الآية نزلت فى مكة أيام الفتح . وكما أراد الله عز وجل أن يذكر الفئة المؤمنة عند النصر فى بدر بماض لها ، يوم أن كانت مستضعفة مغلوبة على أمرها ، كذلك أراد الله أن يذكر رسوله — صلوات الله عليه عند النصر الأكبر بفتح مكة ، بما سبق أن دبر له منذ أعوام ثمانية وعلى أرض مكة ، ولكن الله الذى حفظه وصانه من مؤامرات الأعداء ، هو الذى من عليه بهذا الفوز الأكبر ، كأنما أراد سبحانه أن يقر فى ذهنه : أن مكة التى حملت سادتها وكبراؤها على أن تغادرها خفية فى جنح الليل البهيم ، هى الآن نفسها التى فتحت لك أبوابها دون أية مقاومة ، وأن سادتها الذين ضاقوا بك ذرعا منذ سنوات ثمان ، هم اليوم الذين يستقبلونك مطأطئى الرءوس ، خاضعى الرقاب ، خافضى الأبصار . ذليلى النفوس ، بل هم الذين يقولون لك اليوم بعد أن أمكنك الله منهم حين سألتهم : ما تظنون أنى فاعل بكم : أخ كريم وابن أخ كريم ، بعد ما سبق فيهم فى شأنك . .

وهنا لمحة جديرة بالوقوف عندها طويلا لأنها لمحة تمثل الجزاء النفسى مع الجزاء المادى لاتباع الحق والباطل معا . . فمما لا ريب فيه أن الفئة المؤمنة التى كانت قلة مستضعفة فى مكة ، تعيش فى رهبة خشية أن يتخطفها الناس ، قد ترسب فى نفوسها آثار تلك الفترة العصيبة التى مرت بهم فى مكة ، وعندما كتب الله لها النصر فى معركة بدر ، أول معركة مواجهة بين الحق المتمثل فيها ، وبين الباطل المتمثل فى الفئة الكبرى الباغية التى سبق أن أرهقتها ، كان تذكير الله للفئة المؤمنة بماضيها المرهق ، وما يقابلها بعد بدر من حاضر مشرق . تطيبا لخواطرها ، وإزالة لرواسب المحنة التى لا تزال بقاياها مستقرة فى نفوسها وأذهانها ، إذن فهو جزاء نفسى لرفع معنوياتها إلى جانب الجزاء المادى ، وهذا الجزاء النفسى الكريم ، يقابله لدى الفئة الباغية جزاء نفسى من طراز آخر يتمثل فى الحسرة والندم والخزى والعار إلى جانب الجزاء المادى والمتمثل فى إرهاق أرواحها ، وإلى هذا الجزاء النفسى أشارت الآية السابقة : واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض . . . الآية . . .

ومما لا ريب فيه أيضا ، أن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — بشر — للعوامل النفسية جزء من كيانه البشرى كسائر

البشر ، فلا يمكن أن يكون قد نسى الحالة النفسية المرهقة التى اعتملت فى أعماقه ليلة التآمر عليه ، بل الليالى الثلاث التى قضاها ورفيقه فى الغار ، بل ولا الليالى المعدودة التالية ظل فيها يقطع الفيافى والقفار مع صاحبه خلف دليلهما عبد الله بن أريقط . . حتى سكنت نفسه عندما بلغ يثرب ، لا يمكن أن يكون الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — قد نسى شيئا من هذا ، حتى بعد أن أمكنه الله من الأعداء فى معركة بدر ، والله سبحانه وتعالى حين يذكره فى فتح مكة بأقسى ليلة مرت به ، وأقسى محنة نفسية اعتملت فى أعماقه ، فإنما يريد الترويح عن نفسه ، وهذا الترويح هو بمثابة تعويض عن الآلام التى سبق لها أن حزت فى نفسه منذ ثمانية أعوام وما قبلها . .

وهذا الجزاء النفسى الكريم بالنسبة للرسول يقابله بالنسبة لسادة مكة جزاء نفسى من نوع آخر ، أعقبهم الحسرة فى نفوسهم ، والذلة فى كيانهم ، وجعلهم فى موقف لا يحسدون عليه . .

وقد يدور فى الأذهان سؤال :

لماذا لم يذكر الله سبحانه رسوله — صلوات الله وسلامه عليه — بقصة التآمر عليه ليلة الهجرة بعد بدر كما ذكره وأصحابه بمرحلة الضعف والهوان التى مروا بها فى مكة على مسار ثلاثة عشر عاما ؟

إن النصر الساحق للفئة المؤمنة التى كانت مستضعفة ، على الكثرة الباغية التى كانت مستبدة ، فى أول لقاء مواجه ، وبعد عامين اثنين على الهجرة التى كانت نقطة التحول وإشارة البدء بالانطلاق ، مثل هذا النصر له قيمته الأدبية ، وهو موقف جدير بأن يتذكر فيه الرسول أو يذكَّر بأيام محنته عند الهجرة . . كما ذكر أصحابه بأيام محنتهم وهم مستضعفون فى مكة ، يخافون أن يتخطفهم الناس .

هذه لمحة أخرى جديرة بالوقوف عندها طويلا . فالفئة المؤمنة التى كانت مستضعفة فى مكة ، مغلوبة على أمرها ، لقيت الكثير من عنت الطغاة وبطشهم وجبروتهم ، وتذكيرهم بهذا الماضى فى أول انتصار لهم ، فيه إرضاء لنفوسهم ، وتخفيف من رواسب الآلام التى لا تزال راسخة فى أعماقهم وعالقة بأذهانهم ، ومستقرة في وجدانهم — وطاقاتهم فى احتمال هذه الآلام محدودة — حسبهم أنهم تحملوها على مسار ثلاثة عشر عاما فى مكة بأجسادهم وأعصابهم . ثم تحملوا رواسبها فى المدينة أكثر من عامين بأحاسيسهم ومشاعرهم ووجدانهم ، وفى هذا التذكير يوم النصر — فى نفس الوقت — تأكيد لإيمانهم بالله وثقتهم فى نصره ، فالله الذى لم يتخل عنهم فى مكة ، فصان إيمانهم من الضعف ، وصان عزائمهم من الخور ، وصان نفوسهم من

التدهور ، لم يتخل عنهم أيضا فى أول معركة مواجهة بين الحق وهم ممثلوه ، وبين الباطل وطغاتهم هم ممثلوه ، فكتب لهم النصر فى القيمة الأدبية الرفيعة ، فلم يكن هناك تكافؤ لا فى العدد ولا فى العدة ولا حتى فى الفرص ، فالفئة الباغية كانت قوتها عاملا من عوامل جبروتها ، والفئة المؤمنة كانت لا تزال تنفض عن نفسها أوجاع ثلاثة عشر عاما كانت كفيلة بأن تهد الجبال .

وفى هذا التذكير للفئة المؤمنة — فى نفس الوقت أيضا — إشعار لها بأن النصر من عند الله سبحانه ، حتى لا يتسلل الغرور إلى أنوفها ، ولا العجب إلى عقولها ، ولم يكن ذلك مستبعدا ، فهم الذين أعجبتهم كثرتهم يوم حنين ، فلم تغن عنهم كثرتهم من الله شيئا .

أما الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فإن الله — سبحانه — قد منحه طاقة من الاحتمال غير محدودة ، فإذا كان أصحابه يكفيهم أن يتحملوا رواسب الآلام عامين أو أكثر ، فإنه — صلوات الله عليه — يستطيع احتمال هذه الرواسب أكثر من ثمانية أعوام .

ثم إن المقام المناسب بالنسبة للفئة المؤمنة ، هى أن ترى رأى العين فى معركة بدر أولئك الطغاة الذين استبدوا بهم فى موقف الهزيمة المنكرة ، ترى رأى العين مصارع البعض منهم ، والبعض الآخر يولى الأدبار جارا خلفه ذيول الخيبة والعار . .

أما المقام المناسب بالنسبة لرسول الله — صلوات الله عليه — فهو فتح مكة ، ليذكره الله بقصة المؤامرة التى دبرت له ليلة الهجرة للتخلص منه . بإحدى الوسائل الثلاث : إما باحتجازه فى معتقل رهيب ، وإما بقتله ، وإما بإخراجه من مكة ، واستقر الرأى على وسيلة القتل :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون . . ويمكر الله ، والله خير الماكرين »[1] .

فإذا كان الرسول — صلوات الله عليه — قد اضطر — لظروف اقتضتها السياسة الرشيدة — أن يغادر مكة متخفيا وفى جنح الليل البهيم ، فها هو ذا — صلوات الله عليه — يعود إلى مكة التى أخرجته فى وضح النهار ، وإذا كان قد اختار الهجرة فى الوقت المناسب ،

(١) سورة الأنفال : ٣٠ .

حتى لا يمكن منه أعداءه ؛ فغادر مكة مسقط رأسه وأحب بلاد الله إلى الله وإليه ، غادرها وهو خائف يترقب ، فها هو ذا — صلوات الله عليه — يعود إليها غير خائف ولا هياب ، بل أعداؤه اليوم هم الخائفون المترقبون ، يستبد بهم الروع والفزع وهم فى حيرة من مرهم يتوقعون مصيرا مجهولا ؛ ومن الذى سيحدد مصيرهم ؟ إنه محمد — صلوات الله عليه — الذى غادر من أجلهم وطنه وهو خائف يترقب . .

وقد يدور بالأذهان سؤال آخر :

لماذا جاء التذكير فى الآية السابقة شاملا الفئة المؤمنة . . واذكروا إذ أنتم قليل . . الآية .

بينما جاء فى الآية الأخرى خاصا بالرسول . . وإذ يمكر بك الذين كفروا . . . الآية ؟ ؟

إنه سؤال جدير بالوقوف عنده ، فالفئة المؤمنة فى مكة تحملت كجماعة ما تحملته من آلام ، فجاء التذكير شاملا لهم ، بينما الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — قد تحمل وحده الآلام والمتاعب النفسية ليلة الهجرة ، قد يقال : ألم يكن معه أبو بكر ، وتحمل معه

ما تحمل ؟ بأى كان معه أبو بكر ، لكن الرسول وحده كان المقصود بالمؤامرة التى دبرت للتخلص منه ، وقد أوحى الله إليه بذلك ، ولك أن تتدبر الحال التى كان فيها رسول الله — صلوات الله عليه — وهو يعلم أن الملأ يأتمرون به ليقتلوه ، ويترصدون كل حركة من حركاته ، وكل همسة من همساته ، وفى مثل هذه الظروف النفسية المرهقة يؤمر بالهجرة سرا ، حقا لقد كانت ثقته فى الله كبيرة ، وإيمانه به عاليا ، لكن لماذا نجرده من بشريته ، حين يعتور نفسه جانب من القلق ، ووجدانه طرفا من الإرهاق ؟ إن مثل هذا وذاك لا ينافى على الإطلاق ثقته فى الله عز وجل وإيمانه به واعتماده عليه ، ويقينه بنصره . . ولا مانع من أن يتفرع من هذا السؤال آخر جدير بالتأمل :

لماذا جاء لفظ التذكير ظاهرا فى الآية السابقة الخاصة بالفئة المؤمنة : واذكروا . .

ولماذا جاء لفظ التذكيرا مقدرا فى الآية الأخرى الخاصة بالرسول : وإذ يمكر بك . . على تقدير « واذكر يا محمد . . . ؟ ؟

ليس من المعقول أن نضع أصحاب محمد فى مستوى محمد — صلوات

الله عليه — وهو الرسول ، فإن قابلية النسيان لدى الأصحاب ممكنة ، وإما بالنسبة للرسول ، فلا يمكن أن ينسى رسول الله — صلوات الله عليه — نعم الله وأفضاله عليه ، لذلك نرى الآية الخاصة به جاء لفظ التذكير فيها مقدرا ، أما بالنسبة للمؤمنين ففى أكثر من آية ، جاء لفظ التذكير ظاهرا ، واقتصر على اللفظ المقابل للنسيان .

ففى سورة آل عمران : الآية ١٠٣

« . . . واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم . . . »

وفى سورة المائدة : ١٣

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم . . »

وفى سورة الأعراف الآية : ٨٦

واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم . . . »

وفى سورة الأنفال الآية : ٢٦ والتى نحن بصددها :

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض . . »

وفى سورة الأحزاب الآية : ٩

يا أيها الذين ءامنوا اذكروا نعمت الله عليكم . إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها . . »

* * *

والجزء من قصة الهجرة — بل إن هذا الجزء هو الممثل للجانب الروحى فى الهجرة — تعرض سورة التوبة فى الآية : ٤٠

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا.. فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها . . وجعل كلمة الذين كفروا السفلى . . وكلمة الله هى العليا . . والله عزيز حكيم . . »

هذه الآية فى غزوة تبوك حيث بدا على بعض المؤمنين .. شىء من التثاقل ، فأشار الحق تبارك وتعالى إلى قصة الهجرة فى هذه الآية ليقول للمتثاقلين : إذا لم تنصروا رسول الله فى هذا الموقف الحرج فتذكروا أن الله قد نصره فى موقف أكثر إحراجا ، بل نصره وليس معه إلا مؤمن واحد ، هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، نصره ضد أعداء لا يحصون عددا ، وأثارت الآية الجانب الروحى فى هذا الموقف الحرج ، الجانب الروحى الذى كان يتمتع به الرسول

ورفيقه ، اثنان فى غار منعزل فى أعلى الجبل ، يمكثان به أياما ثلاثة بلياليها ، ريثما تحين الفرصة لهما لمواصلة الرحلة ، والقوم لهما بالمرصاد ، ويبدو على الصديق ملامح الخوف لا خوفا على نفسه بل إشفاقا على الرسول — صلوات الله عليه — ويدور حوار بين الاثنين ، يبدو من خلاله الروح العالية الشفافة التى يتمتع بها الرسول ، فيبعث فى نفس صاحبه الطمأنينة ليهدئ من روعه : لا تحزن إن الله معنا .. واستجاب الله لهذه الروح العالية الشفافة فأنزل سكينته ، وأيد رسوله بجنود غير مرئية .. »

هكذا تذكر الآية أولئك المتثاقلين بنصر الله لرسوله وتأييده له ، وللدعوة التى حمل رسالتها ، حتى صارت كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة الله هى العليا ..

ويعرض القرآن لزاوية أخرى من زوايا الهجرة النبوية — على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التسليم — وهذه الزاوية لا تتعرض لذات الهجرة كحادث حركى ، وإنما تتعرض لها كعمل عظيم يجب أن يظل معنى كبيرا .. معنى حيا .. معنى خالدا فى حياة المسلمين ، فى أعماق نفوسهم وفى خلاصة وجدانهم ، فالفئة المؤمنة التى ظلت مستضعفة فى مكة ثلاثة عشر عاما ، مستعبدة .. مغلوبة على أمرها ،

كان لا بد لها أن تصل إلى نقطة تحول لتنطلق بعد أن تحطم أغلالها في أقرب فرصة تسنح لها ، فإذا لم تسنح هذه الفرصة كان عليها أن توجدها . .

ومن الخطأ أن يدرك المسلم أن الهجرة قد انتهت بهجرة الفئة المؤمنة من مكة إلى المدينة واستقرارها في الدار الجديدة . . لا . . فإذا كانت الهجرة قد انتهت باعتبار زمانها ومكانها ، فلا يمكن أن تنتهي بمعناها ومضمونها وأهدافها يجب أن تظل الطريقة المثلى لكل مستضعف من أجل دينه ، لكل مغلوب على أمره ، لا يملك إرادته ، حق الكلمة الحرة في وطنه أو غير وطنه . .

إن القرآن يتخذ موقفا مشددا ، بل موقفا غاية في القسوة من أولئك الذين يسترخون للاستضعاف ، ويستمرئون الاستذلال ، ويركنون إلى الدعة ، ويؤثرون أن يعيشوا كميات مهملة على أن لهم كيان يعتزون به ، وقد سماهم القرآن « ظالمي أنفسهم » وقد استعمل القرآن معهم هذا الوصف ، وربما مررنا نحن مر الكرام على هاتين الكلمتين دون أن تتركا في نفوسنا الأثر المطلوب ، فظلم الإنسان لأخيه الإنسان شيء مر تلفظه النفس وتمجه الكرامة وأشد مرارة .

من هذا النوع من الظلم ، هو ظلم ذوى الرحم والقرابة . ولقد أصاب المتنبي الشاعر حين قال :

وظلم ذوى القربى أشد مرارة على النفس من وقع الحسام المهند

فما بالك بظلم الإنسان لنفسه ؟ ألا يكون فى الدرجة القصوى من ألوان الظلم ؟

ومما هو جدير بالإشارة فى هذا المجال أن القرآن قد رفض منطق هؤلاء الظالمى أنفسهم ؛ الذين ركنوا إلى الذلة بحجة أنهم مستضعفون فى الأرض ، لأنه كان أمامهم أن يهاجروا من الأرض الظالم أهلها ، وأرض الله واسعة :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . . فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا(١) .

وكان لا بد أن يكون هناك استثناء للذين يعجزون عن الهجرة من كبار السن رجالا و نساء وكذلك الأطفال ، وهؤلاء ترجى لهم رحمة الله :

(١) سورة النساء : ٩٧ ، ٩٨ .

« إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله غفورا رحيما[1] » .

والمفسرون على أن « عسى » من الله للتحقيق ، لكن للمرحوم رشيد رضا فى المنار والإمام محمد عبده معه ، رأيا جديرا بالتقدير ، يقول : « والوعد بعسى الدالة على الرجاء . أطمعهم الله تعالى بالعفو عنهم ، ولم يجزم به للإيذان بأن أمر الهجرة مضيق فيه ، وأنه لا بد منه ، ولو باستعمال دقائق الحيل ، والبحث عن مضايق السبل . . قال الاستاذ الإمام : قالوا : إن « عسى » فى كلام الله للتحقيق ولا يصح على إطلاقه لأنه يسلب الكلمة معناها فكأنه لا محل لها[2] » .

وتأتى الآية التالية بعد ذلك وفيها تحريض على الهجرة وترغيب فى أن يترك المؤمن الأرض التى يجد نفسه فيها بلا كيان معترف به . وليس فى التحريض والترغيب معنى الجواز والإباحة ، فالهجرة من الضعف ، والتخلص منه أمر واجب فى حق كل مسلم :

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيرا وسعة

(١) سورة النساء : ٩٩ .

(٢) تفسير المنار الجزء الخامس .

ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله . وكان الله غفوراً رحيما » .

قال ابن عباس : « المراغم : التحول من أرض إلى أرض » .

ويقول ابن كثير : « والظاهر والله أعلم ، أنه المنع الذى يتخلص به ، ويراغم به الأعداء » .

ولفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف فى تفسيره « صفوة البيان لمعانى القرآن » رأى جدير الاشارة إليه ، يقول : « يجد فى الأرض مراغماً » متحولا ومهاجرا ، اسم مكان ؛ وعبر عنه بالمراغم ، للاشعار بأن المهاجر فى سبيل الله يصل فى الموضع الذى يهاجر إليه ، إلى ما يكون سبباً لرغم أنوف قومه الذين فارقهم ، من الرغم وهو الذل والهوان ؛ وأصله لصوق الأنف بالرغم ، وهو التراب ، وفعله من باب قتل ، وفى لغة من باب تعب » .

* * *

إذا كان الفرار من الظلم واجباً مقرراً على كل مسلم مستضعف فى الأرض ، واقتضت رحمة الله أن يستثنى من العقاب الشديد أولئك الذين لا يجدون حيلة ولا يستطيعون سبيلا من كبار السن والأطفال

فهل يترك هؤلاء العاجزون عن الفرار نهباً للظلم والضعة ؟ وهل يقبل الله من بقية المسلمين مجرد الدعاء للمستضعفين ، وإذراف الدموع عليهم ؟ كلا ، لقد كتب الله على المسلمين أن يقاتلوا من أجل هؤلاء المستضعفين ، فإذا تخلوا ، كان عليهم إثم القاعدين عن الجهاد فى سبيل الله :

« وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها . واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً[1] »

ثانياً : الهجرة فى الحديث النبوى :

عن ابن عباس قال :

« دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهى تبكى . فقال لها : « ما يبكيك يا بنية ؟ » قالت ، « يا أبت ومالى لا أبكى ، وهؤلاء الملأ من قريش فى الحجر يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، لو قد رأوك ، لقاموا إليك فيقتلونك ، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك ، فقال . « يا بنية ائتنى بوضوء » فتوضأ

(١) سورة النساء الآية ٧٥ .

رسول الله - صلوات الله عليه - ثم خرج إلى المسجد . فلما رأوه قالوا . ها هو ذا فطأطأوا رءوسهم ، وسقطت رقابهم بين أيديهم ، فلم يرفعوا أبصارهم . فتناول رسول الله - صلوات الله عليه - قبضة من تراب فحصبهم بها وقال « شاهت الوجوه » فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً » .

هذا الحديث - كما فى ابن كثير رواه ابن حيان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه وقال أنه صحيح على شرط مسلم ، وفيه إشارة إلى ما كان يسود بيت النبوة من توتر وقلق ، والذى يتدبر كلمات الزهراء رضى الله عنها « وهؤلاء الملأ من قريش يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » وقولها « وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك » يدرك أن القوم كانوا جادين لا يلقون الكلمات على عواهنها ، والذى يتدبر ما حدث بعد ذلك ، يدرك أن الله لم يأذن لنبيه بالهجرة فى مثل هذه الظروف الملتهبة بالحقد عليه المتحفزة للنقمة منه ، إلا وهو كفيل بحمايته وصيانة دمه ، على الرغم من حرص المتآمرين عليه المؤتمرين به ، الذين أحاطوا بيته إحاطة السوار بالمعصم ، وباتوا يرصدون حتى همسات صوته فضلا عن حركات قدميه .

كما أن فى هذا الحديث إشارة إلى أن الله سبحانه شاءت إرادته أن يكون فى نجاة رسوله ـ صلوات الله عليه ـ وإفلاته منهم بالرغم من رقابتهم المشددة ، طاقة جديدة من اليقين تضاف إلى ما فى إيمان الرسول من يقين ، ودرس فى نفس الوقت للأعداء المتربصين بالدعوة والداعية لعلهم يرعون ، فلو كانت آلهتهم على جانب ـ ولو طفيفا ـ من الحق ، لأمكنتهم منه ونصرتهم عليه .

عن أنس أن أبا بكر حدثه . قال :

« قلت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن فى الغار . . لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه » قال فقال . يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » .

هذا الحديث من رواية أحمد وهو فى الصحيحين كما يذكر ابن كثير .

لم يكن أبو بكر إلا مشفقاً على رسول الله ـ صلوات الله عليه وفى نفس الوقت ما كان أحوجه إلى أن يستمع إلى كلمات تبعث الطمأنينة فى نفسه ، من رسول الله المؤيد بالوحى ، والمطمئن إلى رعاية ربه وعنايته . وفى كلمات معدودة ، أجاب الرسول صاحبه ، ولم تكن

الكلمات فى حاجة إلى جدل أو حتى إلى تعقيب ، هذه الكلمات الحلوة التى نطق بها الرسول بدافع من إيمانه ويقينه ، وثقة فى ربه واطمئناناً إليه ، وتقبلها الصديق بقبول حسن ، فلم يكن ينقصه الإيمان ولا اليقين ، ولا الثقة فى الله والإطمئنان إليه .

وإذا كان الله سبحانه قد حمى رسوله من كيد أعدائه وهم متربصون به ، مترصدون له ، فأحرى به سبحانه أن يحميه من كيدهم وهو فى معزل عنهم ، بعد أن أفلت من الحصار الذى ضربوه حول بيته .

قال رسول الله ــ صلوات الله عليه ــ لعمرو بن العاص .

« أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ؟

وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ؟

وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟

هذا بعض حديث مطول فى صحيح مسلم ، ويهمنا منه العبارة الخاصة بالهجرة ، فإذا كان الإسلام يهدم ما قبله من أيام الجاهلية ، فإن الهجرة تهدم ما كان قبلها أيام الإسلام ، والمقصود بالهدم هو التكفير ، كأن الهجرة تهدم الذنوب السابقة عليها ، وهذا تكريم للهجرة العظيمة ، وعمرو بن العاص كان يتحدث عن ماضيه قبل

الإسلام ، وأيام الجاهلية ولم يكن من المهاجرين ، لكن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أراد أن يذكر إلى جانب الإسلام الذى يجب ما قبله : الهجرة والحج ، وهما أيضاً يجبان ما قبلهما ، والمناسبة قائمة بين الاثنين ، ففى كليهما مشقة وعناء : ولجوء إلى الله عز وجل .

عن ابن عباس عن النبى ـ صلوات الله عليه ـ قال :

« لا هجرة بعد الفتح ! ! ولكن جهاد ونية ! ! وإذا استنفرتم فانفروا » .

هذا الحديث رواه الجماعة إلا ابن ماجة كما فى نيل الأوطار للشوكانى . وينقل الشوكانى أقوالا للعلماء ، ويذكر رأى الطيبى وغيره « هذا الاستدراك يقتضى مخالفة حكم ما بعده لما قبله ، والمعنى أن الهجرة التى هى مفارقة الوطن التى كانت مطلوبة على الأعيان إلى المدينة ، انقطعت ، إلا أن المفارقة بسبب الجهاد باقية ، وكذلك المفارقة بسبب نية صالحة ، كالفرار من دار الكفر ، والخروج فى طلب العلم ، والفرار بالدين من الفتن والنية فى جميع ذلك » .

أما النووى فيقول مفسراً قول الرسول : « وإذا استنفرتم فانفروا » .

« يريد أن الخير الذى انقطع بانقطاع الهجرة يمكن تحصيله بالجهاد والنية الصالحة ، وإذا أمركم الإمام بالخروج إلى الجهاد ونحوه من الأعمال الصالحة فاخرجوا إليه » .

إن هذا الحديث النبوى العظيم يشير إلى تحديد زمان الهجرة ، وهو يبدأ بالطبع منذ أذن الرسول ـ صلوات الله عليه ـ لأصحابه بالهجرة بعد لقاءاته المعروفة مع الأنصار ، إلى فتح مكة ، والذين نالوا شرفها كاملا ، هم الذين هاجروا قبل الرسول وبعده إلى فتح مكة ، لأن المسلم فى هذه الفترة يفر بدينه إلى الله عز وجل ، ويضحى بأغلى ما يضحى به الإنسان وطنه ، بالإضافة إلى ما يلقاه ـ فى سبيل هجرته من مشاق ، وما يواجهه من صعوبات ، أما بعد فتح مكة ، فقد تحولت مكة إلى أرض سلام واطمئنان للمسلمين ، ولم يبق ما يدعو إلى الهجرة ، وحتى لو أراد المسلم الهجرة فلن يلقى ـ فى سبيل هجرته مشاق ، ولن يواجه صعوبات ، ولن يتحمل شيئاً من التضحية والبذل والفداء ، لكن من فاته شرف هذه الهجرة ، فإن هناك شرفا آخر ينتظره ، هو الجهاد فى سبيل الله .

إن لهذا الحديث النبوى مغزى آخر جميلا ، فلو سمح بالهجرة بعد فتح مكة لمن يريد ، فمعنى هذا ، أن التوسع فى الهجرة قد يؤدى

إلى تقليل عدد المسلمين فى مكة ، ومن يدرى ؟ أليس من الجائز أن يشكل العدد الذى آمن بلسانه ولم يؤمن قلبه . خطراً على الدعوة وقد يؤدى إلى حركة مضادة لاسترداد مكة من الإسلام ، وإعلان التمرد على الدولة الإسلامية الناشئة بالمدينة ؟

إن لنا عودة إلى هذا الحديث فى الفصل الأخير من البحث — إن شاء الله تعالى .

● عن أبى هريرة — كما وراه البخارى :

« بينا رسول الله — صلوات الله عليه — يصلى العشاء، إذ قال: « سمع الله لمن حمده » ثم قال قبل أن يسجد : « اللهم أنج عياش ابن ربيعة . . اللهم أنج سلمة بن هشام » اللهم أنج الوليد بن الوليد . اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين »

هؤلاء جماعة من المسلمين الذين تطلعوا إلى الهجرة ، لكنهم لم يتمكنوا ، احتبسوا بمكة ، ومع أن عياش بن أبى ربيعة قد بلغ المدينة فعلا، إلا أن أبا جهل قد لحق به وخدعه حتى استرده إلى مكة بدافع من الإشفاق على أمه ، التى نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراه ، ولا تستظل من شمس حتى تراه ، فرق لها ليبر قسمها وله مال فى مكه يأخذه . .

إن هذا الحديث النبوى يشير إلى أن الرسول ـ صلوات الله عليه ـ ما كان لينسى من هو فى محنة من أتباعه ، واتجاهه إلى الله سبحانه بالدعاء لهم أن يخلصهم الله مما هم فيه ، وينجيهم من مكائد القوم ، يوضح ما كان يعتمل فى نفسه من آلام بشأن هؤلاء المستضعفين المغلوبين على أمرهم . وهكذا شأن القيادة العظيمة والزيادة الرفيعة .

● عن أنس بن مالك — كما فى مسلم أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال :

« إن الأنصار كَرِشى وعيبتى ، وإن الناس سيكثرون ويقلون ، فاقبلوا من محسنهم ، واعفوا عن مسيئهم »

قوله . صلوات الله عليه — « الأنصار كرشى وعيبتى » قال العلماء — كما يذكر النووى — معناه : جماعتى وخاصتى » الذين أثق بهم وأعتمدهم فى أمورى ، قال الخطابى : « ضرب مثلا بالكرش لأنه مستقر غذاء الحيوان الذى يكون بقاؤه ، والعيبة ، وعاء معروف أكبر من المخلاة ، يحفظ الإنسان فيها ثيابه وفاخر متاعه ويصونها ، ضربها مثلا لأنهم أهل سره وخفى أحواله » .

هناك أكثر من حديث نبوى يشيد بالأنصار ، بالإضافة

إلى أكثر من آية قرآنية فى الإشارة بهم فدورهم فى إعزاز الدعوة ، وبناء الدولة ، أكبر من عظيم ، أما مروءتهم نحو إخوانهم المهاجرين فقد فاقت كل ألوان المروءة وأرفعها ، وحين قال صلوات وسلامه عليه :

« لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار »

ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادى الأنصار وشعبهم . .

الأنصار شعار والناس دثار . . »

حين قال الرسول ذلك ، لم يكن هذا القول مجاملة أو تطييبا للخواطر ، بل كان تقديراً لهم ، وفى نفس الوقت اعترافا بالفضل لذوى الفضل .

● روى الإمام أحمد عن عبدالله البجلى ، أن رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ قال :

« المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة »

كان رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ حريصا كل

الحرص أن يمزج بين المهاجرين والأنصار ، ليصرهم جميعا فى بوتقة الإسلام ، لذلك كان أول عمل قام به إثر وصوله المدينة ، هو أن آخى بينهما ، لأن وحدة الجبهة الداخلية كانت ضرورية لقيام الدولة المسلمة الناشئة ، لتستطيع الصمود فى مواجهة عدو خارجى يتحفز للإنقضاض عليها ممثلا فى قريش والقبائل العربية المتجاوبة . لها ، وفى مواجهة عدو داخلى يتربص بها الدوائر ممثلا فى اليهود المقيمين بالمدينة ، والمنافقين ، وهؤلاء يحلو لهم العمل فى الظلام ، وهم أخطر مراحل من العدو الخارجى .

* * *

مرحلة التحرير الفكري والتغيير الاجتماعي

* بداية شاقة .
* المواجهة الأولى .
* العرض المسالم .
* الايمان فى مواجهة القوة .

بداية شاقة

إن هذه البداية الشاقة المضنية هى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة الاسلامية . وهى مرحلة ليست بالقصيرة ، فمسارها ثلاثة عشر عاما ، إذا كنا نجعل شيئا من الاعتبار للزمن فى تقييم القضايا الكبرى فى تاريخ البشرية ، ولا سيما إذا كانت هذه القضايا هى الرسالات السماوية التى تستهدف إسعاد الإنسانية ورفاهيتها ، لكن لا يمكن أن يكون للزمن كبير اعتبار فى تقييم الرسالات السماوية ، أو بمعنى أقرب أن يكون للكم كبير اعتبار ، وإن كان من الضرورى أن يكون للكيف أكبر جانب من الاعتبار .

فإذا أردنا أن نقيّم مرحلة شاقة مضنية كالمرحلة المكية التى أريد فى خلالها أن يتم تغيير جذرى فى التفكير والسلوك ، تمهيدا لإقامة بناء جذرى فى التفكير والسلوك ، تمهيدا لإقامة بناء جديد على أنقاض عقائد قديمة قدم ما قبل التاريخ ، وتقاليد متوارثة ، وثيقة الارتباط بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، فليس من حقنا أن نتساءل :

كم عمر هذه المرحلة ؟

ولكن من حقنا أن نتساءل :

كيف مضت هذه المرحلة ؟

وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نعى تماما الإجابة عن هذه الأسئلة :

ما طبيعة الأرض التى نبتت فيها الدعوة الإسلامية ؟

ما حقيقة الشعب الذى يسكن هذه الأرض ؟

ما المؤثرات الداخلية والخارجية المحيطة بالأرض والشعب معا .

عندما بحث « نولدكه » لفظ « عرب » قال : « يظهر أن المعنى الحقيقى للفظ عرب هو . . صحراء . . »

ولما كان للأرض تأثيرها على البيئة ، فقد أصبح من المقرر أن تتميز طبائع الناس بالخشونة ، والصلابة ، والعناد ، كنتيجة لحياتهم التى تعتمد على الصراع الدائب مع الصحراء ، والصراع لا يعرف النعومة ولا المرونة ولا الاستسلام .

ومكة التى نبتت فيها الدعوة هى بنت الصحراء ، لأنها بقعة لا غرس فيها ولا ماء ، نجاد وجبال . . وواد فسيح لكن غير ذى زرع ، بل إن مكة عدة سلاسل من الجبال تكاد تحصر

هذا الوادى ، فكان من الطبيعى أن تؤثر هذه الأرض فى أهل مكة ، تؤثر فى ميولهم ونزعاتهم وسلوكهم ، دون أن يتقبلوا أى تأثير خارجى يمس سلطانهم، أو تأثير داخل — غير الأرض — يمس وجودهم وأفكارهم معا . .

ومع أن مكة هى طريق القوافل التجارية المحاذى للبحر الأحمر ما بين اليمن وفلسطين ، ولا بد أن يحط المسافرون رحالهم فيها للراحة أو طلب الزاد ، إلا أنها ظلت على مسار مئات السنين كما هى . . شأنها شأن البيئة الصحراوية بأسرها .

وهناك امبراطوريتان عظيمتان تقومان ، وكل منهما تكاد تكون متاخمة المنطقة العربية الصحراوية ، هما فارس والروم ، لكل منهما أملاك شاسعة تبعد عنهما آلاف الأميال ، إلا أن كلتا هاتين الامبراطوريتين لم تستطع أن تمد نفوذها على المنطقة العربية الصحراوية، وأقصد بها شبه جزيرة العرب فضلا عن مكة أم القرى ، هذه البلدة ذات الموقع الحساس فى مجال التجارة . .

بل حتى — مع عجز كلتا الامبراطوريتين عن بسط نفوذها على هذه المنطقة — عجزت أيضا عن أن تؤثر فيها بتقاليدها وأخلاقها ونظمها السياسية أو الاجتماعية . .

وشىء آخر جدير بالنظر .

لقد قامت فى جزيرة العرب نفسها عدة ممالك ، فلم تقم مملكة فى مكة ؟

فى الجنوب قامت ممالك معين وسبأ ومملكة الحميريين ومنهم الملوك التبابعة . .

وفى الجنوب الشرقى — فى حضرموت عاش ملوك كندة ، وإن كانت مملكتهم لم تعمر طويلا .

ويبقى السؤال ينتظر الإجابة : لماذا لم تنشأ فى مكة مملكة ؟ أليس فيها بيت الله الحرام يحج إليه كل عام عشرات الألوف من العرب ؟

إن مرد ذلك ، هو التغلغل القبلى فى مكة وما حولها ، وطبيعة الصحراوية الخالصة التى خلقت فى كل قبيلة زعامة مستقلة ، ودولة داخل الأم الكبرى مكه . .

مثل هذه الظروف تجعل أى أمل فى إحداث تغيير ضعيفا . . بل تجعل من أية محاولة لإحداث أى تغيير مهمة شاقة مضنية ، ولا سيما إذا أضفنا إلى ذلك أمرين .

الأول : يتصل بعقيدة أهل مكة ..

والآخر : يتصل بالمجتمع المكى ..

إن أهل مكة عاكفون منذ عهد سحيق على عبادة الأوثان والأصنام، متخذون من اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى آلهة، سكنوا واطمأنوا بها، لا لأنها — وحسب — آلهة أبائهم وأجدادهم مع أن الولاء للآباء والأجداد متمكن من نفوسهم، مسيطر على وجدانهم، ممتزج بأحاسيسهم ومشاعرهم، بل أيضا، لأن هذه الآلهة لا تكلفهم جهدا مضنيا فى التفكير، فهى ليست صاحبة رسالة أو شريعة ذات صلة بحياتهم، وهى فى نفس الوقت لا تملك نواهى ولا أوامر تؤثر فى سلوكهم وتسيطر على أخلاقياتهم ..

إن كل ما هو مطلوب منهم تجاهها هو تقديسها وإيمان مجرد بها، وليست للقداسة ولا الإيمان تبعات أو مسئوليات، ولا ريب أن لطبيعة الأرض الصخرية الصلبة أثرا كبيرا فى هذه الرخاوة الدينية، بل فى استكانة العقول واستسلامها ..

لا نكران فى أن فى الصحراء الشاسعة مجالا خصبا للتأمل، والتأمل يؤدى إلى التفكير، والتفكير يؤدى إلى المناقشة، والمناقشة تؤدى إلى البحث عن الحقيقة ..

هذا صحيح ، ولا نستطيع الجزم بأن أهل مكة وأهل الصحراء قد حرموا التأمل ، ولـكن التأمل لديهم كان مصابا بالقصور .

ونحن إذا تتبعنا حياة هؤلاء الناس قبيل الرسالة المحمدية ، فلا نكاد نعثر إلا على أربعة نفر قد أثمر التأمل فى تفكيرهم ، إذ لم يقتنعوا بالأوثان والأصنام ، ولم يكادوا يعلنوا عن آرائهم فى صراحة حتى واجهتهم مقاومة ، لم يسعهم إزاء هذه المقـاومة إلا أن يغادروا مكة بأوثانها وأصنامها ويتفرقوا فى البلاد . . منهم ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها .

أربعة نفر ليس إلا من وسط الآلاف من أهل مكة ، تأملوا وفـكروا ثم هداهم التأمل والتفـكير معا إلى رفض دين القوم ، والبحث عن الحقيقة ، لا يقيمون دليلا على أن لدى الآلاف غيرهم استعدادا للتأمل المؤدى إلى التفـكير ثم إلى البحث عن الحقيقة . .

والأمر الثانى : المجتمع المـكى .

هذا المجتمع له تقاليد ، وهذه التقاليد جامدة غير قابلة للتطور بحال من الأحوال ، لأنها تقاليد موروثة عن الآباء والأجداد ، والولاء للآباء والأجداد له قداسة ترفض أن تمس ، ولأنها ما دامت موروثة عن الآباء والأجداد ، فهى غير قابلة للتبديل أو التغيير ،

بل هى معصومة من الخطأ ، منزهة عن النقص . . وتصبح بعد ذلك جزءا من شرفهم ومروءتهم . .

وليس سر قداسة هذه التقاليد هو الولاء المطلق للآباء والأجداد — وحسب — بل إن هناك سرا آخر ، هو أن هذه التقاليد جامدة أيضا لا تكلفهم جهدا فى التفكير ، ولا مشقة فى المناقشة ، فهى كالوثنية تماما ، فكما أن الوثنية تمنحهم الرخاوة الدينية ، كذلك التقاليد تمنحهم الرخاوة الاجتماعية . .

وهناك سر ثالث له أهميته :

إنها ترضى أهواءهم ، وتروى نزعاتهم ، ولا تمس شيئا من سلطانهم ، إنها تمنحهم التحلل من أية قيود ، كما تمنحهم حياة الترف بلا حدود . . وحياة اللهو بلا قيود . .

فهم لا غنى لهم عن الخمر مثلا وهى تبرهن على أن لهم نصيبا من الترف . .

وهم لا غنى لهم عن الميسر ، والميسر يبرهن على أن لهم نصيبا من اللهو . .

وإن هذه التقاليد تشبع كبرياءهم وغرورهم :

فهم لا غنى لهم عن الطبقية مثلا ، يجب أن يكون هناك سادة

وعبيد ، فلا تثبت سيادتهم إلا مع وجود عبيد ، ويجب أن يكون هناك أغنياء وفقراء . . وغناهم لا يثبت لهم إلا مع وجود فقراء . . وإنما ترضى شهواتهم :

فهم لا غنى لهم عن المرأة كمتعة ، وليست كشريكة حياة ، كقطعة أثاث ، وليست مخلوق له إرادته ، لذلك من حقهم أن يملكوا عددا غير محدود من النساء ، ومن حقهم أن يغيروا ويبدلوا ، كما يغيرون . ويبدلون قطع الأثاث ، ومن حقهم أن يدسوها فى التراب إذا توهموا العار ، أو يدفعوها إلى البغاء عندما يحتاجون إلى مال . .

إذن فقد كانت هناك ارتباطات وثيقة بين أهل مكة والقديم سواء فيما يتصل بالعقائد أو فيما يتصل بالتقاليد ، فدينهم هو هو لم يتغير ، ومجتمعهم هو هو لم يتحول ، والعقل يقف جامدا صلبا صلابة الأرض التى يعيشون فوقها ، والتفكير معطل بالتبعية لتعطل العقل ، وأى مساس بالدين الممثل فى الوثنية ، وأى مساس بالمجتمع الذى تمثله التقاليد ، لا يثير العقل ليناقش من جديد الدين الذى لا يليق إلا بالصبية فى مرحلة العبث واللهو ، أو يناقش المجتمع الذى استرخى لتقاليد همجية لا تليق بالآدمية التى كرمها الله . وإنما يثور

الطبع دفاعا عن القديم ، وذودا عن حرمته المقدسة .

لذلك كانت مهمة الدعوة الإسلامية فى أول مواجهة شاقة مضنية ، فلم تكن الدعوة فى بدايتها تملك من القوة عددا وعدة لتعلنها ثورة جامحة على الوثنية البلهاء ، وعلى التقاليد البالية . . وحتى لو كانت الدعوة تملك القوة التى تمكنها من القيام بثورة جامحة على القديم لما فعلت ، فليس للإسلام مصلحة فى أن يثير فى أهل مكة طبعه ، وإنما فى أن يثير فيهم العقل ليهكه من عقاله ، إذن فلتكن أول مواجهة للوثنية والتقاليد الموروثين تعتمد على المناقشة القائمة على المنطق السليم ، ولن تعدم المناقشة عقلاء يستجيبون لها ، وإن كانت الأغلبية الساحقة ، لن تسمح حتى بهذه المناقشة الهادئة السلمية الوادعة إلى أبعد حدود ، لأن عقولها قد استرخت للجمود واستعذبته ، ولكن حسب الدعوة الإسلامية أن يستجيب للعقل أى عدد من أهل مكة ولو معدودا على أصابع اليدين . .

وقد يقال :

ما دام الإسلام فى بدايته قد لجأ إلى المناقشة المنطقية يخاطب العقل ، وحتى لو كان يملك من القوة ما يستطيع بها أن يعلنها ثورة جامحة على الوثنية ، لما فعل ، لأنه يجب أن يقوم أساسا على الإقناع

لا على الإكراه ، إذن فلماذا لجأ فى فتح مكة إلى تحطيم الأصنام ، وتخلى عن منهجه فى الإقناع ؟

أجل ، عندما دخل رسول الله — صلوات الله عليه — مكة فاتحا فى السنة الثامنة من الهجرة ، كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما مرصصة بالرصاص ، وهبل أعظمها ، فهل كان من المنطق أن تترك هذه الكثرة من الأصنام لتستدر من جديد عاطفة الناس أو عطفهم ، وتناهض التوحيد الذى جاء من أجله الإسلام ؟

ثم لا ننسى أن الإسلام ظل إحدى وعشرين سنة يناقش بالمنطق أمر هذه الأصنام ، فماذا كان يراد منه بعد ذلك ؟

أيراد منه — وقد دخل الناس فى مكة فى دين الله أفواجا — أن يترك آلهة من الحجر أو غيره ، ليوحى برضاه عنها ، أو تقديره لها ؟

لقد كان من الضرورى على الإسلام أن يُرى للناس الآلهة التى عبدوها تلفظ آخر أنفاسها ، ولا تملك أن تدفع عن أنفاسها المعاول التى انقضت عليها من كل جانب لتسوى بها الأرض أو لتسوى الأرض بها ، ولن يبقى بعد ذلك لإنسان الحق فى أن يثق بها ، بعد أن ظلت تخدع الناس ، أو ينخدع الناس بها آلاف السنين ، لها الولاء الأعمى والقداسة البلهاء .

وأمر الرسول — صلوات الله عليه — بهبل، وهو واقف عليه. فكسر، فهمس الزبير بن العوام إلى أبي سفيان بن حرب.

— يا أبا سفيان: قد كسر هبل.. أما إنك قد كنت منه يوم أحد في غرور، حين تزعم أنه قد أنعم..؟

فأجاب أبو سفيان في هدوء:

— دع عنك هذا يا ابن العوام، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره، لكان غير ما كان..

كلمة حق نطق بها أبو سفيان زعيم قريش، الذي ظل إحدى وعشرين سنة يعلن الحرب على الدعوة، ويحمل شعار الثورة المضادة لكل تحركاتها..

كلمة حق نطق بها زعيم المعارضة الذي أسلم لتوه ولم يستقر الإيمان في قلبه، لقد مضت الأعوام الطوال دون أن تؤثر فيه المناقشة المنطقية، لكن الدليل المادي، الذي لمسه بنفسه، وهو يرى هبل يستسلم في بلاهة للمعاول تنهال عليه، جعله ينطق بكلمة الحق..

من يدري؟ فلعل أبا سفيان، ما كان لينطق بهذه العبارة من الحق لو لم ير.. هبل أمامه في موقف لا يحسد عليه، موقف يكشف

عن خداعه ، ويفضح حقيقته ، ويعريه من الهالة المقدسة التى كانت تحيط به .

وإذا كان من الضرورى أن يأمر محمد — صلوات الله عليه — بتحطيم أصنام مكة التى تمثل رءوس الآلهة ، فإنه من الضرورى أيضا ، أن يأمر بالاتجاه إلى أصنام القبائل الأخرى للإتيان عليها ولئن كان الإسلام قد فتح مكة عميدة المقاومة له ، ودان أهلها له بالطاعة ، فلم يكن من المنطق أن تترك القبائل المحيطة بمكة على كفرها ومروقها ، وأن تترك آلهتها فى مركزها الأسمى ، يدين لها الناس بالطاعة والولاء . .

لذلك بث رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — سراياه ، وأمرهم أن يغيروا على من لم يسلم . .

خرج هشام بن العاص فى مائتين قِبل يلملم . .

وخرج خالد بن سعيد بن العاص فى ثلثمائة قبل عُرَنَة . .

وخرج خالد بن الوليد إلى العزى فهدمها ، وكانت بنخلة . .

وخرج سعد بن زيد الأشهلى إلى مناة بالمشلل فهدمه . .

وخرج عمرو بن العاص إلى صنم هذيل . . سواع . . فهدمه . .

وخرج الطفيل بن عمرو بن طريف ... الدوسى . إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حممة الدوسى فحرقه بالنار . .

ثم نادى منادى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه :

« من كان يؤمن بالله وبرسوله ، فلا يدعن فى بيته صنما إلا كسره أو حرقه . . وثمنه حرام . . »

فجعل المسلمون يكسرون الأصنام ، ولم يكن رجل من قريش بمكة إلا وفى بيته صنم : إذا دخل مسحه ، وإذا خرج مسحه : تبركا به . .

وكان عكرمة بن أبى جهل لما أسلم ، لم يسمع بصنم فى بيت إلا مشى إليه حتى يكسره . .

إن مسلمى مكة الحديثى العهد بالإسلام ، حين يتجهون بأنفسهم إلى آلهتهم القديمة ، فيحطمونها أو يحرقونها بأيديهم ، إنما يوحى إليهم بطاقة من اليقين ، تؤكد لهم ، أن سنوات ماضيهم كانت غارقة فى الجهالة والخداع ، فقد بدت آلهتهم أمام أعينهم ، أنها لم تكن تستحق منهم ذرة من الولاء لها ، وهذا ما جعل هند بنت عتبة ، تضرب صنما فى بيتها بالقدوم فلذة فلذة — أى قطعة قطعة وهى تقول :

« كنا منك فى غرور . . !! »

سبحان الله !

هذه بنت عتبة بن ربيعة ، زوج أبي سفيان وأم معاوية ، هى التى تقول ذلك !!

هذه بنت عتبة التى كانت فى بدر تنزع النساء وتحرض المشركين على قتال محمد والمسلمين !!

هند بنت عتبة التى كانت أول من مثل بقتلى المسلمين فى أحد ، وحرضت نساء المشركين أن يمثلن بهم !! .

هند بنت عتبة التى حمل إليها وحشى بن حرب فى أحد أيضا ، كبد سيد الشهداء حمزة فمضغتها ثم لفظتها ، ونزعت ثيابها وحليها فأعطته وحشيا قاتل حمزة ، وقدمت إلى مكة وكبد حمزة معها !!

هند بنت عتبة التى قادت فى فتح مكة حملة ضد استسلام قريش ، وعندما سمعت زوجها بين أرجاء مكة يدعو إلى الاستسلام ، صرخت فى وجهه : « قبحك الله رسول قوم » بل حرضت على قتله : اقتلوا وافدكم هذا ، قبحك الله وافد قدم !!

هند بنت عتبة التى أباح رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — دمها ، جزاء لما لاقاه الإسلام منها !!

هند هذه هى التى تحمل بعد إسلامها قدوما ، تحطم صنما فى بيتها وهى تقول : « كنا منك فى غرور » .

* * *

لقد ظل كفار مكة وما حولها يدافعون عن القديم حتى بعد فتح مكة ، القديم الممثل فى وثنيتهم كدين ، وفى مجتمعهم كتقاليد ، وعلى الرغم من الانتصارات التى حققها الاسلام فى غزوات المسلمين ، إلا أن هذه الانتصارات لم تقنع كل القوم ، فظل جزء كبير منهم يرفض الإسلام ، ويعلن عداوته له ، ويدخل معه فى حرب . هذا إن دل على شىء ، فإنما يدل على أن التشبث بالقديم ، مما جعل مهمة الدعوة الإسلامية فى بدايتها مهمة شاقة مضنية ، فقد أعلنت منذ اللحظات الأولى سحب الثقة من القديم دينا ومجتمعا ، وثنية وتقاليد ، ولم تدع إلى مجرد التجديد ، بل دعت إلى تحويل القديم أنقاضا ، لتقيم بناء جديدا ، ولن يتم ذلك إلا إذا حدث إنقلاب شامل فى الفكر ، لذلك بدأت الدعوة تتجه إلى العقل ، وبدأت استعدادها للدخول مع سدنة القديم فى حوار هادىء . .

لكن لما كان القوم لم يتعودوا الحوار الجدلى ، لأن الحوار

يفرض عليهم أن يستعملوا عقولهم ، وهذا يكلفهم مشقة وجهدا ذهنيين هم فى غنى عنهما . .

ليس معنى هذا أن القوم أضربوا نهائيا عن الدخول مع محمد فى حوار ، بل لقد حدث شىء منه ، لكن السمة التى كانت تغلب عليهم هى التصدى للدعوة الجديدة بلا نقاش ، وبينما كان محمد — صلوات الله وسلامه عليه — يدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، كان القوم يقابلون الحكمة والموعظة الحسنة بالصد والصدود ، يسفهون آراء محمد حينا ، وحينا آخر ، يتعقبون كل من يستجيب للدين الجديد بالأذى ، بل بشر ألوان الأذى ، بل ولم يسلم الرسول نفسه من هذا الأذى .!.

ولو أن الدعوة الإسلامية لم تتعرض لدينهم ولا لمجتمعهم ، حتى ولو لم تعلن رضاها عنها ، لتغير الوضع ، فهم لم يتصدوا للدعوة الجديدة لأن مبادئها لم تعجبهم ، ولا لأن عقولهم لم تهضمها ، وإنما تصدوا لها لأنها دعت إلى انقلاب فكرى ، لن تكون نتيجته إلا قلب أوضاعهم رأسا على عقب . .

هل هناك شك فى أن كفار قريش قد تصدوا للدعوة الإسلامية لحفاظهم على القديم ؟ لقد ثار هذا التساؤل فى ذهنى وأنا أقرأ مقالا

للمرحوم الاستاذ العقاد فى مجلة الأزهر، هذا المقال يعرض فيه لكتاب صدر باللغة الإنجليزية ، عنوانه « الإسلام والجماعة المتحدة » لمؤلفه الأستاذ « مونتجومرى وات » عميد قسم الدراسات العربية بجامعة « أدنبره » انجلترا :

وبدا من تقديم الأستاذ العقاد لهذا الكتاب أنه يحسن الظن به ، حيث قال :

« فضيلة هذا الباحث فى دراساته الأخيرة ، أنه تخلص من آفة التفسيرات المادية للتاريخ ، وعرف مكان « الظروف » الاقتصادية فى تطور الحوادث وتطويرها ، فلم يجاوز بها حدها ، ولم يجعلها أساساً لكل حركة اجتماعية تحدث فى هذا العالم الحافل بأسبابه وأسراره ، فليست الحوادث الكبرى عنده معزولة عن العوامل الاقتصادية ، ولا عن عوامل المعيشة اليومية ، ولكنها تختلط بها وتؤثر فيها إلى أمد محدود ، ويجب على المؤرخ الباحث أن يصل بها إلى هذا الأمد ولا يزيد عليه » . . .

ورأى الأستاذ العقاد أن أهم وجهات النظر فى مبحث الكتاب هو أن المعركة بين محمد عليه السلام ، وبين كفار قريش لم تكن معركة بين دعوة تجديد ودعوة محافظة على القديم . بل كانت معركة

بين حركة تجديد وحركة تجديد أخرى ، ولكن فى طريقين مختلفين ، بل متعارضين[1] . .

ويلتمس المؤلف الأدلة التى تؤيد رأيه الجديد من واقع قريش قبيل الإسلام ، فيقول :

« كانت حياة كفار قريش تتحول من معيشة البداوة إلى معيشة الحاضرة التجارية ، وكانت ثروة الأرباح من تجارة القوافل تتدفق على زعماء العشائر القوية فى مكة ، وتتحول بهم من أخلاق فرسان البادية إلى أخلاق السادة المنعمين فى الحاضرة ، بين أناس من عشائرهم ، وأتباعهم وعبيدهم يخدمونهم مضطرين ، ولا يشاركونهم فى نعيم الثروة ، ولا فى غرة السطوة ، فهم — كسادتهم — غير محافظين ، وغير مطمئنين إلى ماهم فيه ، وإن كانوا يخافون التغيير المجهول ، ولا يسلمون زمامهم للمصلحين على غير ثقة بعاقبة هذا التغيير . .

فلم يكن السادة ولا العبيد — إذن — محافظين على القديم كما زعموا ، لإقناع أنفسهم بمحاربة الدعوة المحمديه ، وفاء منهم لآبائهم وأجدادهم ، ورعاية منهم لأربابهم ومعبوداتهم . . بل كانوا

(١) مايقال عن الاسلام طبعة أولى ص ٢٤ للأستاذ العقاد

جميعاً يتحولون من سنن أولئك الآباء والأجداد في معيشتهم وأخلاقهم ، ويأخذون في معيشة جديدة شعارها الترف والمتعة ، وأملها الأكبر زيادة الثروة والسطوة ، وحقيقتها الواقعة هي حقيقة كل « متعة حسية » يجور صاحبها على نفسه ، ويجور على المحرومين منها باختياره وبغير اختياره ، وهذه هي الحياة التي وصف القرآن الكريم أصحابها فقال إنهم اتخذوا الهوى إلهاً :

« وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون » .

أما التغيير الذي جاءت به الدعوة المحمدية ، فقد أفلح واستقر ، لأنه أعطى النفس الإنسانية — كما أعطى الجماعة كلها — حياة أفضل من حياتها ، وغاية أحق بالسعي إليها من غايتها » .

إن المرحوم الأستاذ العقاد لم يعلق على مثل هذا الرأي ، ولست أدري ، إن كان قد استحسنه ، أو كان يقصد مجرد عرض وجهة نظر في قضية أساسية ناقشها المؤلف ، وجعل منها موضوعاً لدراسته وهي . . الإسلام والجماعة المتحدة « أما المسألة التي نحن بصددها فهي عارضة في البحث ، لذلك لم يشأ العقاد أن يناقشها . .

ونحن لا ننكر أن قريشاً كانت لها تجارة واسعة ، وأن مكة —

بالذات — كانت مركزاً للتجارة بين اليمن والشام والحبشة . .
وأن هذه التجارة كانت تحتل أعظم جانب من حياتهم .

لكن الذى لا نوافق عليه هو أن يكون الحفاظ على مركز قريش التجارى هو الدافع الأساسى إلى مقاومة الدعوة الجديدة ، والتصدى لها لوأدها فى مهدها . .

فهذه الدعوة بدأت بقضية تتصل بعقيدة القوم دون أن تمس من قريب أو بعيد إقتصادياتهم ، أو حتى توحى بأنها فى المستقبل القريب أو البعيد سوف تتناول بالتغيير أنظمتهم الاقتصادية ، حتى يقال إن قريشاً تصدت للدعوة الجديدة خوفاً على أموالها أو نظامها الاقتصادى » .

ثم إن حركة التجديد لدى قريش ، والتى أشار إليها المؤلف ، حيث بدأت حياة كفار قريش تتحول من معيشة البداوة إلى معيشة الحاضرة التجارية ، لم تكن حركة تجديد بالمعنى المفهوم لكلمة « تجديد » وإنما كانت نزعة إلى تنشيط الحركة التجارية ، وحتى لو فرضنا جدلا ، أنها كانت حركة تجديد ، فإن هذه الحركة لم تمس عقيدتهم الوثنية ، ولا تقاليدهم الوثنية ، والدعوة الإسلامية ، إنما

كانت مهمتها الأساسية ، إحداث إنقلاب فكرى سلمى ، يؤدى إلى إنقلاب ، بل تغيير جذرى فى العقيدة والمجتمع . .

ثم إنه لم يكن زعماء التجارة من كفار قريش — هم الذين تصدوا وحدهم للدعوة الجديدة ، بل مئات غيرهم ممن لا صلة لهم بالتجارة ، والذين تصدوا للدعوة الجديدة من كبار التجار ، ليسوا إلا نفراً قليلا فى مقدمتهم أبو سفيان بن حرب ، والوليد بن المغيرة »

كثير من بنى هاشم كان لهم باع طويل فى تجارة القوافل وغيرها ، ومع ذلك فقد وقفوا إلى جانب الدعوة ، ولم يتصدوا لها ، ولا يقال : « إن بنى هاشم وقفت إلى جانب الدعوة الجديدة بدافع من العصبية وحدها » وللرد على هذا القول ، أن عم النبي أبا لهب ، وهو من دعائم العصبية ، قد تصدى للدعوة الجديدة منذ أول لحظة ، ونال أتباعها على يديه ألوانا من الأذى والاضطهاد » .

وعجيب ما أشار إليه المؤلف من العبيد والأتباع ، كانوا يخافون التغيير المجهول ، ولا يسلمون زمامهم للمصلحين على غير ثقة بعاقبة هذا التغيير . .

والذى حدث أن أول من لبى نداء الدعوة الجديدة التى تحمل

فى جوهرها التغيير ، هم الأرقاء والعبيد ، ومن لم يلب منهم ، فإنما بدافع من بطش سادتهم ، وكيف ننسى أن أبا بكر وحده قد أعتق عددا من الأرقاء لإنقاذهم من بطش ساداتهم بعد أن أعلنوا إستجابتهم لدعوة الإسلام . .

إن المرحوم الأستاذ هيكل فى كتابه « حياة محمد » يرى أن الحفاظ على القديم هو الأساس الأول لمقاومة الدعوة الإسلامية ، باعتبار هذا القديم تراثاً للآباء والأجداد . .

بعد أن نقضت قريش عهد الحديبية ، أحست بأن محمداً يستعد لغزو مكة ، فندبت أبا سفيان ليسافر إلى المدينة ليحاول التهدئة والاعتذار ، لكنه لم يلق من محمد — صلوات الله وسلامه عليه — ولا من كبار أصحابه — رضى الله عنهم — ما يبعث على الاطمئنان ، وقرر أن يستجيب لرأى على — كرم الله وجهه — ما أجد لك شيئاً أمثل من أن تقوم فتجير بين الناس ، فإنك سيد كنانة » .

وعندما عاد أبو سفيان وأخبر زوجه هند بنت عتبة بن ربيعة بما حدث ، صاحت فى وجهه ، بعد أن ضربته برجلها فى صدره : قبحت من رسول قوم . . فأصبح فحلق رأسه عند أساف ونائلة — وهما صنمان من أصنام المشركين بمكة — وذبح لهما ، ومسح بالدم رءوسهما وقال :

« لا أفارق عبادتكما ، حتى أموت على مامات عليه أبى » . .

سقت هذه القصة بإيجاز لنصل إلى حقيقة مقررة ، هى أن التشبث بالقديم ، ميراث الآباء والأجداد ، هذا الميراث الذى كان الولاء المطلق ، والقداسة العالية — هو الدافع الأساسى إلى تصدى كفار قريش للدعوة الجديدة ، بعد أن أدركوا يقينا ، أنها ستحدث إنقلاباً فى التفكير يؤدى إلى أخطر إنقلاب فى عقيدتهم ومجتمعهم .

لذلك كان تصديهم عنيفاً ، ومقاومتهم للدعوة الجديدة أكثر عنفاً ، وكانت مهمة الدعوة الجديدة أكثر من شاقة ، وأكبر من مضنية . .



المواجهة الأولى

قد لا يخطر على بال أحد، أن المواجهة الأولى بين الدعوة المحمدية والوثنية، كانت تمثل المعركة الأساسية التى انبنى عليها فيما بعد كل المعارك التى خاضتها الدعوة، وستظل هذه المعركة الأساسية نموذجا لأية معركة فى مسار البشرية، يمثل أحد طرفيها الحق، ويمثل الباطل الطرف الآخر.

كانت المواجهة الأولى معركة عقائدية بين الحق والباطل، أتباع الباطل يملكون قوة مادية قوامها الطاقة البشرية والسلاح والجاه. ويملك أتباع الحق قوة معنوية. قوامها: العقيدة الراسخة، والإيمان العميق، والطاقة الكبرى من الاحتمال، فلا يملكون أية قوة مادية ولا يملكون طاقة بشرية لأنهم أنفسهم معدودون على الأصابع، ولا يملكون سلاحاً. لأنهم فقراء معدمون، ولا يملكون جاها. لأن من كان منهم ينتمى إلى جاه تخلى جاهه عنه، بعد أن تخلى هو عن جاهه، واستبدل الذى هو خير بالذى هو أدنى.

وقد يقول قائل:

لمـاذا تعتبر الفترة المـكية معركة ، ولم يحدث خلالها أية مواجهة مسلحة بين الطرفين ؟

ونحن نجيب هذا القائل :

ليس شرطاً أن تطلق لفظة « معركة » فقط على الصدام المسلح بين الطرفين . ففي أساس البلاغة » للعلامة الزمخشرى . عاركه ! أى زاحمه .

ونحن نقرأ فى الصحف : معركة أدبية بين أنصار الشعر التقليدى القديم . وأنصار الشعر الحر الحديث وليس ميدان هذه المعركة إلا صفحات الصحف . والأقلام هى أسلحة الطرفين .

ونقرأ فى الصحف أيضاً ؛ معركة فى البرلمان بين أعضاء الحزب الحاكم ، وأعضاء الحزب المعارض ؛ وليس ميدان هـذه المعركة إلا ساحة البرلمان ؛ والألسنة وحدها هى أسلحة الطرفين !

إذن فكون المواجهة التى نحن بصددها لم تـكن مواجهة مسلحة بين الطرفين ، لا يحول دون أن نطلق عليها لفظة « معركة » وكان من غير المعقول أن تـكون هذه المواجهة مسلحة ؛ لأن المواجهة المسلحة تحتاج إلى تـكافؤ ـ ولو نسبياً ـ ولم يكن هذا التـكافؤ النسبي متوافراً بالنسبة لأحد الطرفين ؛ الطرف الذى يمثله أتباع الحق ومع ذلك فقد كانت معركة بين طرفين قوى مسلح وضعيف أعزل !

فالضعيف الأعزل يعتنق عقيدة جديدة ؛ آمن بها قلبه قبل أن يؤمن بها لسانه ؛ واطمأنت بها نفسه قبل أن يطمئن بها عقله ؛ والقوى المسلح ! يقاوم هذه العقيدة الجديدة ! لأنها تسعفه عقيدته الموروثة ؛ وتتهكم على تقاليده القابعة بين أحضان الجاهلية الجهلاء !

كانت الفئة المؤمنة المستضعفة تملك إلى جانب العقيدة والإيمان شيئاً آخر غاظ الفئة الباغية وهز عقولها ! غاظها أن تملك الفئة المؤمنة والقلة المستضعفة منطقا سليما قويا صاغه القرآن وكلمات الرائد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عجزوا هم حياله ؛ ولم يكونوا يملكون أدنى قدر منه ؛ وقد حملهم عنادهم وإصرارهم على أن يرفضوا هذا المنطق القوى السليم ؛ وكان عجزهم ورفضهم فى نفس الوقت دافعاً أساسياً إلى أن يوقعوا على الفئة المؤمنة المستضعفة ألوانا من الإرهاب الجسدى والنفسى معاً ؛ كتعويض عن مركب النقص الذى استشعروه فى نفوسهم :

وكلما أمعن أتباع الحق فى الصبر والاحتمال والثبات ، أمعن أتباع الباطل فى إرهابهم والبطش بهم ، وكلما ضاعف أتباع الباطل إيقاع الأذى عليهم ، أمعنوا فى استعذاب الأذى . والثبات على الحق ، والثقة المطلقة فى الله عز وجل . .

والمثير في هذه المعركة الأساسية غير المتكافئة ، هو أن الفئة المؤمنة العزلاء ، كانت — مظهراً — تتسلح في نضالها مع الباطل بالسلبية ، وهذا لم يكن ينفي أنها إيجابية معنوياً مع إيمانها وعقيدتها .

أما الفئة المشركة القوية ، فقد كانت تتسلح في نضالها مع الحق . بالإيجابية مظهراً ومعنى ، تتسلط على أتباعه بكل ما تملك من الوسائل المادية ، الحديد والنار والسياط . . وما إلى ذلك ، كما تتسلط عليهم أيضاً بالوسائل المعنوية : العناد والعنت والإصرار . . تواصل البطش بوسائلها المادية ، وبأساليب الإرهاب النفسي معاً ! ولا تملك الفئة المؤمنة إلا أن تصبر وتصابر وتحتسب .

ومع ذلك ، فقد كان النصر في النهاية حليفاً للسلبية في هذه المعركة خلافاً لما جرت عليه سنن الحياة ، لأنها لم تكن سلبية من النوع الذي تعارف الناس عليه ، وإنما من لون آخر ، كانت تحمل معنى الإيجابية في صمودها .

وتمثل في هذه المعركة أولى مراحل النصر للفئة المؤمنة ، في أن الفئة الباغية الكبرى ظلت — دون توقف — ثلاثة عشر عاما تبطش بها وتتفنن في البطش ، تنال من أجسادها وأموالها وحرياتها لكنها فشلت فشلا ذريعا في أن تنال أدنى شيء من إيمانها وقلوبها ، بل فشلت في أن تثنيها لحظة عن صمودها ، أو تهز ذرة من عزيمتها . .

إن عددا ضئيلا من أتباع الحق المعذبين فى الأرض ، قد أصابه نوع من الضعف ، عجزت طاقة احتماله عن الصمود إزاء ألوان الأذى التى كانت تصب عليه ، دون هوادة أو رحمة ، لم يكن طغاة قريش يباشرون ألوان التعذيب فى الفئة المستضعفة، بدافع من شهوة التعذيب وإنما بدافع من غيظ يتأجج فى قلوبهم ، ويعتمل فى صدورهم ، وهذا مما مزج التعذيب بالقسوة ، وربما دون أن يحسوا ، فأيديهم الممتدة بالسياط أو غيرها كانت مضطرة إلى أن تشبع شهوة الغيظ ، لا أن تشبع شهوة الغرور . .

لا مكان للغرور هنا ، لأن أكثر من كانوا يقعون تحت طائلة العقاب ، هم من الأرقاء أو الذين لا جاه لهم، وهذا ما يجعل الغيظ يحتل مكان الغرور ، إن فى انحياز الرقيق إلى الدعوة الجديدة تحديا سافرا للسادة ، الذين لم يسعهم إزاء هذا التحدى السافر إلا أن يردوا عليه بما يشفى غيظهم، حتى ولو تجاوزوا حدودا ، يعتبر تجاوزها فى نظر العرب سبة تهبط برجولتهم وشهامتهم . .

إن تعذيب الضعفاء من الرجال أمر غير مقبول فى مجال الشهامة والرجولة ، واستسلام الضعفاء لسياط البطش لا يمكن أن يكون دليلا على نصر يجيز للطغاة الأقوياء أن يفخروا به، وتشمخ أنوفهم له ، بل

إن المقاييس السليمة للرجولة والشهامة فى مثل هذه الحالة تفسح مجالا للخجل . .

لقد كان بين القبائل العربية جروبا طاحنة،وكان للقبيله المنتصرة الحق فى أن تفخر وتشمخ بأنوفها،لأنها انتصرت على قبيلة هى كفء لها ، وقد سجل الشعر العربى الكثير من ألوان الفخر المقبول . ولكن ما كان للشعر العربى أو تاريخ الحروب القبلية أن يسجل بيتا واحدا من الفخر لقبيلة انتصرت على قبيلة غير متكافئة معها ، بل كان بينهما فرق شاسع . .

أما حين يبغى رجل من سادات القوم على إمرأة عزلاء ، بل ما هو أقل من ذلك ، حين يقبل على نفسه رجل من سادات القوم أن يتحدى إمرأة ضعيفة عزلاء وتتحداه ، فلا يكفى أن يقال : إن هذا الرجل قد تجاوز حدودا ، يعتبر تجاوزها مما يهبط برجولته وشهامته ومروءته . .

إذن ماذا يقال : إذا استبد الغيظ بهذا الرجل — وقد استشعر الهزيمه أمام إمرأة عزلاء إلا من إيمانها ، فلم يسعه — بعد أن ألهب بسياطه جسدها — إلا أن يغرس حربته فى موضع العفة منها ، ولا يستردها إلا بعد أن يطمئن إلى أنها قد لفظت آخر أنفاسها .

ماذا يقال إذن فى مثل هذا الموقف ؟ من الأفضل أن لا يقال أى شىء ، لأن أية كلمات لن تفى بالفوضى ، وما دامت الكلمات تعجز عن الأداء المطلوب ، فأفضل منها الصمت . .

والعدد الضئيل من الفئة المؤمنة الذى استعد احتماله كل طاقته ، ففاه بكلمات — وهو تحت سياط التعذيب — أرضى بها غرور الطغاة لا غيظهم ، كيف لا يلتمس له العذر ؟

قال سعيد بن جبير ، قلت لابن عباس :

« أ كان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم — من العذاب ما يعذرون به فى ترك دينهم ؟

قال ابن عباس : نعم ، والله ..

« إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه ، حتى ما يقدر أن يستوى جالسا من شدة الضر الذى نزل به ، حتى يعطيهم ماسألوه من الفتنة . . حتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟

فيقول : نعم ، حتى إن الجُعل « دويبة » ليمر بهم ، فيقولون له أهذا الجعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، افتداء منهم مما يبلغون من جهده . . ! !

هذه صورة من عشرات الصور فى مجال التعذيب الذى أتقن الطغاة كل فنونه ، ومع ذلك فالعدد الضئيل هو الذى استنفد احتماله كل طاقاته إزاء هذا التعذيب الوحشى ، والكلمات التى فاه بها لإرضاء غرور السادة الطغاة لم تعبر عن هزيمة روحه ، بل هزيمة جسده ، ولا عن هزيمة قلبه ، بل هزيمة لسانه ، ولا عن هزيمة جوهره ، بل هزيمة مظهره . .

أما الكثرة الساحقة من الفئة المؤمنة ، فقد انتصرت أرواحها وأجسادها معا ، وقلوبها وألسنتها معا ، وإيمانها ويقينها معا ، وجوهرها ومظهرها معا . . فى المعركة الكبرى بين الحق والباطل .

وبقيت هذه المعركة العقائدية بعد ذلك نموذجا رفيعا للصراع بين الحق والباطل ، وسيظل النصر — إلى أن تقوم الساعة — حليف الحق ، مادام للحق مقوماته الأساسية :

إيمان خالص . . وعقيدة راسخة .. وثبات رصين . . ثم أتباع يملكون ثقة غالية فى الله ، ويتسابقون إلى البذل والتضحية بكل شىء من أجل العقيدة . .

العرض المسالم

هل كانت دعوة الاسلام تتطلب من العرب الذين هم أول من واجهوا الدعوة الجديدة .. هل كانت تتطلب منهم أمورا يستحيل عليهم تحقيقها ؟

لو كانت كذلك ، لكان معنى هذا أنها تحكم على نفسها بالفشل فى لحظاتها الأولى ، لأن العرب بشر ، والبشر قدرات محدودة ، وطاقات تقف عند حدود لا تتجاوزها ..

ولا يمكن أن تكون دعوة الإسلام كذلك ، لأنها دعوة الله سبحانه ، والله لا يريد بعباده العسر ، بل يريد بهم اليسر ، وليست فكرة إنسان — ربما أخضع منهجها لمزاجه ، وأسلم خطتها لهواه ، ولا يمكن أن نجرد الإنسان من المزاج ، أو نعصمه من الهوى ، بل ربما كان فى عقله شىء من القصور ، أو فى تفكيره لون من العجز ولا يمكن أن يكون العقل مستحقا للكمال المطلق ، كما لا يمكن أن يكون التفكير جديرا بالسلامة المطلقة ..

هناك أمثله من التاريخ القديم والتاريخ الحديث ..

من التاريخ القديم فرعون : وفرعون كان يزعم أنه صاحب

رسالة ، فى قومه ، رسالة من صنع عقله كإنسان ، ومن صياغة تفكيره كبشر ، وإن زعم — وأصر على زعمه — أنه إله ، فهذه الألوهية قد اختارها لنفسه ، واستخف بها قومه ، لكنه عجز عن أن يفرضها على التاريخ ، ولا حتى على العقول التى لم يكن أصحابها تحت سيطرته ، ولا فى متناول سلطانه ، ولا فى ظل سلطته .

والذى يستقرئ التاريخ يدرك أن رسالة فرعون .. أى فرعون .. لم تكن إلا مزيجا من مزاجه وهواه ، ويدرك بعد ذلك كم كلفت رسالته هذه قومه من العنت والإرهاق ..

ومن التاريخ الحديث هتلر .. وهتلر كان هو أيضا يزعم أنه صاحب رسالة فى أمته ، ولسنا فى حاجة إلى استقراء التاريخ لندرك كم جنى هتلر على قومه ، بل على البشرية من العنت والإرهاق .

ومع أن هتلر كان متواضعا للغاية حين توهم نفسه نبيا هاديا للبشرية ، ورسول رحمة لها ، ولم يتوهم نفسه إلها كفرعون ، إلا أنه قد استعار من فرعون كل صفات التأله المزعوم ، ويبدو بعد ذلك واضحا أن كلا من فرعون قديما وهتلر حديثا قد اشترك فى نزعة واحدة أوهمته بأنه فوق مستوى البشر فضلا عن أنه ليس بشرا على الإطلاق .

والحمد لله، فإن محمدا — صلوات الله وسلامه عليه — قد حرص حرصا بالغا على أن يقر فى الأذهان جميعها — أتباعه على السواء — أنه بشر كسائر البشر، وأنه مبلغ وليس مبدع، وأنه رسول بشر.. يحمل إلى قومه رسالة هداية ورحمة.. وليس مدعيا لنفسه أنه فوق مستوى البشر، جاء ليفرض جبروتا على العرب وغير العرب..

ولنعد إلى سؤالنا:

أكانت دعوة الإسلام تتطلب من العرب أمورا يستحيل عليهم تحقيقها؟

ولنعرض أولا مطالب دعوة الإسلام.

● أن يحل الرشد مكان الغى.. أو التوحيد مكان الشرك.

● وأن يحل الإيمان مكان الكفر.. وفكرة البعث مكان الجمود.

● وأن يحل العقل مكان الجهل... والأخلاق مكان التقاليد.

هذه هى المطالب الثلاثة للدعوة الإسلامية، فأى مطلب من هذه المطالب يشق على أى إنسان تحقيقه؟

إن محمدا — صلوات الله وسلامه عليه — لم يكن بدعا من الرسل ، ولم تكن دعوته بدعا من الدعوات ، ولا شك فى أن العرب كانوا يعلمون ذلك ولا ينكرونه ، صحيح أنهم كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، لكنهم لم يكونوا قط فى معزل عن الدنيا ، ولم تكن بلادهم مغلقة عليهم وحدهم ، حتى يلتمس لهم بعض من العذر إذاهم تراخوا فى التجاوب مع الدعوة الجديدة .

بعضهم أصحاب قوافل تجارية جاب الآفاق جنوبا وشمالا ، وشرقا وغربا ، اختلطوا بالروم والفرس ، واليمن والأحباش ، والترحال والأسفار والاختلاط . كل ذلك يمنح الإنسان خبرة وتجارب فى كل مناحى الحياة ، السياسية والاقتصادية والتاريخية .. بل يمنحه زادا من الثقافة والاطلاع . .

وجزيرة العرب كانت مفتوحة جبهاتها لكل شارد ووارد ، واستقر فوق أرضها ، وعاش بين أرجائها جاليات من اليهود والنصارى تباشر فى حرية نشاطها الدينى ، عبادة وفكرا وسلوكا . . .

وإزاء هذا ، كان من المنطقى عندما تظهر الدعوة الإسلامية — أن لا تكون مفاجأة للعرب إلا من حيث التوقيت لا من حيث

الحدوث . وكان من المنطقى أيضا أن تدعوهم الدعوة الجديدة إلى شىء من التأمل — على الأقل — فضلا عن التفكير . .

لكن الذى حدث أن سادة قريش والعرب من وراءهم — قد تصدوا للدعوة الجديدة وأمروا بالصدود عنها ، ثم دعوا إلى مقاومتها ، واضطهاد كل من يفكر فى الاستجابة لها . . هكذا دون انتظار . ودون تأمل ودون تفكير ، وفى كل هذه الظروف لم تتوقف ألسنتهم عن السخرية بالفئة المؤمنة ودعوتها ، ولا عن تسفيه ماجاءت به الدعوة من هداية . .

لاريب فى أن هذه المطالب الثلاثة من شأنها أن تحدث انقلابا فى التفكير يؤدى إلى انقلاب سريع فى أوضاع استقرت فى حياة العرب ، واستقرت عليها حياتهم .

لكن الذى لا يمكن القطع به ، هو أن يكون كل الناس قد رضى عن هذه الأوضاع ، أو قد استساغها عقله ، أو اطمأن بها قلبه ، أو سكنت إليها نفسه ، أما سكوته عنها ، وعدم تبرمه بها أو ثورته عليها ، فراجع إلى خوفه من سدنة هذه الأوضاع السائدة ، أولئك الذين ارتبطت مصالحهم بها . وأسندوا ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم إليها ، بل أحلوها مكانا عليا إلى جانب الشرف والمروءة ،

والجاه والعرض . . وإما راجع إلى إيثاره المسالمة حتى ولو لم يحس بطش السدنة من السادة . .

على أن التاريخ يقص علينا قصة أربعة نفروا من الوثنية ، وهجروا مكة وتفرقوا فى البلاد كل يحاول أن يبحث عن الحقيقة ، ولا يهمنا ما وصلوا إليه من نتائج ، بل كل ما يهمنا هو أن النفور من هذه الأوضاع — وفى مقدمتها الوثنية — كان قائما ، وليس شرطا أنه كان قائما فى هؤلاء الأربعة ليس إلا . .

من يدرى ؟ أليس من الجائز أن يكون عدد من الناس ، قد أعلن النفور من هذه الأوضاع فى صمت ، بينه وبين نفسه ، وهجر مكة دون أن يحس به أحد ، ودون أن يعنى التاريخ به ، لأنه لم يكن من أولئك الذين يعنى التاريخ بهم . .

أما ما هو أكثر من الجائز ، فمن الممكن أن يكون هناك عدد كبير ، أعلن فى صمت أيضا ، نفوره من هذه الأوضاع ، ولكنه آثر السلامة ، ورضخ للأمر الواقع . . ومن هؤلاء الذين استجابوا للدعوة الجديدة إبان ظهورها دون خوف أو تردد . .

يقول الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » صلوات الله عليه:

« ذكروا أن قريشا اجتمعت يوما بنخلة تحيي عيد العزى ،

فخلص منهم أربعة نجيا، هم. زيد بن عمرو .. وعثمان بن الحويرث، وعبيد الله بن جحش، ثم ورقة بن نوفل، فقال بعضهم لبعض:

« تعلموا، والله ما قومكم على شيء، وإنهم لفي ضلال. »

فما حجر نطيف به .. لا يسمع .. ولا يبصر .. ولا يضر .. ولا ينفع .. ومن فوقه يجرى دم النحور ..؟

يا قوم، التمسوا لكم دينا غير هذا الدين الذى أنتم عليه.

أما ورقة فدخل النصرانية .. وقيل: إنه نقل إلى العربية بعض ما فى الأناجيل ..

وأما عبيد الله بن جحش: فظل فيما هو فيه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة؛ وهناك دخل فى النصرانية وأقام عليها، وأقامت امرأته أم حبيبة بنت أبى سفيان على الإسلام حتى صارت من أزواج النبى وأمهات المؤمنين.

وأما زيد بن عمرو: ففر من زوجه وعمه الخطاب، وطوف فى الشام وفى العراق، ثم عاد ولم يدخل

فى يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين
قومه ، واعتزل الأوثان ، وكان يقول
وهو مستند إلى الكعبة : « اللهم ،
لو أنى أعلم أىّ الوجوه أحب إليك
لعبدتك به ولكنى لا أعلمه . . »

وأما عثمان بن الحويرث : وكان من ذوى قرابة خديجة ، فذهب
إلى بيزنطة وتنصر ، وحسنت مكانته
عند قيصر ملك الروم ، ويقال : إنه أراد
أن يخضع مكة لحماية الروم ، وأن يكون
عامل قيصر عليها ، فطرده المكيون ،
فاحتمى بالغساسنة فى الشام ، وأراد أن
يقطع الطريق على تجارة مكة ، فوصلت
إلى الغساسنة هدايا المكيين ، فمات
ابن الحويرث عندهم مسموما . . »

هذه هى القصة ، وقد أشارت إليها كتب السيرة ، ولا تحتاج
إلى تعليق ، غير أن المرحوم الاستاذ هيكل ، لم يشأ أن يشير إلى

ما وصل إليه ورقة بن نوفل ، هل أسلم أم كان فى موقف شبيه بموقف أبى طالب ؟ .

إن المقريزى مثلا ، قد نص على إسلام ورقة بن نوفل صراحة، بل جعله خامس خمسة سبقوا إلى الإسلام ، قال بعد أن ذكر أبا بكر وعليا وخديجة وزيد بن حارثة :

« .. ثم أسلم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ؛ وصدق بما وجد من الوحى ، وتمنى أن لو كان جذعا « شابا » وذلك أول ما نزل الوحى .»

وابن كثير فى « السيرة النبوية » يميل إلى هذا الرأى ، يرى أن ما صدر من ورقة بن نوفل حين أبلغته خديجة خبر نبوة محمد — صلوات الله عليه — هو تصديق بما وجد ، وإيمان بما حصل من الوحى ، ونية صالحة للمستقبل » .

ثم عرض ابن كثير بعض الأحاديث التى تتصل بقصة إيمان ورقة ، منها :

الحديث الذى رواه الحافظ أبو يعلى :

« سئل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن ورقة بن نوفل فقال :

قد رأيته ، فرأيت عليه ثياب بياض ، أبصرته فى بطنان الجنة عليه السندس . . والبطنان من كل شىء وسطه .

والحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار عن عائشة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

لا تسبوا ورقة ، فإنى رأيت له جنة أو جنتين . .

والحق أن ما جاء على لسان ورقة كاف لأن يقوم دليلا على أنه أسلم وحسن إسلامه ، فقد قال للرسول — صلوات الله عليه :

« أبشر ثم أبشر ، أنا أشهد أنك الذى بشر بك ابن مريم ، وأنك على ناموس موسى ، وإنك نبى مرسل ، وإنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، ولئن أدركنى ذلك لأجاهدن معك » .

ليس هذا التعقيب إلا لفتة يسيرة على هامش الرواية التى ساقها المرحوم الدكتور هيكل ، ونحن لم نسق قصة الأربعة الذين نفروا من دين قريش ، إلا لنؤكد أن الدعوة الإسلامية ، حين تبدى امتعاضها من الوثنية فى بدايتها ، لم تكن بدعا من الدعوات . .

ولم يكن هؤلاء النفر الأربعة هم وحدهم الذين نفروا مما عليه العرب دينا ومجتمعا ، بل كان غيرهم آخرون رفضوا الخضوع لأصنام

من حجارة لا تنفع ولا تضر ، ولا تنطق ولا تسمع . ورفضوا أيضا التعامل مع تقاليد لا يقرها عقل ، ولا يرتضيها منطق ، ولا تقبلها مروءة ولا شهامة .

إن أى مثقف له إلمام بتاريخ العرب فى الجاهلية ، لا يمكن أن يجهل عاقلا مثل قس بن ساعدة الإيادى ، ذلك الذى لم يكن يكتفى باعتزال ما عليه العرب ، بل كان يتردد على سوق عكاظ ، يعرض حكمته ، ويطرق أسماع العرب بها ، محاولا إيقاظهم من غفلتهم ، وعندما قدم على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وفد إياد ، قال :

« يا معشر وفد إياد ، ما فعل قس بن ساعدة الإيادى ؟

وعندما أجابوه : هلك يا رسول الله . . » قال — صلوات الله وسلامه عليه :

« لقد شهدته يوما بسوق عكاظ على جمل أحمر ، يتكلم بكلام معجب مونق ، لا أجدنى أحفظه . »

إن أعرابيا تطوع بأن يتلو كلام قس على مسامع النبى وأصحابه ، وأصغى رسول الله :

« معشر الناس اجتمعوا . . .

إن فى السماء لخبرا . . وإن فى الأرض لعبرا . . .

أقسم قس بن ساعدة بالله قسما لا ريب فيه : إن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا . . »

* * *

نعود ، فنؤكد أن مطالب الدعوة الاسلامية الأساسية الثلاثة التى سبقت :

الإيمان بالله ، والتوحيد ، والإيمان بالبعث وبالحساب معا ، ثم التخلى عن العادات الذميمة والالتزام بالأخلاق القرآنية فى السلوك ، هذه المطالب لم تكن ليشق على إنسان تحقيقها تحقيقا ماديا — على الأقل — قد يكون هناك لون من المشقة النفسية ، ولكن لو أن القوم استعملوا عقولهم قليلا ، لما كان هناك أى لون من ألوان المشقة النفسية ، لو أنهم استعملوا عقولهم قليلا ، لاعتبروا أن ما مضى من حياتهم فى الضلالة ، يجب أن يكون مصدر مشقتهم النفسية ، وليس انتقالهم من الضلالة إلى الهداية ، ومن الغى إلى الرشد . .

لم يكن أهل مكة جميعاً ، قد تصدوا للدعوة الإسلامية وقاوموها ،

بل السادة وحدهم ، وأرباب المصلحة فى مقاومتها ، أقصد أن السادة وحدهم والذين هم أصحاب المصلحة ، هم الذين قاوموا الدعوة الجديدة بإخلاص وتفان وبذل ، وأما بقية أهل مكة ، فقد كانت توابع للسادة ومسألة التبعية هذه من الأوضاع الفاسدة التى حرص الإسلام فى بداية أمره على إنهائها أو التخفيف منها على الأقل . .

ونظرة واحدة إلى الآيات التى كانت أول ما نزل من القرآن الكريم :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » . .

إننا نقرأ هذه الآيات التى كانت أول ما نزل من القرآن ، فنمر بها مر الكرام ، لا يكاد يعلق بأذهاننا من مجملها إلا أنها كانت آيات نزلت على الرسول — صلوات الله عليه — كما لا يكاد يعلق بأذهاننا أيضاً من مدلولها وتفسيرها إلا ذلك الحوار الذى بين النبى والملاك ، هذا الحوار الذى عنيت به التفاسير القرآنية جميعها ، والذى عنى به كذلك محبو الموالد والأفراح والمناسبات الدينية .

مع أن هذه الآيات الكريمة أرست القواعد الأساسية للدعوة الإسلامية .

* القاعدة الأولى : الاتجاه إلى الله للإيمان به إيماناً شاملا . يشمل وحدانيته ، لأن الآية قالت : « باسم ربك » ولم تقل : « باسم أربابك » وقبل ذلك يشمل وجوده ، لأنه لو لم يكن موجوداً لما كان هناك معنى لطلب الاتجاه إليه ، ويشمل بعد ذلك الإيمان بصفة القدرة لله على كل شيء ، وقدرة الله على خلق الإنسان هذا الكائن الحي من علق ، والعلق هو الدم الغليظ ، والمفرد « علقة » أما قدرة الله على خلق الإنسان الكائن الحي من قطعة دم مجمدة ، فتهون كل قدرة أخرى بعدها ، وما دام الإنسان هو أمل الوجود وغايته ليقر بربوبيته وقدرته ، فالله سبحانه له القدرة على أن يخلق له كل شيء متصل بالوجود . .

• القاعدة الثانية : إذا كانت القاعدة الأولى قد أقرت الإيمان ، فإن هذه القاعدة الثانية قد أقرت المساواة بين الناس الذين هم خلق الله ، أقرت المساواة من حيث الأصل ، المادة التي كون منها الإنسان ، فلا يملك إنسان كائناً من كان أن يدعي امتيازاً على سواه ، أما اختلاف الألسنة والألوان والخطوط ، التي هي من صنع الله وحده ، فلا تنافي هذه المساواة التي أقرها الله سبحانه ، لأن الاختلاف لحكمة اقتضتها مشيئة الله ، فالحياة التي تسير على وتيرة واحدة تبعث على الملل . .

أما الاختلاف القائم أساسه على صبغات يكتسبها الإنسان ، فهى لا تنافى أيضاً قاعدة المساواة التى أقرها الله باعتبار الأصل ، والمهم هو نظرة الله للإنسان ، هذه النظرة العادلة ، حيث خلق الإنسان — أى إنسان — من مادة واحدة ثابتة ، أما مايكتسبه الإنسان نفسه من الصفات ، فهى التى توجد ألواناً من الفروق ، التى هى قابلة دائماً للتغير والتبدل ، والامتداد والانكماش . .

• القاعدة الثالثة : التوجيه نحو العلم والمعرفة ، باعتبارها ضرورة من ضرورات الحياة ، تبعث على إحترام العقل وإثبات وجوده والعقل هو المنحة الكبرى التى منحها الله للإنسان ، ومن أجله كرمه وأراده خليفة — سبحانه — فى أرضه . .

والخرافات المضحكة ، والتقاليد المبكية التى نمت وترعرعت فى حياة العرب ، إنما مصدرها الجهل ، بل الاستغراق فى الجهل ، والعلم والمعرفة هما الوسيلتان إلى استئصال كل ما يمت بصلة إلى الخرافات أو التقاليد البالية . :

هذه هى القواعد الثلاث الأساسية التى تضمنتها أول آيات نزلت من كتاب الله ، وأرستها لتقيم عليها دعائم الإيمان والمساواة

والمعرفة ، وصارت من المقررات الإسلامية ، التى لا ينبغى للإسلام أن يتهاون فيها أو فى إحداها ، كما لا ينبغى للمسلمين أن يفرطوا فيها أو يتطاولوا عليها .

لقد تحولت هذه المبادىء إلى مجالات للنضال ، يمثل الإسلام إحدى جبهتى النضال ، ويمثل الجبهة الأخرى . الإلحاد والطغيان والجهل معا ، وبينما يريد الإسلام للبشرية أن يسودها الإيمان والسلام والمعرفة لتحيا حياة طيبة ، تريد تلك الأقانيم الثلاثة : الإلحاد والطغيان والجهل » تريد للبشرية أن يسودها الانحلال الدينى والاجتماعى والأخلاق ، باسم التقدمية . . التقدمية التى لا مفهوم لها فى العصر الحديث ، إلا أن يطرح الدين جانبا ، وتطرح القيم جانبا وتطرح الأخلاق جانبا .

ولنقف قليلا أمام إحدى هذه القضايا الثلاث . . قضية استعباد الإنسان لأخيه الانسان . .

إن الآيات الأولى نزولا من القرآن قد أقرت مبدأ المساواة لتحرير الإنسان ، وما دام الناس جميعا من أصل واحد ، سواء أكان هو الأصل البعيد . . . أقصد « التراب » أو « الطين » أم كان

هو الأصل القريب ، أقصد « النطفة » أو « العلقة » فعلى أى أساس يقوم هذا الاستعلاء ؟

وإذا كان الاستعلاء مسكوتا عنه ، منذ عشرات القرون ، أيام دولة الرومان القديمة ، حيث كان الشعب طبقات ، سادة وعبيدا ، وطبقة ثالثة بين السادة والعبيد ، أو فى العهد الذهبي للإغريق أيضا حتى أيام أعظم الفلاسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو ، لأن التاريخ كان لا يزال فى مرحلة الطفولة . .

فهل يجوز السكوت عن هذا الاستعلاء — والقرن العشرون يزحف نحو نهايته ؟

إن التفرقة العنصرية الضاربة أطنابها اليوم فى أمريكا التى أطلقوا عليها « الدنيا الجديدة » وفى جنوبى أفريقيا حيث تسود القلة من البيض ، الكثرة الساحقة من السود ، إن فى هذه التفرقة أيا كان شكلها وأيا كان جوهرها لدليلا على أن البشرية لا تزال تحبو فى مراحل الطفولة المبكرة . .

ولقد واجهت الدعوة الإسلامية فى مطلعها هذه المشكلة ، مشكلة استبعاد الإنسان لأخيه الإنسان ، وقد شهدت مكة — كما شهدت

روما وأثينا — قبلها بقرون لونا من ألوان التفرقة المهنية . بين طبقة سادة تحكم وتتحكم — برغم قلتها — فى كثرة ساحقة من العبيد والرقيق . .

إذن لا بد أن تصطدم الدعوة الإسلامية بمشكلة شائكة عسيرة ، لكن حلها سهل ميسر إذا أقر الناس — أو بمعنى أدق — أقر السادة مبدأ المساواة من حيث الأصل ، والسادة لا يمكن أن يقروا هذا المبدأ الخطير ، الذى سوف يهدم سلطانهم ، ويأتى على مارسخ فى وجدانهم من استعلاء وغرور ، فيبعث غرورهم واستعلائهم. أن لهم حقا يجرى مجرى الأعراف فى أن يتحكموا فى مصائر الطبقة الدنيا حسبما تقتضيه أهواؤهم ، وتمليه عليهم شهواتهم ، ولم يكن من حق أحد كائنا من كان — فضلا عن الطبقة الدنيا — أن يناقشهم حقيقة هذا الحق المدعى الذى صار عرفا . .

فإذا جاءت الدعوة الإسلامية لتصحيح هذا الخطأ الزائف ، وترد الحق الخالص إلى نصابه ، فأى أسلوب وأى سلوك تتوقعهما الدعوة الإسلامية ، من السادة ، الطبقة العليا ؟

إن طبقة السادة لم تقف مكتوفة الأيدى ، فقد كان من الطبيعى

أن لا تنتظر حتى تهز الدعوة الجديدة سلطانها وتعصف بسيادتها. لذلك بادرت بإعلان الحرب على الدعوة الجديدة بأسلحة.

• سلاح التهكم على مبادىء الدعوة الجديدة لتنفر الناس منها، ولا سيما من كانوا غير خاضعين لسلطان طبقة السادة..

• سلاح التصدى للدعوة حتى تعوق سيرها، ولا يستفحل خطرها.

• سلاح البطش بكل من يستجيب لهذه الدعوة من طبقة العبيد والمستضعفين من مواطنى مكة أو رعاياها..

• سلاح المساومة طمعا فى أن يكف محمد — صلوات الله عليه — عن دعوته، وبذلك يستريحون وتطمئن خواطرهم..

وليست هذه كل الأسلحة، بل إن هناك أسلحة أخرى شهرتها فى وجه الدعوة فيما بعد، أسلحة استمرت منذ بداية الدعوة حتى فتح مكة، أبرزها الحرب النفسية، وسوف نعرض لها ولغيرها فى مكانه من هذه الدراسة.

والمهم هنا أن نؤكد أن قضية المساواة التى أعلنها الاسلام فى لحظاته الأولى، وفى أول آيات نزلت من كتاب الله، كانت القضية الشائكة، ولم يفت السادة أن قضية الإيمان نفسها، وبسر

شعبه ، تؤدى بطبيعتها إلى معنى المساواة ، ولا سيما شعبة التوحيد فلقد كان لكل قبيلة إله تعبده ، وتتفنن كيفما شاءت فى أسلوب عبادته وتقديسه . بل عندما فتح المسلمون مكة ، كان فى كل بيت من بيوتها إله تتفرد به ، وتستقل بعبادته والولاء له ، والتوسل إليه ، والرجاء فى الخير ، والأمل فى دفع الشر . .

فالدعوة إلى إله واحد يوحى فى نظر السادة — لا بالانتقاص من سلطانهم فحسب — بل يهبط باستعلائهم إلى حيث يتساوى الجميع دون تفرقة أو تمييز . . .

وما حدث فى مواجهة الدعوة الإسلامية ، حدث كذلك فى مواجهة الرسالات السماوية كذلك ، فالسادة هم الذين يتصدون ويقاومون ، والطبقه الدنيا هى التى تقبل وتستجيب ، والطبقة المترفة هى التى يزعجها أن تكون هناك مساواة ، والطبقة الدنيا هى التى يقر أعينها أن تكون هناك مساواة ، لكن الرغبة فى المساواة لم تكن دافعاً أساسيا ولا ثانويا لدى هذه الطبقة ، فغايتها الله سبحانه ، غاية مجردة . .

ماذا فعلت الطبقة المستضعفة حيال الدعوة الإسلامية ؟

لقد انقادت — إلا القليل المعدود على الأصابع — انقياداً

أعني خلف السادة والكبراء ، ومع إيمانها بأن الدعوة حق لا يقبل الشك ، وصدق لا يقبل الجدل . إلا أنها تابعت دون أن تعارض ، وسيقت دون أن تقاوم ، ولئن كان فرعون بمفرده استخف قومه فأطاعوه فقد كان في مواجهة الدعوة الإسلامية فراعنة استخفوا أقوامهم فأطاعوهم

والقرآن الكريم يعرض لنا صورة حوار طريف يقع بين المستبدين المستكبرين والمستضعفين المغلوبين على أمرهم ، ما يوضح وجه المشكلة الحقيقي ، وإذا كان الله سبحانه يعرض لنا هذا الحوار الطريف بين الطرفين في يوم الحساب ، ليتضح لنا أن عذر المستضعفين مرفوض أيضا ، فإنما ليوجهنا نحن المسلمين في حياتنا الوجهة الصحيحة حيال هذه القضية الشائكة ، قضية العبودية التي يفرضها المستكبرون ويستعذبها المستضعفون : في سورة إبراهيم الآية : ٢١

« وبرزوا لله جميعا ، فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ، قالوا لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » .

وفي سورة سبأ ، الآيات : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

« . . . ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم

لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ماكانوا يعملون » .

هنا لمحة جديرة بالالتفات إليها ، فقد اعتبر القرآن المستكبرين والمستضعفين ظلمة على السواء — كما فى الآية الأولى .

وفى سورة غافر ، الآيتان . ٤٧ ، ٤٨ .

« وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار .

قال الذين استكبروا إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد » .

وهذه لمحة أخرى ، فقد أشار القرآن إلى أن الفريقين يتحاجون وهم فى النار معاً .

فالضعفاء يحتجون بأنهم إنما كانوا تبعا للأقوياء ، وعلى ذلك فهو أحرى بأن يتحملوا عنهم العذاب ، وكانت حجة الأقوياء : أن الله حكم بين العباد وقد نفذ حكمه وأصبح الفريقان فى النار فلا داعى للجدل والمناقشة ، لأن حكم الله إذ نفذ فلا راد لحكمه . . .

* * *

الإيمان فى مواجهة القوة

من الخطأ أن يفهم أو يظن أن الدعوة الإسلامية ، قد اتسم موقفها بالسلبية تجاه أعدائها فى الفترة المكية ، واتسم معها أيضا موقف الفئة المؤمنة التى استجابت لها .

إن موقف الدعوة الإسلامية منذ إشراق شمسها ، وموقف أتباعها الأوائل بالذات ، كانا موقفين قد اتسما بالإيجابية ، والإيجابية فى أجلى صورها . .

كانت مهمة الدعوة الجديدة فى المرحلة المكية أن تقوم بانقلاب فكرى ، لتغرس العقيدة الصحيحة ، وتحمل العقيدة الجاهلية على أن تصفى أعمالها و نشاطها فى مكة ، بل فى المنطقة العربية بادىء ذى بدء ، أما مهمة أتباعها فقد كانت تتمثل فى اعتبارهم الهيئة التنفيذية لمنهج الدعوة . .

كل هذا يؤكد الموقف الإيجابى الذى كانت الدعوة الإسلامية تقفه ، ومن خلفها أتباعها ، لقد كانت هناك مواجهة بين أتباع الدعوة وأعدائها ، والذى حدث أن الفئة الباقية الكبرى كانت تشهر فى وجه للدعوة أنواعا شتى من الأسلحة ، أما الدعوة . . أما أتباعها ،

فكان لكل منهما سلاحه ، فسلاح الدعوة المنطق السليم ، والحجة الدامغة ، وسلاح أنصارها الإيمان . .

الإيمان فى مواجهة القوة . . أو الروح فى مواجهة المادة .

ولنشر فى إيجاز إلى الأسلحة التى شهرتها الفئة الباغية فى وجه الدعوة الجديدة ، وقد سبقت الإشارة إليها منذ قليل ، فما هى هذه الأسلحة ؟ لقد قلنا : إنها :

* سلاح التهكم على مبادىء الدعوة لإبعاد الناس عنها ، وتنفيرهم منها . .

* سلاح التصدى للدعوة حتى تعوق سيرها ، ولا يستفحل خطرها . .

* سلاح البطش بكل من يستجيب لهذه الدعوة من الطبقة المستضعفة حتى يتهيب غيرهم الدخول فى الدعوة . .

* سلاح المساومة طمعا فى أن يكف محمد — صلوات الله عليه — عن نشر الدعوة والتشبث بها . .

هذه الأسلحة الأربعة وقفت جنبا إلى جنب فى المرحلة المكية ، وكان هناك سلاح خامس ، هو سلاح الحرب النفسية ، الحرب النفسية التى كانت تهيمن على هذه الأسلحة الأربعة .

أولا : سلاح التهكم :

كان سلاح التهكم أول سلاح شهرته قريش فى وجه الدعوة ، وقد لجأت إليه مبكرة ، فقد أدهشتهم المفاجأة ، وألجمهم منطق الدعوة ، فعجزوا عن أن يردوا عليها بالحجة . .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد توهمت قريش أنها بمثل هذا الأسلوب ، تستطيع أن تبعد الناس عن الدعوة الجديدة ، وتنفرهم منها ، أو على الأقل ، تثير لونا من التشويش على مبادىء الدعوة وكلماتها المؤثرة ، وعلى الرغم من أن أسلوب التهكم والسخرية ، إنما ينم عن الضعف والعجز ، الضعف فى الأخلاق ، والعجز عن التشبه بالرجال ، إلا أن قريشا تمادت فى هذا الأسلوب ولم تتخل عنه أبدا . .

يقول ابن إسحق :

« إن قريشا اشتد أمرهم للشقاء الذى أصابهم فى عداوة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن أسلم معه منهم ، فأغروا برسول الله سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ، ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون » . .

وقد سئل ابن العاص عن أكثر ما رأى قريشا أصابوا من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيما كانوا يظهرون من عداوته، فأجاب:

« حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوما فى الحجر ، فذكروا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالوا :

« ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم . .

فبينما هم فى ذلك ، إذ طلع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه — أى طعنوا فيه — ببعض القول ، قال : فعرفت ذلك فى وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك فى وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم مر بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها . . . » .

ويروى ابن كثير عن ابن إسحق :

أن عظماء المستهزئين خمسة نفر ، وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم :

١ ـــ الأسود بن المطلب . . أبو زمعة . . وقد استجاب الله لدعاء رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ عليه : اللهم أعم بصره ، وأثكله ولده ، فقتل له في غزوة بدر على الشرك ثلاثة من أولاده .

٢ ـــ الأسود بن عبد يغوث . . من بني زهرة . .

٣ ـــ العاص بن وائل بن هشام . . من بني سهم . .

٤ ـــ الوليد بن المغيرة . . من بني مخزوم . .

٥ ـــ الحارث بن الطلاطلة « الداهية » . . من بني خزاعة . .

وهؤلاء هم الذين نزل فيهم قول الله تبارك وتعالى :

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . . » .

* * *

ثانياً : سلاح التصدي للدعوة :

لم يقف تصدي قريش للدعوة عند حدود التصدي للرسول ولا لأتباعه من المؤمنين . بل كانت قريش تتصدى لكل وافد على مكة ، لإقناعه بالتي هي أحسن إن كان هذا الوافد سيدا مطاعا في قومه ، وإلا بالعنف إن لم يكن كذلك .

وقصة الطفيل بن عمرو الدوسي جديرة بالإشارة إليها .

فقد قدم مكة ، فاجتمع به أشراف قريش ، وحذروه من رسول الله ، ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه ، وما زالوا به حتى أجمع ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه ، بل حتى حشى أذنيه كرسفا « قطنا » حين غدا إلى المسجد فرقا « خشية » من أن يبلغه شيء من قوله . .

لكنه ما إن دخل المسجد ، حتى وجد نفسه مندفعا ، وأبى الله إلا أن يسمعه بعض قوله ، ثم هتف فى أعماقه :

« واثكل أمى ! والله إنى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح ، فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته . .

وكتب الله له الهداية فأسلم . . ثم مات شهيدا فى موقعة اليمامة ، وجرح ابنه ثم استشهد فى موقعة اليرموك . . هذا وقد تصدت قريش لوفد الأنصار فى بيعة العقبة الثانية ، وما أن علمت بأن هذا الوفد قد بايع رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، حتى تعقبته فى عودته :

أخذوا سعد بن عبادة فأخذوه وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله « الشراك الذى يشد به الرحل » ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه بجمته ، وكان ذا شعر كثير ، ولم ينجه منهم ، ويفلته

من أيديهم إلا بعد أن هتف باسم جبير بن مطعم ، والحارث بن حرب ، وكان يجير تجارتهما ببلاده يثرب . .

وهذا أبو جهل يترصد وفد النصارى الذين قدموا مكة واستمعوا إلى رسول الله — صلوات الله عليه — يتلو شيئا من كتاب الله ، ففاضت أعينهم من الدمع ، وآمنوا وصدقوا ، وما إن قاموا عنه ، حتى اعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش قائلا :

« خيبكم الله من ركب : بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم ، وصدقتموه بما قال : ما نعلم ركبا أحمق منكم . . » .

وأجابهم وفد نجران : « سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه . . لم نأل أنفسنا خيرا »

أما التصدى للرسول — صلوات الله وسلامه عليه — أما التصدى لأتباعه وبخاصة المستضعفون منهم ، فقد بلغ هذا التصدى أحط ألوان الأساليب التى لا تنم عن رجولة ولا مروءة ولا شهامة . .

* * *

ثالثاً : سلاح البطش والإرهاب :

مما يدهش له المتتبع لتاريخ الدعوة الإسلامية فى الفترة المكية — ولا سيما فى سنواتها الأولى — أن الدعوة الجديدة بدأت تعرض

مبادئها فى هدوء ، لكن قريشا لم تكن لتقابل الهدوء إلا بالعنف ، ولا المسالمة إلا بالبطش . .

بل ومما هو أكثر وأبعد من الدهشة أن قريشا لم تراجع نفسها بعد أن أيقنت أن أسلوبها الذى كان أداته البطش والإرهاب ، قد فشل فشلا ذريعا فى إيقاف مسار الدعوة ، وفى إثناء الفئة المعذبة عن عقيدتها ، لكن قريشا تمادت فى غيها .

يقول ابن إسحاق :

« ثم إنهم — أى قريش — عدوا على من أسلم ، واتبع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ، ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء ، ومنهم من يصلب ، ومنهم يعصمه الله منهم » .

كان على رأس القائمة التى تمادت فى بغيها وعدوانها على رسول الله — صلوات الله عليه — وعلى أتباعه :

« أبو جهل ، وأمية بن خلف ، والأخنس بن شريق ، وأبو لهب » .

لـكن الذى يحار له العقل ، أن تساهم امرأة بتصيب كبير فى عمليات البطش والإرهاب ، حتى سجل لها القرآن أحط صفحة يذكرها التاريخ لها ، وكانت تستهدف أكثر ما تستهدف رسول الله — صلوات الله عليه .

إنها أم جميل — حمالة الحطب — هذه التى أفرد لها كتاب الله مع زوجها سورة ، فما إن سمعت قول الحق تبارك وتعالى ، حتى حملت فى يدها فهرا من حجارة — الفهر حجر ملء الكف — واتجهت إلى رسول الله — صلوات الله عليه — وما إن رأت أبا بكر فى المسجد حتى صاحت :

« أين صاحبك ، فقد بلغنى أنه يهجونى ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إنى لشاعرة ، ثم راحت تنشد :

مذمما عصينا وأمره أبينا

ودينه قلينا

أليس فى هذا ما يثير الدهشة ؟ إن صناديد قريش ، كانت أوصالها تهتز لسماع آية من كتاب الله ، لـكن عنادهم كان يدفعهم دائما إلى تـكلف الهدوء والرزانة ، أما هذه المرأة ، فقد تفوقت على الرجال فى عنادها ، وتماديها فى البغى والعدوان ، ينزل القرآن

يهددها ويتوعدها ، فتأبى إلا أن ترد على التهديد والوعيد ردا يؤكد عنادها وطغيانها وجبروتها .

وتمضى الأيام ، ويثبت الله الذين آمنوا ، ويكتب لهم صفحة من أنصع صفحات البطولة ، ويسجل لتاريخ الطغاة صفحة سوداء ، بل من أحلك الصفحات .. صفحات الخسة والجبن والنذالة .. !

* * *

رابعاً : سلاح المساومة :

أرادت قريش أن يكون هذا السلاح ذا حدين :

كانت قريش تطمع فى مساومة محمد عليه السلام ، أن يكف عن هذه الدعوة أو يهدأ — وعلى الأقل أن يكف عن سب آلهتهم ، حتى يستريحوا .. إن قريشا كانت موقنة بأن الأمل فى ذلك كالسراب ، ولكنها تمسكت به ..

كما كانت قريش تتوهم أن فى دخولها مع محمد — صلوات الله وسلامه عليه — فى مساومة ، قد تؤدى هذه المساومة إلى شىء من الحوار ، وقد يكسبها هذا الحوار وتلك المساومة بعض عواطف الذين لا يزالون على الحياد من أهل مكة ، أو على الأقل ، قد يثبط الحوار والمساومة هم الذين يفكرون فى الاتجاه إلى الدعوة الجديدة ..

هذه بعض الأهداف التى لم يتحقق منها شىء ، ولم يكن فى استطاعة قريش — وبخاصة صناديدها — الاعتراف بأن الدافع الأساسى الذى يكمن خلف المساومة والحوار — إنما هو الفشل فى مقاومة الدعوة مع تنوع وسائلها المادية ، أو بأن الوسائل التى اتخذتها لقمع الدعوة لن يكتب لها النجاح . .

ينقل لنا ابن هشام عن ابن إسحاق :

أن رسول الله — صلوات الله عليه — لما بادى قومه بالإسلام، وصدع به ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه ، حتى ذكر آلهتهم وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه ونا كروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته ، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام ، وهم قليل مستخفون ، وحدب على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عمه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه . .

فلما رأت قريش أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لا يعتبهم من شىء — أى لا يرضيهم — أتىكروه عليه ، من فراقهم وعيب آلهتهم . . . مشى رجال من أشراف قريش إلى أبى طالب .

كان على رأس أول وفد انتخبته قريش ليقوم نيابة عنها بدور المساومة :

« عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيان ، وأبو البخترى ابن هشام ، والأسود بن المطلب ، وأبو جهل ، والوليد بن المغيرة » قالوا :

« يا أبا طالب : إن ابن أخيك سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه . .

فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا ، وردهم ردا جميلا ، فانصرفوا عنه .

ما حدث من أول دفعة قريش ، كان فى مظهره أسلوب التهديد الهادىء ، وقد تخيلت قريش أنها قد حققت شيئا من الأمل من رد عمه أبى طالب ، وخاب ما توهموه ، فلم ينته محمد ، لكن ما حدث كان يحمل فى معناه التفكير فى التزلف إلى محمد ، وستتخذ قريش بعد ذلك الخطوة التالية للمساومة الصريحة . . واضطرت إلى هذه الخطوة بعد ذلك ، حتى بعد أن خاب أملها فى أول نشاط لها فى هذا المجال .

كان عتبة بن ربيعة سيدا ، فأشار على قريش أن يقوم وحده إلى رسول الله — وكان فى المسجد وحده — ليكلمه ، ويعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها ، فتعطيه قريش أيها شاء ، ويكف عنهم .

كان ذلك بعيد إسلام حمزة ، ورأت قريش أتباع الرسول — صلوات الله يزيدون ويكثرون ، ووفق على رأى عتبة ، ورأوا أن فى مساومة واحد من سادتهم محمدا ، ربما يسر المهمة ، وكتب لها النجاح ، أوْ شيئا من النجاح ، وما أن جلس عتبة إلى رسول الله — صلوات الله عليه — حتى بدأه بقوله فى هدوء :

يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة « بكسر السين المشددة هى الشرف » فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا ، تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . . »

وكأنما أراد رسول الله — صلوات الله عليه — أن يشجعه على مواصلة الكلام ، فقد كان لرسول الله هيبة تبدو على وجه من يخاطبه ، ولا سيما إذا كان من أعدائه ، قال له :

« قل يا أبا الوليد ، أسمع »

فواصل عتبة بن ربيعة الحديث ، وقد بدا على وجهه مسحة من الاطمئنان :

« يا ابن أخى : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر

مالا ، جمعنا لك من أموالنا .. حتى تكون أكثرنا مالا ..

وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا .. حتى لا نقطع أمرا دونك ..

وإن كنت تريد به مُلكا ملكناك علينا ..

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا « ما يتراءى للناس من الجن » تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا .. حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع « من يتبع من الجن » على الرجل حتى يداوى منه » .

إنها عروض مغرية ولا ريب .. ولكن الذى فات قريشا ، أن مثل هذه العروض، كلها من متاع الدنيا ، ولو أن الدعوة التى جاء بها محمد — رسول الله — كانت دنيوية لحما ودما فقط ، لكان هناك أمل فى اجتذابه — صلوات الله عليه — وأثنائه عن دعوته ، لأن أية دعوة دنيوية إنما لتحقق أغراضا دنيوية ، فإذا جاءت هذه الغايات إلى صاحب الدعوة راغمة ، فمن العقل أن يقبل ، ويذيح نفسه مما يبذل من جهد ومشقة ، وما يتكلفه من تضحيات غاليات ..

وفرغ عتبة بن ربيعة ، ورسول الله — صلوات الله عليه — يستمع منه ، قال :

« أفقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : عتبة : « نعم »

قال الرسول : « فاسمع منى »

قال عتبة : افعل »

وأخذ رسول الله — صلوات الله عليه — يتلو عليه آيات من أول سورة « فصلت » وما أن سمعها عتبة بن ربيعة ، حتى أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما ، يسمع منه . .

وعاد عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به » فلما جلس إليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال :

« ورائى أنى سمعت قولا — والله — ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . .

يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه . . فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه ، نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . . »

وامتعضوا لهذه الكلمات ، وعندما قالوا له : « سحرك — والله — يا أبا الوليد بلسانه » قال :

« هذا رأيي . . . فاصنعوا ما بدا لكم . . »

نفس النظرة المادية تبدو من كلمات عتبة ، ولا شك أنها كلمات لاقت هوى في نفوس القوم ، لكنه العناد والعنت ، وعتبة ابن ربيعة كان لبقا فيما أشار به على سادة قريش ؛ وإنها إشارة ناصح حقا ، فإن قضى العرب على الدعوة الوليدة ، استراحوا وقد كفاهم غيرهم مشقة القضاء على محمد ودعوته ، وإن ظهر محمد على العرب ، وصار ملكا عزيزا ، فسيكون ملكه ملكا لهم ، لأنه منهم ، وهم عصبيته . .

وفشلت كل محاولات المساومة مع محمد — صلوات الله وسلامه عليه — إنما أكسب الدعوة الناشئة نصرا ، فقد رسخ في الأذهان ، أن دعوة لا تقبل المساومة ، وترفض أسخى العروض التي يشتهيها كل طموح ، مهما بلغ طموحه ، مثل هذه الدعوة ، ستعيش ، وسيكتب لها النصر والخلود .

* * *

هذه القوة بأسلحتها ، والتى كان فى مواجهتها الإيمان ، وهذا المبحث يعرض الإيمان فى مواجهة القوة ، أو الروح فى مواجهة المادة ، وقد عرضنا للقوة التى كانت عدة الفئة الباغية ، وسنعرض الآن للإيمان الذى كان فى مواجهة هذه القوة . .

ولقد أحرز الإيمان فى مواجهة القوة نصرا عظيما ، يحسب له حسابه فى أنصع صفحات سجلها التاريخ ، وسيسجلها على مسار الزمن ، ومن الخطأ أن نقيس عظمة النصر مما أحرزه من مكاسب مادية وحسب ، ونحس أن المكاسب المعنوية تفوق — معظم الأحايين — المكاسب المادية بمراحل .

إن النصر فى الفترة المكية العصبية كان حليف الإيمان ، تسنده الروح والحجة القوية ، فى مواجهة قوة مادية ، بلغت من العتو والجبروت والاستعلاء منتهاها . .

وعظمة النصر التى أحرزها الإيمان ، إنما مرجعها — لا إلى قوة الإيمان وحده — بل أيضا إلى المفارقات الشاسعة بين الفئتين المتقابلتين .

فئة على الحق ، وتعلن على الملأ أنها ستظل على هذا الحق مهما كلفها من ثمن . .

تقابلها فئة على الباطل ، وتؤمن فى دخائل أنفسها أنها على الباطل ، لكنها لا تجرؤ على الاعتراف به .

الفئة الأولى قلة معدودة مستضعفة فى الأرض، مغلوبة على أمرها محددة الإقامة والإرادة معا . .

والفئة الأخرى كثرة ساحقة ، قوية متجبرة مستكبرة ، تملك إرادتها فى أن تبطش بمن تشاء ، وتستبد بمن تريد ، لا أحد يستطيع أن يحاسبها ، ولا أحد يقوى على أن يسائلها . .

الفئة الأولى لا تملك حق الشكوى إلا إلى الله سبحانه ، فضلا عن أن تملك القدرة على القصاص ممن يستبد بها ، لا ريب فى أنها كانت تملك الصبر والمصابرة والاحتمال ، لكن ما تملكه من هذه القيم العظيمة ، كان يكلفها ثمنا باهظا ، حيث يضاعف لها العذاب من أجل ذلك ، بدافع من عامل نفس اسمه « الغيظ » . .

والفئة الأخرى ، سادرة فى طغيانها ، يدفعها غرورها فى أن تتوهم النصر ، ما دامت تملك القدرة على البطش والاضطهاد والتنكيل ، كيفما شاءت ، ومتى أرادت ، لكنها لم تحسب حسابا لمعنى لم يطرأ على أذهانها أبدا ، فالإيمان مبعثه الروح ، والروح غير قابلة للفناء ، فهى لم تستطع بما تملك من جبروت وقوة أن تفنى

من الوجود الفئة المؤمنة التى لم تكن تعدو حفنة من البشر ، ومع ذلك فقد ظلت الفئة الباغية سادرة ، لم تع أن الإيمان القائم على الحق مبعثه الروح ، والروح غير قابلة للفناء .

يقول الدكتور محمد عوض محمد — العالم المعروف ، والوزير الأسبق بمصر — فى مقدمته لكتاب « الانتصار على الشدائد » لمؤلفه الأمريكى « ج . دونالد آدامز » يقول الدكتور عوض :

« إن المؤلف جعل نصب عينيه فلسفة خاصة للحياة ، فلسفة قوامها إظهار ما للروح البشرية من القوة الهائلة ، الخليقة بأن تقهر كل شدة ، وتنتصر على كل خطب ، ومع الإنسان — بلا شك — كائن ضعيف ، وجسده سرعان ما يغتاله مرض ، أو حادث ، أو ضربة من سلاح قديم أو حديث ، فإن الروح البشرية بجرأتها وجلدها ، وقوى احتمالها ، تستطيع أن تجعل من الموت نفسه نصرا باهرا ، وفوزا مبينا ، وقوة الروح هى التى تتيح للجسد من القدرة على الجهاد والكفاح ، والصبر على المكاره ، والثبات لدى الكوارث والنكبات ، ما يبدو كأنه ضرب من المعجزات . . »

ولنضع أمامنا صورة مشرقة لأول شهيد فى الإسلام « سمية » أم عمار ، وزوج ياسر ، هذه المرأة المخلوق الضعيف ، استطاعت

بإيمانها أن تتحدى فرعون هذه الأمة « أبي جهل » وأبو جهل هو من هو فى جبروته وفظاظته وغلظته وطغيانه ، كانت هى وزوجها وابنها عمار ، قد ألقى بأجسادهم فوق الرمال الساخنة ، لتتمكن السياط منها ، وهم موثوقو الأيدى والأقدام ، حتى عجزوا عن الحركة تماما ، كل ما كان يراد منهم أن يعلنوا بألسنتهم ارتدادهم عن الدين الذى اعتنقوه . .

أما ياسر وابنه عمار ، فقد كانا يردان على إصرار أبى جهل بالصمت والأنين معا ، فلا يسع الطاغية إلا أن يتميز غيظا لهذا الصمت الذى لم يتحول إلى كلمات ، وهذا الأنين لم يصحبه رجاء ، وإزاء ذلك فلم يملك أبو جهل إلا أن يضاعف التعذيب . .

أما سمية ، فلم تكن تلتزم الصمت ، ولم تكن تتحدى جبروت أبي جهل بالصمت ومجرد الأنين ، بل كانت تجيب بعنف ، وترد عليه كل عبارة يريد أن ينال بها من محمد ودعوته ، وكانت فى موقفها هذا تؤكد لأبى جهل أن لا أمل فى محاولته ، وأنها قررت — بعزمة قوية — أن تثبت على إيمانها ، مهما كان الثمن . .

ولم يتميز أبو جهل من سمية غيظا وحسب ، بل لقد طفا الحقد على عينيه ، وملأ صفحة وجهه ، ولم يحتمل الحقد يأكل قلبه ،

كما لم يحتمل تحدى إمرأة ضعيفة يهز كبرياءه ، ويذل أنفه ، وأدرك أبو جهل أن فى مواصلة تعذيبه سمية ، إطالة لعمر هذا التحدى الذى أصبح يرهبه ، فعاجلها بضربة قاضية ، وكتب لها أروع صفحة من الخلود . .

واستطاعت أول شهيد فى الإسلام ، أن تجعل من الموت . . من موتها . . هزيمة ساحقة للبغى فى أعنف شراسته ، ونصرا عظيما ، للإيمان وللمثل وللمبادىء . .

لو أن سمية كانت بطلا من أبطال المعارك الأسطورية ، وقد استطاعت أن تحرز النصر فى أكثر من موقعة ، بل لو قدر لها أن تحمل السلاح يوما ، وتخوض معركة من أعنف المعارك ، وأن تجندل عشرات من أعدائها بمفردها ، واعتبرت بعد ذلك العامل الرئيسى فى كسب المعركة . . لو قدر لها هذا أو ذاك لما كان للنصر الذى أحرزته حياتها عظمة النصر الذى أحرزه موتها . . ليكون دفعة قوية من الإيمان للفئة المؤمنة من بعدها . .

فالنصر الذى يأتى نتيجة التقاء قوتين ماديتين ، فهو نصر محتمل ، مهما كانت الفوارق بين القوتين ، لكن النصر الذى تحرزه الروح فى مواجهتها لقوة مادية ، فهو نصر غير محتمل ،

إلا إذا كانت الروح تحولت بإيمانها إلى قوة خارقة . .

وهذا الذى حدث فى موقف سمية — أول شهيد فى الإسلام — نموذج للفئة المؤمنة فى انتصارها بإيمانها على القوة المادية ، مع فارق لا يقلل من أحد النصرين أو الانتصارين . .

فسمية لم يكن فى استطاعتها أن تحقق هذا النصر العظيم إلا باستشهادها فى سبيل الحق ، إنها — كامرأة — لها طاقة من الاحتمال محدودة ، من يدرى ؟ لعل جسدها النحيل الشفاف — وهو يتعرض للعذاب الدائب — قد يستدر عطفها ، فتتعرض للفتنة رحمة به ، وإشفاقا عليه ، إذن فما دام الجسد يمكن أن يكون هدفا للفتنة ، وغرضا للتخلى عن المبدأ ، فأحرى به أن ينتهى ، لتظل الروح خالدة . .

والفئة المؤمنة لم يكن مقبولا لديهم أن يحققوا النصر العظيم بالموت فى بداية الدعوة ، وإنما يحققوه بالحياة ، فالدعوة فى بدايتها فى مسيس الحاجة إلى حياتهم ، وفناؤهم الواحد تلو الآخر لا يحقق نصرا إلا للفئة الطاغية ، وهى لم تلجأ إلى أساليبها الوحشية الهمجية فى تعذيب الفئة المؤمنة ، إلا أملا فى إفنائها ، وكان على الفئة المؤمنة أن تفوت عليها هذه الفرصة الذهبية . . وإذا كانت سمية — أول

شهيد فى الإسلام — قد استعذبت الموت لتحقق النصر للإيمان والحق والمبادىء ، فإن الفئة المؤمنة أيضا ، قد استعذبت الحياة لتحقق نفس النصر للإيمان وللحق وللمبادىء ، وإذا كانت سمية قد منحها الإيمان قدرة على التضحية بحياتها ، فقد منح الإيمان الفئة المؤمنة طاقة كبرى من الاحتمال للحفاظ على حياتها . .

وكما كان موت سمية نموذجا فذا للبطولة كذلك كانت حياة الفئة المؤمنة فى أقسى الظروف وأعنف الأحوال نموذجا عاليا للبطولة الفذة النادرة .

* * *

لقد ظلت الدعوة الإسلامية ثلاثة أعوام متوارية فى بيت الأرقم، وكانت هذه الفترة أطيب فرصة لقائد الدعوة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليرسى مبادىء العقيدة فى نفوس أتباعها ، وأن يصوغ عقولهم فى قوالب من الأفكار الثاقبة ، وأن يصهر قلوبهم فى بوتقة الإيمان، وأن يصيب فى وجدانهم طاقات من العزائم التى تفل الحديد، والاحتمال الذى يصمد أمام الجبال الشوامخ ، والعواصف العاتية ..

وعندما أراد الله — سبحانه — أن يجهر بالدعوة ، لتكون وجها لوجه أمام أعدائها ، وجهت الفئة المؤمنة هذه الفترة القادمة

بإيمـان قوى ، مع علمها بأن الفترة المقبلة ستكون فترة تحد يختبر فيها الإيمان وتمتحن النفوس ، ويسبر غور الأرواح . . .

وكانت محنة قاسية تعرضت لهـا الفئة المؤمنة وهى فى مجال التحدى ، والواقع أن الفئة المؤمنة فى هذه المرحلة — مرحلة ما بعد العهد السرى للدعوة — لم يكن عليها أن تتحدى ، بل كان عليها أن تتقبل التحدى ، بل لم يكن عليها أن تجرب إيمانهـا فى التحدى من الفئة الباغية . .

وما حدث من ابن مسعود يعطى صورة لهذه الحقيقة ، يقول ابن اسحق :

« كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة ، عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ـ قال : اجتمع يوما أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا :

« والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لهـا به قط » من رجل يسمعوه ؟

فقال عبد الله بن مسعود : أنا .

قالوا : « إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه . »

قال : « دعونى فإن الله سيمنعنى »

فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم » رافعا بها صوته « الرحمن علم القرآن » ثم استقبلها يقرؤها . . فتأملوه ، فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد » فقاموا إليه ، فجعلوا يضربون فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا فى وجهه ، فقالوا له :

« هذا الذى خشينا عليك »

فقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم ، لأغادينهم بمثلها غدا » .

قالوا : لا ، حسبك ، وقد أسمعتهم ما يكرهون . . !

هذه الحادثة تشير إلى أن أصحاب رسول الله ـ صلوات الله عليه ـ كانوا مجتهدين وليسوا مأمورين ، وإلا فأى واحد منهم كان مستعدا للتضحية ـ كما ضحى ابن مسعود ، لذلك لم يرغبوا فى أن يواصل ابن مسعود تحديه فى الغد ، لا خوفا عليه ، ولكن لأنهم ـ وحسب ـ أرادوا أن يجربوا الإيمان ، ويختبروا العزائم ،

ولأن الفترة التى تفرض عليهم أن يبدءوا بالتحدى لم تحن بعد ، إنها مرحله ما بعد الهجرة ، سيكون عليهم أن يبدءوا بالتحدى ، أما الفترة المكية فهى فترة اختبار وصهر للإيمان وللعزائم ، فترة قبول التحدى ليس إلا . .

* * *

ولقد كانت الفترة المكية مرحلة صهر للإيمان والعزائم ، وقبول التحدى ، إلا أن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يكن يسمح لإيمان أصحابه أن يتعرض لأدنى ضعف ، أو لثقتهم فى نصر الله أن تتعرض لأدنى فتور أو لطاقة احتمالهم أن تتعرض لأدنى اهتزاز . وحتى فى أحلك الظروف وأشدها بلاء ، كان صلوات الله عليه ـ يشد من عزائمهم ، ويحول بينها وبين أن تتعرض لشىء من الخور . .

كان يمر بآل ياسر وهم يعذبون . بل يصب العذاب على أبدانهم صبا ، فلم يقل لهم : « صبرا آل ياسر » فإن موعدكم النصر » وإنما كان يقول لهم : « صبرا آل ياسر . . فإن موعدكم الجنة » وهذه لمحة يجب أن نتأملها طويلا ، فكأن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يشأ أن يمنيهم بالنصر الذى ينهى بلاءهم ،

وإنما أرادهم أن يستعذبوا البلاء حتى الموت، الذى يضع حدا لمحنتهم، والجنة فى انتظارهم، حيث ينعمون فيها بمقام أعلى للشهداء..

ويروى الإمام البخارى عن خباب بن الأرت قوله :

« أتيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو متوسد بردة، وهو فى ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت :

« ألا تدعو الله لنا ؟

فقعد وهو محمر وجهه فقال :

« قد كان من كان قبلكم، ليمشط بأمشاط الحديد، مادون عظامه من لحم وعصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه، فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه .. وليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عز وجل، والذئب على غنمه . ولكنكم تستعجلون ..! »

لقد لمس الرسول ـ صلوات الله عليه ـ من رغبة أصحابه فى الدعاء على الأعداء آثار الضعف، فتدارك إيمانهم أن يتعرض للاهتزاز، لذلك رفض فكرة الدعاء على الأعداء فى مثل هذا المقام، مع أنه ـ عليه السلام ـ فى غير هذا المقام دعا على الأعداء

أكثر من مرة » حتى ينتصر أتباعه بإيمانهم . . وما النصر إلا من عند الله . . أيضا » .

وهنا لمحة يجب أيضا أن نتأملها طويلا :

أكان أصحاب رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يتعجلون آية خارقة من الله سبحانه ، تضع حدا لما هم فيه من محنة وبلاء ؟ فقد عرفوا قصص أصحاب الدعوات قبلهم ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أجرى آيات خارقة على أعدائهم ، هذه الآيات كما وضعت حدا لجبروت الأعداء الطغاة ، وضعت — فى نفس الوقت حدا لابتلاء أصحاب الدعوات ، فالطوفان فى عهد نوح ، والريح العاتية فى عهد هود ، والطاغية فى عهد صالح ، والغرق وغيره فى عهد موسى . . .

لكن فى عهد محمد — صلوات الله وسلامه عليه — فقد رجا محمد نفسه ربه ، أن لا يهلك قومه بآية عامة ، إنه — عليه السلام ، يريد لدعوته أن تشق طريقها بالحكمة والموعظة الحسنة ، بالدليل القاطع ، والحجة الدامغة » .

إن الفترة المكية كانت فترة صهر للإيمان ، وامتحان للعزائم ، إذن فليصبر أتباع الدعوة ، ولا يعتمدوا على آية خارقة من السماء

بل على الإيمان وحده . . إن الآية الخارقة قد تضع حدا لابتلائهم، وحدا لجبروت أعدائهم، ولكنها لن تسجل للفئة المؤمنة أدنى صفحة من صفحات البطولة بين دفتى التاريخ . .

* * *

لقد أحرز الإيمان نصرا عظيما فى مكة ، فى مواجهة القوة العاتية ، وكانت المرحلة المكية نموذجا للبطولة الفذة . حيث هزم الايمان القوة ، وهزمت الروح المادة . .

أجل كانت الفترة المكية فى تاريخ الدعوة الاسلامية نموذجا فذا للبطولة ، وعظمة هذه البطولة مصدرها الإيمان القوى ، والثبات على المبدأ فى فترة من أعنف الفترات على الدعوة وأتباعها .

يقول المرحوم الدكتور هيكل فى مؤلفه « حياة محمد » صلوات الله عليه :

« هذه الفترة من فترات حياة محمد عليه السلام — هى من أشد ماعرف التاريخ الإنسانى روعة فى العصور جميعا . .

فما كان محمد والذين اتبعوه طلاب مال ولاجاه ولا حكم أو سلطان، إنما كانوا طلاب حق وإيمان به . .

وكان محمد طالب هدى للذين يصيبونه بالأذى ، وتحريرلهم

من ربقة الوثنية الوضيعة التى تنحدر بالنفس الإنسانية إلى خزى المذلة والهوان . .

فى سبيل هذه الغاية الروحية السامية — لا سبيل شىء آخر ، وكان الأذى يصله ، وكان الشعراء يسبونه ، وكانت قريش تأتمر به ، حتى حاول رجل قتله عند الكعبة ، وكان منزله يرجم ، وكان أهله وأتباعه يهددون ، فلا يزيده ذلك إلا صبرا وإمعانا فى الدعوة ، وامتلأت نفوس المؤمنين الذين اتبعوه بقوله :

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر . . حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . » .

وهانت عليهم جميعا التضحيات الجسام ، وهان عليهم الموت فى سبيل الحق ، وهداية قريش له ، وقد تعجب لهذا الإيمان الآخذ بنفوس أولئك المسكين ، ولما يكن الدين قد كمل ، ولما يكن قد نزل من القرآن إلا القليل . . »

* * *

مرحلة التحول

* الهجرة .. ومعنى النصر
* كيف تمت المعجزة ؟
* هل كانت الهجرة ضرورة ملحة ؟

الهجرة . . ومعنى النصر

كانت الفترة المكية تمثل — بالنسبة للدعوة وأتباعها — مرحلة نضال من أدق مراحل النضال وأخطرها ، فلقد لبثت الدعوة وأتباعها ثلاثة عشر عاما ، لم يضعا خلالها السلاح لحظة واحدة ، ولم يكن السلاح ماديا ، بل كان معنويا ، الإيمان ، يسانده الحق ، وتسانده الروح ، في مواجهة القوة المادية يساندها الباطل . .

وانتصر الإيمان على القوة ، وانتصرت الروح على المادة ، وانتصر الحق على الباطل . .

وكانت الهجرة التي تمثل المرحلة الثانية من مراحل الدعوة ، هي مرحلة نضال من أدق مراحل النضال أيضا ، وإذا كانت هذه المرحلة النضالية قد اتسمت بالمغامرة فإن المغامرة ليست إلا لونا من النضال ، بل هي أسمى ألوان النضال البطولي . .

ولقد توجت هذه المرحلة النضالية بالنصر وهذا النصر الذي أحرزته الدعوة وأتباعها ، له أهميته وعظمته ، لأن فيه تمت بنجاح منقطع النظير وثبة مباركة ، كان لها ما بعدها ، وعندما تؤدي المغامرة إلى التحرر من أوضاع بلغت القمة من الإرهاق ، ونال الدعوة

وأتباعها من المعاناة والشدة أبلغها ، فإن ذلك يكون نصرا له أهميته وعظمته حتى لمجرد التحرر من هذه الأوضاع المرهقة ، لكن عندما تؤدى المغامرة إلى التحرر ثم إلى الانطلاق .فإن عظمة النصر عندئذ تجل عن الوصف والتقدير :

تحرر من الخوف . . . وانطلاق نحو الأمن . .

تحرر من العبودية . . . وانطلاق نحو الحرية . . .

تحرر من الذلة . . . وانطلاق نحو العزة . .

تحرر من الضيق . . . وانطلاق نحو الفرج . .

تحرر من الشلل . . . وانطلاق نحو الحيوية . .

تحرر من الضعف . . . وانطلاق نحو القوة . .

تحرر من قيود الكلمة . . . وانطلاق نحو حرية الكلمة . .

إن التفسير المادى لكلمة « انتصار » لامكان له فى حياة الدعوات السماوية ، لأن لهذه الكلمة تفسيرا آخر يتفق وجلال الدعوات وعظمتها ، تفسيرا آخر نفسح فيه مكانا رحبا للروح ، وقد نجد فى التفسير المادى لكلمة « انتصار » أحيانا مكانا ، ولكنه مكان ثانوى قد يأتى فى الدرجة الثالثة أو الرابعة ، بينما تحتل

الروح في التفسير الصحيح لـكلمة « انتصار » مكانا أساسيا في الدرجة الأولى . .

ليس معنى هذا أن الدعوات السماوية لا تعول فى انتصاراتها على المادة ، وإنما تعتمد أساسا على الروح وحدها . . كلا ، ففى الدعوة الإسلامية ، يناشد القرآن الكريم أتباعها ، أن يعدوا للعدو ما استطاعوا من قوة ، ومن رباط الخيل يرهبون به عدو الله وعدوهم . .

والآية : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . » تركت كلمة « قوة » عامة ، حتى تلائم كل عصر ، وكل تقدم علمى مستقبلا ، أما التخصيص برباط الخيل ، فقد كانت الخيل فى إبان الدعوة هى القوة الرئيسية فى المعارك ، وبخاصة فى البيئة العربية . .

وفى الآية أيضا ، إشارة أخرى إلى أن العدو ليس عدوالمؤمنين وحدهم ، بل هو عدو الله أيضا ، والقرآن الذى يربى النفوس ، يهدف إلى الحيلولة بينها وبين الذاتية ، فلايكون الدافع إلى الجهاد هو التشفى والانتقام لأنفسهم من أعداء ، سبق لهم أن تحملوا منهم صنوف الأذى ، بل يجب أن يكون الدافع ــ وحسب ــ

نصرة العقيدة والمبادىء ، أن يكون الله — سبحانه — الغاية ، لا التشفى ولا الانتقام . .

إن التفسير الإسلامى لكلمة « انتصار » إنما يقوم على الإيمان أولا ، والقوة البشرية ثانيا ، أو الروح أولا ، والمادة ثانيا ، لأن الإيمان يهب للجندى أكبر طاقة من الروح المعنوية ، تكون بمثابة دفعة قوية لطاقته البشرية أو طاقته الجسدية ، ليس معنى هذا أن لا نعطى القوة المادية حقها من الاهتمام ، لكن معناه ، أن لا ننسى أهمية القوة الروحية المعنوية اعتمادا على القوة البشرية ، ومهما بلغت هذه القوة عددا وعدة وفنا عسكريا ، فيجب أن لا تشغلنا عن قوة الإيمان . .

ولعل ما جاء فى سورة الأنفال ، يؤكد هذا :

« يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين »

الله هو القوة المعنوية ، والمؤمنون هم القوة المادية ، فالقوة الروحية لها الأسبقية ، لأنها الأساس ، ومهما قيل من أن « الواو » لمطلق الجمع ، فهى لا تفيد ترتيبا ولا تعقيبا ، فإن النسق القرآنى يوحى بهذا الترتيب فى مثل هذا الموقف ، وفى القرآن الكريم شواهد لا تعد ، فيها إيماء باستعمال الواو للترتيب فى العطف ، مثل

الآيات المكررة التى ترد فيها عبارة : « آمنوا وعملوا الصالحات » فإن العمل الصالح بلا إيمان يسبقه لا أهمية له ، وكذلك الآيات العديدة التى يناسب المقام فيها أن تكون الواو للترتيب ، كالآية التى نحن بصددها ، وكقوله تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبى . . » فالمقام المناسب فى الآية السابقة أن يتقدم الله على المؤمنين ، وفى هذه الآية يتقدم الله على ملائكته . .

وعودة إلى الآية السابقة ، التى تؤكد عناية الإسلام بالقوتين : الروحية والمادية معا ، لكن للقوة الروحية المقام الأول ، وقد سبقت هذه الآية آيتان أخريان :

« وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين . وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » .

الآية الأولى من هاتين الآيتين ، تؤكد أن عناية الله وحده هى التى تقى رسوله من خداع الأعداء ، ثم تأتى بدليل آخر ، فالله قد أيد رسوله بنصره ، وبالمؤمنين ، فالتأييد الروحى هنا له المقام الأول .

ثم تأتى الآية الثانية بدليل قاطع ، بأن القوة المعنوية لها وحدها المقام ، ولا مجال للقوة المادية ، التى لا تستطيع فى مثل هذا المقام

أن تقوم بأى دور ، فتأليف القلوب من شأن الله وحده ، لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ، قد تستطيع المادة أن تفعل شيئا ، ولكن تأليف القلوب عن طريقها سيكون غير مؤسس على القوة الروحية ، ومصيره الانحلال فى أى وقت . .

وهكذا يكون التفسير الصحيح لكلمة « انتصار » التفسير الإسلامى لا التفسير المادى ، ولنا أن نستقرئ التاريخ فى مراحل الدعوة الاسلامية الأولى . .

فالقلة المستضعفة استطاعت أن تنتصر فى مكة على الكثرة الساحقة ، مع أنها لم تكن تملك أدنى شىء من القوة المادية ، والكثرة الساحقة تملك من وسائل القوة المادية كل شىء ، إذن فقد انتصرت هذه القلة المؤمنة بقوة معنوية هى الإيمان ، ودليل انتصارها بإيمانها أنها على مسار ثلاثة عشر عاما ، استطاعت أن تثبت على مبادئها ، وأن تصمد أمام أنكى وسائل البطش والإرهاب والاضطهاد . .

ثم هذه القلة المؤمنة نفسها ، استطاعت أن تنطلق بإيمانها ، وتسترد اعتبارها ، وتملك إرادتها ، وللإنسان أن تتملكه الدهشة ،

إذ كيف استطاع عشرات من المؤمنين أن يهاجروا من مكة إلى يثرب ، ويفلتوا من سطوة الآلاف من أعدائهم ورقابتهم المشددة ، وحرصهم على أن يظلوا مستضعفين فى داخل مكة ؟

لقد أذن الله وأذن رسوله للمؤمنين بالهجرة إلى يثرب .. إذن فطاعة الله وطاعة رسوله لا يقابلان إلا بالطاعة ، وهنا تبدو فى هذه الطاعة الواجبة التجربة الحقيقية للإيمان ، فلم تكن الهجرة عملا عاديا غير محفوف بالمخاطر حتى لا يحتاج إلى تجربة الإيمان ، بل كانت الهجرة بالنسبة لهم مغامرة ، هى فى حاجة إلى الإصرار ، والاصرار فى حاجة إلى الايمان ، والإيمان فى حاجة إلى التضحية . .

هنا معركتان اسلاميتان جديرتان بالإشارة إليهما ، وفيهما يتبين التفسير الصحيح لكلمة « انتصار » والمغاير للتفسير المادى الذى لا يزال له تأثيره فى عديد من الدول ، حتى يومنا هذا .

ففى معركة بدر كان للإيمان لدى الفئة المؤمنة المقام الأول ، وإلا فما كان لثلاثمائة بلاعدة تذكر أن يهزموا أكثر من ألف مسلحين تسليحا يبعث على الرهبة والفزع .

ويجب أن لا ننسى خاطرا له أهميته فى مجال تقييم النصر للفئة المؤمنة على أعدائها ، وفى مجال التفسير الصحيح لهذا النصر . .

فلقد لبثت الفئة المؤمنة ثلاثة عشر عاما بمكة ، مستضعفة مغلوبة على أمرها ، وخلال هذه الفترة التي ليست بالقصيرة ، تعرضت هذه القلة المؤمنة لألوان من الأذى البدني والروحي ، ألوان من الإرهاب النفسي والفكري ، ولم يمض عليها سوى عامين في مهجرها الجديد ، ولم يكن هذا العامان كفيلين بالتخلص من رواسب ثلاثة عشر عاما ، ذاقت خلالها من الإرهاق الشامل ما تنوء بأثقاله الجبال . . .

يراد لهذه الفئة أن تدخل أول معركة ، وهي مهيضة الجسد ، منهوكة القوى ، تخوضها مع كثرة تبلغ أكثر من ثلاثة أمثالها لم يسبق لها أن تعرضت لأي لون من الأذى ، ولا لأي لون من الإرهاب . على العكس ، لقد كانت خلال الأعوام السابقة يدا تبطش بالفئة المؤمنة المواجهة لها في المعركة ، وسوطا يرهب ، ولسانا يهدد ويتوعد ، وقد منحتها الثلاث عشرة سنة في مكة طاقات كبرى من الغرور والاستعلاء . . .

ومع ذلك فقد كان النصر حليف القلة المستضعفة ، أو بمعنى أدق ، كان النصر للإيمان فلو لم يكن للفئة المؤمنة إيمان هو في المقام الأول . لما أحرزت هذا النصر الفذ في تاريخ المعارك ، على مسار الزمن .

وقد أجملت هذه المسألة آية آل عمران : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة . . » وآية الأنفال :

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم . وأيدكم بنصره . . »

فى هذه الآية ذكرهم الله بما كانوا فيه بمكة فى أدق تصوير : القلق ، والاستضعاف والروع ، ولم تقل الآية « ضعفاء فى الأرض » بل قالت : مستضعفين فى الأرض » فالضعف قد ينشأ من داخل الإنسان ولا حيلة له فيه ، أما الاستضعاف فهو يطرأ على الإنسان من خارجه فغيره يستضعفه ، ثم أضافت الآية ما منحوه من خير بعد ذلك إلى الله وحده ، الإيواء إلى يثرب ، والنصر فى بدر ، فوسائلهم المادية وجهودهم الذاتية فى الهجرة لا صلة لها بالنصر ، وقوتهم البشرية فى بدر لا صلة لها بالنصر أيضا ، إنما مرد النصر فى الجانبين إلى الإيمان ، والإيمان منحة الله لهم .

أما فى معركة حنين ، فقد بلغ جيش المسلمين اثنى عشر ألفا لملاقاة جموع هوازن وثقيف بعد فتح مكة بأيام ، وقد استعار رسول الله — صلوات الله عليه — مائة درع بأداتها من صفوان ابن أمية ، وقيل أربعمائة درع ، وقد كانت كثرة المسلمين ، مما لا يستهان

بها ، حتى لقد قال رجل من بنى بكر : « لو لقينا بنى شيبان ما بالينا ولا يغلبنا اليوم أحد من قلة » بل إن العيون الذين أرسلهم المشركون ليأتوهم بخبر عسكر المسلمين أرسلهم عوف بن مالك متفرقين حتى لا يتفقوا على رأى هؤلاء عادوا وكل منهم فى فزع ليقول لعوف بن مالك قائد الشرك :

« رأيت رجالا بيضا على خيل بلق، فوالله ما تماسكت أن أصابنى ما ترى ، ما تقاتل أهل الأرض ، إن تقاتل إلا أهل السماء . . »

ومع ذلك فقد انهزم المسلمون وولوا مايلوون على شىء وانكشف الرسول — صلوات الله عليه — ولم يثبت معه إلا قليل معدودون، ودارت الدائرة بعد ذلك على المشركين ، وما ضرب أحد من المسلمين بسيف ، ولا طعن برمح ، وكانت عناية الله وحده .

لماذا انهزم المسلمين على كثرتهم وكثرة عدتهم ؟ لقد اعتمدوا على قوتهم المادية ، جعلوها فى المقام الأول ، بدلا من القوة الروحية الممثلة فى الإيمان والثقة فى الله . .

ولا بد هنا من الربط بين المعركتين ، معركة بدر ومعركة حنين:

ففى بدر لاقى المسلمون الأعداء وهم يحملون أعباء ثلاثة عشر عاما

من الإرهاق والمعاناة ، وهم قلة بلا عدة تذكر ، وكان النصر حليفا لهم ، لأنهم ، وضعوا القوة المعنوية . . الإيمان . . فى المقام الأول . .

وفى حنين ، لاقى المسلمون الأعداء وهم من الكثرة والعدة بمكان ، تختلج نفوسهم بنشوة النصر بعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا . . وكانت الهزيمة حليفا لهم ، ولولا ثبات رسول الله ، وعناية الله ، لما دارت الدائرة على الأعداء فى نهاية المعركة . .

والإجابة عن هذا السؤال : لماذا انهزم المسلمون على كثرة عددهم وعدتهم ؟ لأنهم اغتروا بذلك وتخلوا عن القوة الروحية الأخرى :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . . وأنزل جنودا لم تروها . . »

* * *

وعودة أخرى إلى معنى النصر فى الهجرة المحمدية — على صاحبها أفضل الصلاة وأكمل التسليم . .

سبق منذ صفحات أن أشرنا إلى أن المسلمين طوال الفترة

المكية لم يكن عليهم — وحسب — أن يقبلوا تحدى الفئة الباغية لهم . .

صحيح أن المسلمين طوال الفترة المكية كانوا يباشرون لونا من التحدى للأعداء ، لكن هذا اللون من التحدى كان يحمل طابع السلبية ، فكل ما كان يفعله المسلمون المستضعفون إزاء ألوان من الأذى والاضطهاد والتنكيل ، هو أنهم لاذوا بالصبر والثبات والاحتمال وكانت الطغمة الباغية الشريرة من قريش تعتبر مثل هذا السلوك تحديا صامتا لها ، والحقيقة أن مثل هذا التحدى كان ذا وجهين ، فهو سلبى فى ضمير الفئة المؤمنة ، وإيجابى فى صدور الفئة القرشية الطاغية . .

وحدثت الهجرة بعد ثلاثة عشر عاما ، عبئت الفئة المؤمنة خلالها بالعقيدة الراسخة ، وصقلت بالإيمان القوى ، وغذيت بأكبر طاقة من الصبر والاحتمال ، وعندما دعيت إلى الهجرة لبت النداء دون تردد إلا من قلة ، بعضها لم يكن الإيمان قد اكتمل فى قلوبها ، والعقيدة لم ترسخ فى نفوسها ، واليقين لم يكن استقر فى وجدانها ، والبعض الآخر كان مرتبطا بمكة ارتباطا وثيقا عن طريق الرحم أو المال . .

إذن فالهجرة إلى المدينة هى أول فرصة للمؤمنين باشروا فيها التحدى للأعداء، بعد أن ظلوا طيلة ثلاثة عشر عاما يقبلون التحدى ولا يباشرونه، ولا يبدأون به . .

لقد سبق للمسلمين أن هاجروا — فى السنة الخامسة من النبوة — إلى الحبشة، وذلك استجابة لإشارة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بعد أن رأى ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه ليس يستطيع أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم :

« لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه »

وكان أن خرج المسلمون من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى أرض الحبشة — كما يقول ابن اسحق — مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم . . وبلغ المهاجرون الأولون إلى الحبشة عشرة رجال وثلاث نسوة، منهم كبار الصحابة : عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والزبير بن العوام وأبو حذيفة وزوجه سهلة، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة وزجه أم سلمة، وعثمان بن مظعون . .

ثم توالت هجرة المسلمين إلى الحبشة حتى بلغوا ثلاثة وثمانين

بين رجل وامرأة وطفل ، وهذا العدو ليس بالقليل ، حتى ولو كان ثلاثة من الرجال ، إذا قيس بعدد المسلمين فى ذلك الوقت ، الذين لم يكونوا يتعدون المائة . .

وهناك أكثر من وجه للمقارنة بين هجرة الحبشة وهجرة يثرب !

فهجرة الحبشة كان الدافع إليها مخافة الفتنة ، والفرار إلى الله بدينهم ، ولم يكن الدافع هو القيام بنشر الدعوة المحمدية ، لأن بلاد الحبشة كانت فى ذلك الوقت تدين بالمسيحية ، ولن تقبل المسيحية هناك أن يزاحمها الدين الجديد حتى ولو كان على رأس الحبشة ملك ، لا يظلم عنده أحد . .

وهذا الذى دفع المسلمين إلى الهجرة الحبشية ، لم يكن يقصد به التحدى لقريش ، بل ربما قرت أعين قريش بهذه الهجرة ، ما دامت تنقص من عدد المؤمنين فى مكة ، وإن كانت قد تظاهرت بعد ذلك بعدم رضاها لهذه الهجرة ، وإعلان سخطها عليها ، حتى بعثت وفدا مندوبا عنها لمفاوضة ملك الحبشة فى تسليم « الفارين » على حد زعمهم ، وفشل الوفد فى مهمته بعد حوار وجدل بينه وبين أصحاب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

والحقيقة أن قريشا لم يكن تهمها الهجرة إلى الحبشة ، لأن الحبشة ، تبعد كثيرا عن مكة ، وقد توقعت قريش أن المهاجرين من المسلمين سوف تنقطع أخبارهم ، ويفنون هناك الواحد تلو الآخر ، دون أن يتركوا للدعوة الإسلامية أثرا يمكن أن يكون خطرا على قريش فى المستقبل .

والهجرة إلى الحبشة حققت جزءا من التحول والانطلاق ، لأن النتيجة التى كان يرجوها المسلمون المهاجرون من هجرتهم إلى الحبشه هى أن يفروا بدينهم إلى أرض يطمئنون عليها ، ويستقرون بها ، ولا يتعرضون فيها لبطش ولا لأذى ، حتى إذا قدر لإخوانهم فى مكة أن يفنوا عن آخرهم ، حملوا بعدهم لواء الدعوة . .

أما الهجرة الكبرى إلى يثرب ، فقد كان الفرار بالدين أحد الأسباب لكن ليس الواقع الأساسى ، فالدافع الأساسى هو التحول والانطلاق ، حيث يتيسر للمهاجرين أن يؤسسوا فى مهجرهم وطنالهم ، فقد كان الإسلام طوال ثلاثة عشر عاما دينا بلا وطن ، وشعبا بلا دولة .

وسبق أن قلنا : إن الهجرة الكبرى إلى يثرب كانت تحمل معنى التحدى لقريش ، بل كان أول تحد من المسلمين لها . .

ولقد تصدت قريش لهذه الهجرة، لكنه كان فى بادئ الأمر تصديا متراخيا غير جدى، فقد استمرت هجرة المسلمين جماعات وفرادى طوال أكثر من عام، ومع ذلك فلم تستطع قريش أن تعوق عن الهجرة إلا نفرا قليلا..

ربما كان تفكيرها هداها إلى أن هجرة المسلمين — وهم يومئذ يعدون بالعشرات — لا تحمل معنى الخطر عليها، بل العكس فإن هجرة المسلمين من مكة مما يريح قريشا، ويهدئ من روعها ويسكن من غيظها، وما دام محمد — صلوات الله وسلامه عليه — قائما بمكة، فلا مبرر لأن ينزعها هجرة من يشاء الهجرة..

ليس معنى هذا أن قريشا قد التزمت الصمت حيال هذه الهجرة التى تمت على فترات متقطعة، بل لقد ناوشت أكثر من مرة عديدا ممن حاولوا الهجرة.. لكن كانت على يقين من أن مناوشتها تحقق الثمرة المرجوة لها، فالمسلمون فى هذه المرة كانوا جادين فى محاولتهم، مضربين على تحقيقها مهما كلفهم من ثمن..

إن الإيمان هو الذى صنع هذا التحدى.. والايمان هو الذى سجل صفحة ناصعة من البطولة للفئة المؤمنة التى صنعت نقطة التحول فى تاريخ الدعوة المحمدية.

كيف تمت المعجزة ؟

كانت الهجرة نفسها معجزة، وليس من غريب الرأى أن يقال: إن فى مراحل الهجرة وجوهرها آيات عديدة من الإعجاز . .

وإذا كان الاصطلاح جرى على اعتبار المعجزة أمرا خارقا للعادة، يجريها الله سبحانه — على يدى أحد أنبيائه لإقناع معارضيه بصدق دعوته ، أو أن المعجزة آية من الله ينزلها سبحانه فى عصر نبى أو رسول لتأييده أو نصرته . . فإن الهجرة ، كانت حركة فوق العادة هيأ لها من الأسباب ما جعلها أخطر حركة سياسية وعسكرية لم يحمل محدثوها سلاحا ، ولم يشهروا لسانا ، ولم يعدوا عدة إلا الإيمان ، ولم تلعب فيها المصادفة دورا . .

إن كل خطوة من خطوات الهجرة ، هيأ الله لها أسبابها ، وحاطها برعايته ، وكال مسعاها بالنجاح بقدرته ، ولا يسع جبهة العدو فى النهاية إلا أن توقن بوجه الإعجاز فى هذه الخطوة ، وإن الذى صنع هذا الإعجاز هو الإيمان الصادق ، والعقيدة الراسخة ، والثقة العميقة فى الله عز وجل .

لا ريب فى أن محمدا — صلوات الله وسلامه عليه — وصحبه ،

كانوا يتطلعون إلى مرحلة انتقالية ، تنقلهم من حياة يسودها الضعف والمسكنة ، إلى حياة جديدة تشملها القوة والعزة معا ، ولم يكن دافع هذا التطلع هو اليأس أو الإحساس بالقلق ، أو الشعور بإرهاصات الانهيار ، أو حتى الحنين إلى حياة الدعة والرفاهية ، بل كان هناك دافع أساسى أصيل ، هو الرغبة فى أن يمكن الله لهم فى الأرض ، ليؤسسوا لأنفسهم دولة ، وليصنعوا لدولتهم شعبا تتوافر له كل مقومات الشعب ، وليقيموا لهذا الشعب نظاما ينهض به .

إن الأديان السماوية السابقة على الإسلام كانت تحمل إلى الأنبياء دعوات ، ودعوات تحمل إلى الناس تعاليم ، وتعاليم تحمل إلى الأخلاق مبادىء وقيما ، فحسبها دعاة ينشدون فى الآفاق ، يبشرون بتعاليمها . .

أما الإسلام الذى كان خاتما للرسالات السماوية ، يبقى ما بقى الدهر ، ويخلد ما خلدت الحياة ، فقد كان من الضرورى له ، أن تكون له أرض يقيم عليها دولة ، ودولة يستوعب فيها شعبا ، وشعب يحمل كله تعاليمه ، ويطبق منهجه ، ويتحول كله أيضا إلى دعاة لمبادئه ، وإلى جيش يذب عنه غارات المناوشين له ، والخارجين عليه ، والمتربصين به . . .

ولم يكن من المعقول — وهذه أهداف الإسلام — أن تظل دعوته قابعة فى مكة ، محددة الإقامة ، مشلولة الحركة ، مجمدة الإرادة ، بل كان لابد لها من التحرر والانطلاق إلى آفاق واسعة ، ولا سيما أنها لن تكون دعوة محلية قاصرة على مكة ، أو دعوة قومية قاصرة على العرب ، بل حتى دعوة أمية قاصرة على الأمة الإسلامية ، إنها دعوة عالمية تهدف إلى خير الإنسانية قاطبة ، ورفاهية البشرية جمعاء ، ثم إقرار الأمن والسلام بين ربوع العالم بأسره . .

هذه الأهداف الكبرى للدعوة الإسلامية ما كان لها أن تتحقق ، بل أن يتحقق واحد منها ، والدعوة قابعة فى مكة ، أو حتى مستقرة فى جزيرة العرب ، بل كان لابد لها من الانطلاق المبدأى إلى يثرب ، ومن يثرب إلى آفاق الدنيا كلها ، وكان لابد أن تكون الهجرة هى نقطة التحول أو نقطة الانطلاق ، وأن يهيء الله لها أسباب نجاحها بعد ذلك . .

وهيأ الله للهجرة كل أسباب النجاح . .

كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فى كل موسم من مواسم الحج ، يعرض نفسه على قبائل العرب ، ويشاء الله عز

وجل أن يلتقى بستة نفر من قبيلة الخزرج ، ويعرض عليهم الإسلام، ويشرح صدورهم له ، وكان أن قالوا :

« إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فستقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك . . »

فلما قدم النفر الستة المدينة إلى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

يا للعجب ، ستة نفر أسلموا وحسن إسلامهم استطاعوا أن ينشدوا الدين الجديد بمثل هذه السرعة المذهلة ، وبدا واضحا بعد ذلك الفرق الشاسع بين أرض مكة القاحلة ، وشعبها ذوى القلوب المجدبة ، وبين أرض يثرب الخصبة ، وشعبها ذوى القلوب المفتوحة لدعوة حق ، فكانت أكثر خصوبة من الأرض . .

وفى العام القادم ، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلقوا رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بالعقبة فبايعوه

على بيعة النساء ، ونصها — كما وردت فى سورة الممتحنة :

« يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أو لا دهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف . . فبايعهن ، واستغفر لهن الله . . إن الله غفور رحيم »[1] .

والمقصود ببيعة النساء أن تكون خالية من أى التزام بقتال . . وكانت هذه البيعة هى بيعة العقبة الأولى . .

وهنا لا بد من وقفة ، فالرسول — صلوات الله وسلامه عليه — يقبل من هذا الوفد ، أن يبايعه على بيعة النساء ، دون أن يشترط غيرها أو يضيف إليها ، احتراما لرغبته ، وهذه هى المرونة السياسية العظيمة ، فالوفد الأول فى العام السابق لم يطلب منه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — إلا الإسلام ، ولم يعرض عليه بيعة ، حتى بيعة النساء التى ليس فيها أدنى التزام بقتال العدو ، أو الدفاع عن الدعوة . .

إن نصوص البيعة سلوكية أخلاقية بالإضافة إلى النص الأول العقيدى ، وقد توافر فى نصوص هذه البيعة الإشارة إلى أحط الرزايا الأخلاقية ، فبويع الوفد على العفة عن جميعها ، وفى رواية للبخارى ،

---

(١) الآية ١٢ من سورة الممتحنة .

أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال لهم فى نهاية البيعة : « فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئا ، فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر » كأنما أراد رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أن يفتح أمامهم باب الأمل فى مغفرة الله سبحانه ، إذا هم لم يوفوا بنص من نصوص المعاهدة ، ليس فى هذا القول معنى التشجيع على ارتكاب أى من هذه المحرمات ، وإنما أريد به تقرير قاعدة ، هى أن مرتكب الاثم أمره مفوض إلى ربه ، لا واسطة بينه وبين عباده ، فليس فى الإسلام مساومة على صكوك الغفران .

ويلاحظ فى وفد بيعة العقبة الأولى أن اثنين من الأوس قد انضما إليه ، مما يشير أن دعوة النفر الستة قد تركت أثرها فى ظل دور يثرب ، وعلى ما بين الخزرج والأوس من نفور وتنافس ، لكان ذلك لم يمنع من أن تتالف قلوبهم معا ، فى سبيل الإسلام .

وعند عودة الوفد إلى بلاده ، أرسل الرسول — صلوات الله عليه — معه ، مصعب بن عمير ، وهو من خيرة الصحابة ، هاجر إلى الحبشة فى أول من هاجر إليها ، ثم شهد بدرا ، واستشهد فى أحد ، وكانت راية رسول الله — صلوات الله عليه — معه فى بدر

وأحد ، وعندما استشهد فى معركة أحد حمل الراية عنه على كرم الله وجهه .

كانت مهمة مصعب : أن يقرىء المسلمين فى يثرب القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين ، فكان يسمى المقرىء بالمدينة . . وكان منزله على أسعد بن زرارة ، وقد كان أحد النفر الستة الذين قدموا فى العام السابق ، وحضر بيعة العقبة الأولى ، والثانية ، ويقال : إنه كان أول من بايع رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — كما كان أحد النقباء الاثنى عشر ، وقد توفى قبل بدر . . ويعتبر مصعب أول داعية للإسلام وأول مبعوث له .

وقد قام أسعد بن زرارة ومصعب رضى الله عنهما بنشاط كبير واسع النطاق فى يثرب ، لنشر الدعوة الإسلامية ، وترغيب الناس فى الإسلام ، وإذا كان الإيمان هو المقوم الأساسى لكل داعية إلى الله ، فإن مصعب — أول داعية للإسلام — كان على أوفى نصيب من الإيمان ، وكذلك كان أسعد بن زرارة ، وقد عرف عن مصعب الشجاعة فى الرأى والحصافة فى الفكر والحزم فى التدبير .

فقد اجتمع إلى مصعب وأسعد رجال ممن أسلم ، يعلمان المسلمين الإسلام ويفقهانهم فى الدين ، وكان على مقربة منهم سيدا قومهما

يومئذ ، سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، وكلاهما مشرك على دين قومه ، قال سعد بن معاذ لأسيد : « لا أبالك ، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما عن أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت ، كفيتك ذلك ، هو ابن خالتى ، ولا أجد عليه مقدما . . »

وكان أن أخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد قال لمصعب .

« هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه » .

فأجاب مصعب : « إن يجلس أكلمه » .

قال أسيد لهما : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة » .

قال مصعب : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمرنا قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ؟

قال أسيد : أنصفت . . ثم ركز حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن . .

وعرف مصعب وأسعد الإسلام فى وجه أسيد قبل أن يتكلم ، فى إشراقه وتسهله ، ثم قال :

« كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين ؟

قالا له : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلى » .

واستجاب أسيد ، واستطاع أن يؤثر على سعد بن معاذ . . حتى ذهب إليهما ومعه حربته ، ووقف عليها متشتما — كما فعل أسيد تماما ، وكان أن شرح الله صدره للإسلام ، وعاد من توه إلى نادى قومه ، وعرفوا فى وجهه أمرا ، فلما وقف عليهم قال :

« يا بنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟

قالوا : « سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة » .

قال : « فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله » .

يقول الداعيتان : مصعب وأسعد :

« فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة » .

إن من اللمحات الدقيقة الجديرة بتأملها طويلا : أن مصعب ابن عمير رضى الله عنه ، حين طلب منه أسيد وسعد أن يوضح لهما الطريق إلى الإسلام ، كان مرنا ميسرا ، فلم يشأ أن يعقد لهما الأمور ،

بل طلب منهما فى بساطة ويسر : التطهر ثم شهادة الحق ، ثم الصلاة ، إنها أمور لا تكلفهم مشقة ولا تحملهم عناء : تطهير الجسد والثوب من أدران الجاهلية ، تطهير النفس من رواسب الوثنية ، ثم الإقبال على الله عز وجل بعد ذلك بالصلاة .

وهذه لمحة أخرى : فإن موقف سعد بن معاذ من قومه بنى عبد الأشهل ، هو موقف يتسم بالحزم أكثر مما يتسم بالجرأة ، ولم يكن مصدر هذا الحزم . . وتلك الجرأة إلا إيمان استقر فى قلبه ، وتعمق فى وجدانه ، وتملك عليه كل أحاسيسه ومشاعره ، إنه موقف كان فى حاجة إلى مثل هذا الحزم والبت السريع فى الأمر ، فلو أن سعد بن معاذ رضى الله عنه ، قد دخل مع قومه فى حوار هادىء أو نقاش وادع ، لكان هناك مجال للأخذ والرد ، لكنه حسم الأمر فى أول كلمة وجهها إلى بنى قومه ، ولم يكن الموقف يحتمل غير ذلك .

ومضى عام وأقبل موسم الحج ، وقدم مصعب بن عمير يصحب عددا آخر من الأنصار ، هؤلاء كانوا قد أسلموا ، لكنهم جاءوا مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، لا ليعلنوا إسلامهم ، وإنما ليبايعوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على نصرة الإسلام والذود عنه ،

وكان الوفد فى هذه المرة يضم ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين ، هما نسيبة بنت كعب « أم عمارة » التى شهدت الحرب مع رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ ثم أسماء بنت عمرو بن عدى . وقد واعدوا رسول الله العقبة من أوسط أيام التشريق ، فلما فرغوا من الحج ، ناموا تلك الليلة مع قومهم فى رحالهم ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجوا لميعاد الرسول ، يتسللون تسلل القطا مستخفين . .

واجتمعوا فى الشعب ينتظرون رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ حتى جاء ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، وكان أول متكلم ، ثم طلب الوفد من رسول الله أن يتكلم وليأخذ لنفسه وربه ما أحب .

وتكلم رسول الله ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الإسلام ، ثم قال :

« أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » . .

فأخذ البراء بن معرور بيده ــ وكان سيدا مطاعا فى قومه ــ ثم قال :

« والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ــ أى

نساءنا — فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة — أى السلاح — ورثناها كابرا عن كابر » .

واعترض القول — والبراء يكلم رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أبو الهيثم بن التيهان ، فقال :

« يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالا ، وإنا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت — إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله — أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم رسول الله — صلوات الله عليه ، ثم قال :

« بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم . . !

وفى رواية البيهقى كما فى ابن كثير :

أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عندما انطلق ومعه عمه العباس إلى الأنصار عند العقبة تحت الشجرة ، قال :

« ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة ، فإن عليكم من المشركين عينا ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم . . »

فقال قائلهم وهو أبو أمامة :

« سل يا محمد لربك ماشئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ،

ثم أخبرنا مالنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك » .

قال — صلوات الله وسلامه عليه :

« أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون من أنفسكم »

قالوا : فمالنا إن فعلنا ذلك ؟

قال : لكم الجنة » .

قالوا : فلك ذلك . . »

أما عبادة بن الصامت — أحد النقباء الاثني عشر ، وممن شهد بيعتي العقبة ، وشهد بدرا والمعارك كلها ، ثم وجهه عمر إلى الشام قاضيا ومعلما — فيقول :

« إنا بايعنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن نقول في الله ، لا تأخذنا فيه لومة لائم ، وعلى أن ننصر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا قدم علينا يثرب ، مما نمنع أنفسنا وأرواحنا وأبناءنا . . ولنا الجنة . . . فهذه بيعة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — التي بايعناه عليها . . »

وفى رواية أخرى عن عبادة :

« بايعنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيعة الحرب : على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا وأثره علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم . . »

وبارك الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — انتخاب اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، بعد أن طلب منهم أن يخرجوا إليه منهم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم .

أما التسعة الخزرجيون فهم :

« أسعد بن زرارة — سعد بن الربيع — عبدالله بن رواحة — رافع بن مالك بن العجلان — البراء بن معرور — عبد الله بن عمرو ابن حرام — عبادة بن الصامت — سعد بن عبادة — المنذر بن عمرو » .

وأما الثلاثة الأوسيون فهم :

« أسيد بن حضير — سعد بن خيثمة — رفاعة بن عبد المنذر » .

والملاحظ أن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — هو الذى طلب من القوم أن يختاروا منهم اثنى عشر نقيبا ، كان له

ـ وحسب ـ تحديد عدد النقباء ، لكنه ترك للقوم أن يقوموا بأنفسهم بعملية الانتخاب ، فهم أدرى برجالهم ، ولو أن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — هو الذى عين أولئك النقباء الاثنى عشر ، لما وسع القوم إلا السمع والطاعة والنزول على رغبته ، لكن بعد نظره ، لم يقم بهذه المهمة وتركها لهم ، فهو أولا حديث عهد برجالهم ، وثانيا ليضع قاعدة سليمة من قواعد التنظيم السياسى ، قاعدة تعتبر من أرقى قواعد التنظيم السياسى ، فالقيادات الشعبية لا تفرض على الشعب فرضا ، وإنما يختارها الشعب بنفسه عن رضا وإرادة حرة . .

وكان هذا العمل بداية للتمرس على التنظيم السياسى ، وتمهيدا لتنظيم أشمل . . الدولة الإسلامية . . فى يثرب . . وقد روى ابن اسحاق عن عبد الله بن أبى بكر ، أن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ، قال للنقباء بعد اختيارهم :

« أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومى . .

ولنا أن نقف قليلا هنا . .

فالاثنا عشر الذين شهدوا بيعة العقبة الأولى رغبوا فى أن

يبايعوا رسول الله — صلوات الله عليه — بيعة النساء ، كل نصوصها سلمية : عقيدية أو أخلاقية أو سلوكية ، ولم يمض سوى عام واحد ، حتى شهد بيعة العقبة الثانية أكثر من سبعين أنصاريا ، وهؤلاء استجابوا لبيعة فى نصوصها ما فيها من مغامرة وخطر ، إن بيعة كهذه البيعة الثانية تنص على أن يؤازروا رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ويمنعونه مما يمنعون منه نساءهم — والنص على هذه العبارة الأخيرة مغزاه ومعناه — فالنساء لدى العرب حرمات يبذلون من أجل صيانتها والذود عنها دماءهم ، لأدنى مساس بها . .

وما هو أعجب من ذلك ، أنهم لقاء هذه التضحيات العاليات الغاليات لا يرجون ثمنا دينويا ، ولا يطمعون فى مجد أو سؤدد أو شرف ، بل كل ما يرجونه ويطمعون فيه ، رضا الله عنهم فى الدنيا ، ومثوبته لهم فى الآخرة . .

والمقارنة بين البيعتين تقتضينا أن ندرك وفى ، أن أصحاب البيعة الأولى إنما قدموا مكة فى موسم الحج راغبا فى الإسلام من لم يكن قد أسلم ، ومجددوا إسلامه من كان قد أسلموا منذ عام ضمن الوفد الذى كان مكونا من ستة نفر عرض عليهم الرسول — صلوات الله عليه — الإسلام فشرح الله صدورهم له . .

واقتضت سياسة الرسول الرشيدة حيال هذا الوفد . أن لا يثقل عليه فى البيعة ، وهو حديث عهد بالإسلام ، ولا أن يجعل من نصوص البيعة الأولى ما يحمله أعباء ثقالا ، قد لا يكون له طاقة باحتمالها ، حسبه أن يعود الوفد إلى يثرب دعاة إلى الله ، وهذا ما قد حدث ، وقام هذا الوفد المبارك بمهمته خير قيام ، وأدى رسالته خير أداء ، فيه دخل الإسلام كل بيت من بيوت الأنصار إلا قليلا ، وبجهوده بلغ الوفد فى العام القادم أكثر من سبعين وافدا ، لم يقدموا مكة ليعلنوا إسلامهم ، بل جاءوا مسلمين حسن إسلامهم ، مؤمنين رسخ إيمانهم . .

إذن فأصحاب البيعة الثانية قد قدموا مكة للقاء رسول الله — صلوات الله عليه — مهيأة أذهانهم وقلوبهم ووجداناتهم لقبول أية نصوص تدعوا إلى المخاطرة والبذل والتضحية من أجل حماية العقيدة ونشرها . .

حين تلا رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — نصوص البيعة على أصحاب العقبة الثانية ، ثم نهضوا واحدا واحدا يبايعه ، قام أسعد بن زرارة وأخذ بيد الرسول — عليه السلام — وهو أصغر القوم إلا جابر بن عبد الله — فوجه كلامه إلى أعضاء الوفد :

« رويدا يا أهل يثرب ، فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف . . فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله . . وأما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فبينوا ذلك ، فهو أعذر لكم عند الله . . »

فأجاب القوم : . . . فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدا . . »

ويروى ابن اسحاق :

وأنه عندما اجتمع القوم لبيعة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال العباس بن عبادة ، بن نضلة الأنصارى ، أخو بنى سالم ابن عوف :

يا معشر الخزرج : هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم . .

قال : « إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن ، فوالله إن فعلتم ، خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه إليه ، على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . . »

قالوا : « فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . . فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال الجنة » .

قالوا : « ابسط يدك . . »

فبسط يده ، فبايعوه . .

والعباس بن عبادة ، إنما أراد أن يؤكد معنى البيعة فى نفوس أصحاب العقبة ، لا أن يختبر درجة إيمانهم ، فلقد كان إيمانهم بخير والحمد لله ، والعباس هو الذى قال لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — عندما طلب منهم أن يرفضوا إلى رحالهم :

« والله الذى بعثك بالحق . . إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا ؟ »

لكن رسول الله أجابه : « لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم » .

وصدق الأنصار أصحاب العقبة الثانية بيعة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، فلم يكن الحماس الدينى الذى بدا عليهم لدى رسول الله حماسا استهلاكيا ليس إلا ، بل كان حماسا صادقا صاغه الإيمان الصادق والعقيدة الراسخة .

وينقل إلينا ابن كثير وابن هشام وغيرهما من مؤرخي السيرة الكثير من الشواهد على ذلك .

إن أصحاب البيعة هؤلاء قدموا المدينة فأظهروا الإسلام بها ، وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دينهم من الشرك ، منهم عمرو ابن الجموح ، وكان ابنه معاذ ممن شهد العقبة ، وبايع رسول الله — صلوات الله عليه — وكان عمرو بن الجموح سيدا من سادات بني سلمة ، وشريفا من أشرافهم ، وكان قد اتخذ صنما من خشب يقال له « مناة » فلما أسلم فتيان بني سلمة ، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك ، فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عذر « جمع عذرة بضم العين وهي فضلات الناس » يطرحونه منكسا على رأسه ، فإذا أصبح عمرو قال : ويلكم ! من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه ، وتوعد شرا من فعل به هذا ، وتكرر العدوان على مناة ، فلما أعيت عمرا حماية آلهته علق عليه سيفه ثم قال : إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك . .

ولما أمسى الليل عدا فتيان المسلمين من بني سلمة على الصنم وأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلبا ميتا فقرنوه به بحبل ،

ثم ألقوه فى بئر من آبار بنى سلمة ، فيها عذر من عذر الناس . .
وخرج عمرو يتبعه ، فوجده فى البئر منكسا على رأسه مقرونا بكلب ميت . . فلما رآه وأبصر شأنه ، وكلمه من أسلم من رجال قومه شرح الله صدره للإسلام . .

* * *

هذه بيعة العقبة الثانية ، كانت فاتحة خير للإسلام والمسلمين ؛ فبعدها نزل الأمر لرسول الله — صلوات الله عليه — بالقتال ، وبعدها أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى يثرب ، وانتشر الإسلام انتشارا واسعا فى المدينة . .

لقد جاء فى صحيح البخارى : أن كعب بن مالك قال حين تخلف عن غزوة تبوك :

« ولقد شهدت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة العقبة ، حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها » . .

وأصبح الطريق ممهدا لهجرة المستضعفين فى الأرض إلى حيث يبدأون مرحلة جديدة من التحول والانطلاق ، وصارت الهجرة واجبة

وفرضا ، بعد أن أمر الرسول أصحابه بها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال لهم :

« إن الله — عز وجل — قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها . . »

وخرج الناس أرسالا « جماعة فى إثر جماعة » وبقى الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ينتظر الأمر من الله بالهجرة . . وقد اقتضت سياسة الرسول الرشيدة والمحوطة برعاية الله ، أن يهاجر المسلمون من مكة متفرقين ، حتى لا يلفتوا أنظار قريش فيعترضوا طريقهم ، ثم إن لكل من المسلمين مصالح ارتبط بها بمكة . ولو أنهم أمروا بالهجرة دفعة واحدة . لأحدث ذلك اضطرابا لمصالحهم . .

أما لماذا بقى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بمكة بعد أن أمر المسلمين بالهجرة ؟

إن الأنظار كلها كانت متجهة إليه — عليه السلام — فوجوده بمكة ومع رجل كأبي بكر ، مما يبعث على الطمأنينة فى نفوس قريش ، فهى ترى أن خطورة الدعوة الجديدة عليها كامنة فى شخص الرسول — صلوات الله عليه — ولو بدأ بالهجرة وترك أصحابه خلفه .

لوضعت قريش العراقيل فى طريقهم ، ولما مكنتهم من الهجرة ، لتثأر لأنفسها من محمد عليه السلام . .

ثم إن سياسة الرسول فى هذه الحلقة ، كونه يبقى فى مكة ليكون آخر المهاجرين ، تثير معنى إنسانيا عظيما ، ومعنى أخلاقيا عظيما أيضا . .

فهو يريد أولا ، الاطمئنان على أصحابه ، وتقر عينه باجتماع الشمل فى يثرب بين المهاجرين والأنصار ، وهذا ما تقتضيه القيادة الرشيدة ، وهو يريد ثانيا ، أن يضرب مثلا أعلى فى الإيثار ، وهذا ما تقتضيه القيادة الثاقبة الفكر ، الواسعة الأفق الكبيرة القلب..

وكان أول المهاجرين أبو سلمة وزوجه أم سلمة ، وقيل : إنهما كانا أيضا أول المهاجرين إلى الحبشة وتوالت هجرة المسلمين إلى يثرب حيث وجد الجميع منزلا أهلا وصدرا رحبا . .

وأعلن عمر بن الخطاب عن عزمه على الهجرة متحديا قريشا . .

ودب الفزع فى قريش ، فقد تسلل المسلمون من مكة لواذا ، ولم يبق إلا رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وأبو بكر ، وعلى ، وإلا من حبس أو فتن ، ثم إن أمر الإسلام بعد هجرة المسلمين والتئام شملهم بإخوانهم ، وقد أخذ فى الانتشار والاستقرار . .

لقد ظلت تخشى الاسلام طوال ثلاث عشرة سنة فى مكة أن يتحول إلى قوة تهدد كيانها ، مع استضعافها لأتباعه ، وتضييق الخناق عليهم ، وتحديد إقامتهم وإرادتهم معا . .

فكم يكون فزع قريش ، وهى ترى المسلمين اليوم فى دار أمن وسلام ، لهم كيان مستقل وإرادة حرة ؟

إذن فعليها أن تقوم بجولة جريئة ، ومغامرة ، قد يكون لها ما بعدها . . لابد أن تفعل كل شىء ، وأن تمتطى كل وسيلة للحيلولة دون هجرة محمد — صلوات الله عليه — إما بالتخلص منه نهائيا ، وإما — على الأقل — باعتقاله فى سجن رهيب ، وتشديد الرقابة عليه ، حتى الموت . »

وقدرت قريش — إذا هى نجحت فى جولتها هذه — أنها ستفسد الخطة التى دبرها محمد لإقامة دولة إسلامية فتية فى يثرب ، تعمد إلى مناوشتها وتهديد مصالحها وتعويق تجارتها . .

ونسيت قريش — أو بمعنى أدق — تجاهلت عناية الله سبحانه ، عناية الله التى حفظت محمدا ودينه ، وعقيدته وأصحابه طوال ثلاثة عشر عاما ، وأن هذه العناية ستتكفل أيضا بحماية محمد حتى يهاجر من مكة ويلحق بأتباعه فى يثرب » .

لم يكن فزع قريش — لما صار إليه أمر الإسلام ـ هواجس نفس، أو خواطر تفكير ، أو إرهاصات قلب ، أوحتى ثرثرة لسان ، بل كان حقيقة مرة اعتملت فى نفوسها ، ونطقت بها ألسنتها ، وهى فى دار الندوة ترسم خططها ، وتنسج مؤامراتها لوضع حد لخطورة الدين ، بالتخلص من محمد ـ صلوات الله عليه .

قال زعماء قريش وهم فى دار الندوة يفكرون فى جد ، ويصرون فى حزم :

« إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم . . فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا . . »

قال البخترى بن هشام :

« أحبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابا، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله : زهيرا والنابغة ، ومن مضى منهم ، من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم . . »

ولم يلق هذا الرأى قبولا ، وعلة رفضه جاء على لسان قائل آخر :

« لا والله ، ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه — كما

تقولون — ليخرجن أمره من وراء البـاب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلا أوشكوا أن يثبوا عليكم ، فينتزعوه من أيديكم ، ثم يكاثروكم به ، يغلبوكم على أمركم ، ماهذا لـكم برأى ، فانظروا في غيره . . »

قال أبو الأسود ربيعة بن عامر :

« نخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فإذا أخرج عنا ، فو الله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا ، وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . . »

وما لقيه الرأى الأول من رفض ، لقيه هذا الرأى الثانى ، وعلة هذا الرفض جاء على لسان نفس القائل السابق :

« لا والله ما هذا لـكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليـكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد ، دبروا فيه رأيا غير هذا »

وتصدى أبو جهل للـكلام :

« والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد »

أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلدا نسيبا وسيطا «أى شريفا» فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالعقل - الدية - فعقلناه لهم . . »

ولقى هذا الرأى قبولا واستحسانا، وتفرق القوم، وهم مجمعون عليه، وتركوا الأعين ترصد محمدا - صلوات الله عليه - وتعد عليه حركاته وسكناته، بل وتحص عليه أنفاسه، وتجاهلوا أن عين الله ساهرة ترعى الرسول، وعنايته تدبر له أمرا آخر، وأذن الله له بالهجرة فى ليلة المؤامرة، وليكون لنجاته منهم صدى مريرا فى نفوسهم، ورنة أسى فى أعماقهم . .

وتمكن الرسول - صلوات الله عليه - من مغادرة مكة فى جوف الليل، وفى رفقته أبو بكر رضى الله عنه، وإمعانا فى السخرية بقريش وبزعمائها المتآمرين، وبمن انتدبتهم لحراسة محمد ورصد كل حركاته وسكناته، أخذ الرسول حفنة من تراب فى يده، وأخذ الله على أبصار القوم عنه، فلا يرونه فجعل ينثر ذلك التراب على وهو رءوسهم وهو يتلو : يس والقرآن

الحكيم : إلى قوله تعالى : «فأغشيناهم فهم لا يبصرون» : ولم يكد يفرغ من تلاوة هذه الآيات حتى لم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

وأتاهم آت لم يكن معهم، قال: «ما تنتظرون هاهنا؟ وأجابوا: ننتظر محمدا»، فقال: خيبكم الله، قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلا إلا وقد وضع على رأسه ترابا، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟

ووضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجيا ببرد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائما وعليه برده فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا. فقام على رضى الله عنه عن الفراش فقالوا والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا..»

وإمعانا فى تضليل قريش، وهذا التضليل لون من السخرية أيضا، لجأ الرفيقان إلى غار ثور بأسفل مكة، ولبثا فيه ثلاثة أيام، كان قد وصلاه ليلا، وأصر أبو بكر على أن يدخله أولا، لينظر ما فيه، وليقى رسول الله بنفسه، ومع أن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — كان واثقا من رعاية الله له، إلا أنه ألزم نفسه بخطط وقائية تفسد على القوم خططهم، فقد لجأ إلى الغار ليمكث فيه ثلاثا،

ولو أنه واصل المسير بعد مغادرته مكة لـكان فى استطاعة القوم أن يلحقوا به . وعبدالله بن أبى بكر يتسمع ما يقول الناس نهارا فى شأنهما ثم يأتيهما إذا أمسى بمـا يكون فى ذلك اليوم من الخبر ، وهذا يساعد على إفساد خطط القوم . . وقد كلف عبد الله بن أريقط أن يكون دليل الطريق إلى المدينة لقاء أجر . .

وبلغ الرفاق الأربعة يثرب ترعاهم عناية الله وتحوطهم سلامته : النبي وأبو بكر وعامر بن فهيرة مولاه ، الذى كان يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحهما عليهما ، يأتيهمـا إذا أمسى فى الغـار ، ثم عبد الله ابن أريقط دليل الطريق .

ونجحت أعظم مغامرة عرفها التاريخ .

وهذه وقفات لا بد منها :

● لقد أبقى الرسول — صلوات الله عليه — عليا كرم الله وجهه، بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس ، وكان عليه السلام ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لمـا يعلم من صدقه وأمانته . .

إن ظروف الرسول ليلة الهجرة كان يكتنفها الاضطراب ، كان يجب أن لا يشغله إلا أمر النجـاة من القوم المتآمرين عليه ،

وأن لا يتجه تفكيره إلا أمر النجاح لمغامرته ، لكن الرسول — الملقب بالأمين — ما كان لينسى أن يرد الأمانات إلى أهلها ، حتى ولو كان فى ظروف عصيبة تنسى الإنسان نفسه — فضلا عن غيره .

● ورسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يستأجر دليل الطريق ، رجلا مشركا هو عبد الله بن أريقط . .

قد يقال : كيف حدث هذا ؟ ألم يكن يفكر الرسول — صلوات الله عليه — فى أنه من الجائز والممكن أن يغدر به ، ويش به إلى طالبيه من قريش ، ولا سيما أن قريشا قد رصدت مائة بعير لمن يأتيهم بمحمد حيا أو ميتا ؟

مثل هذا الخاطر لابد أنه مر بذهنه عليه السلام ، لكن ماذا كان يفعل ، لو لم يوجد مسلم يستطيع أن يكون دليله إلى يثرب !

إن محمدا — صلوات الله وسلامه عليه — أراد أن يقرر مبدءا واقعيا ساميا ، فمصالح الناس فى حياتهم متشابكة .

والناس للناس من بدو وحاضرة .:. بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

كما يقول الشاعر العربى ، فيجب أن لا يقف الاختلاف فى الدين عائقا دون تحقيق مصلحة . .

ولا بد أن معنى آخر قد جال بخاطر الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فعبد الله بن أريقط — وإن كان مشركا لا يدين بالإسلام — إلا أنه عربي ، لا يجرده شركه من عروبته ، والعربي معروف بالوفاء ، ولا سيما إذا ارتبط بمهنته ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الرسول — صلوات الله عليه — قد منحه ثقته ، فإن ذلك يقوى فيه نزعة الوفاء . .

وكان رسول الله مصيبا كل الإصابة فى تقديره . .

● كان أبو بكر — رضى الله عنه — قد أعد راحلتين للهجرة ، وعند ما قدم إحداهما إلى رسول الله ليركب ، أبى أن يركب بعيرا ليس له ، ولم يركب إلا بعد أن عرف الثمن ليسدده إلى أبي بكر — رضى الله عنه . .

قد يقال : إنها مثالية مثيرة ، فقد سبق لأبى بكر أن أنفق كثيرا من ماله على الدعوة الإسلامية ، وواسى الرسول بنفسه وماله ، فقد ثبت فى صحيح البخارى ، أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم قال :

« إن الله بعثنى إليكم فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر : صدق ، وواسانى بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركو لى صاحبي !

إذن ، فلماذا تعفف رسول الله — صلوات الله عليه — عن مال أبي بكر فى ظرف حرج لا يحتمل المناقشة !

يجب أن نتأمل المسألة بفكر ثاقب ، فرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — كان يهدف إلى أن تكون هجرته إلى الله خالصة مائة فى المائة ، لأنه كان يعتبر الهجرة عبادة كالحج والزكاة ، يجب أن تكون من ماله الخاص ، وقد وافق أبو بكر بعد إلحاح ، بعد أن أدرك ما كان يدركه رسول الله .

● الصاحبان فى الغار معا ، يحيط بهما شىء من الترقب والرهبة ، ويحيط المطاردون بالغار ، يقفون أمام بابه ، يتشاورون فى اقتحامه لاعتقادهم أن طلبتهم لابد أن يكون فى هذا الغار — الرسول وأبا بكر — فقد انقطع الأثر عنده ، إذن فليس هناك احتمال آخر يمكن أن يعول عليه ، لكن لماذا انصرفوا دون أن يقتحموا الغار ! ألأنهم رأوا مثلا نسيج العنكبوت على باب الغار ؟ إن حرصهم على أن يظفروا بمحمد — عليه السلام — لا يسمح لهم بأن يصرفهم عن الغار نسيج عنكبوت ولا بيض حمام حديث ، وهم الذين نقبوا الأرض شبرا شبرا عن محمد وصاحبه ، ولم يكن يكلفهم اقتحام

الغار جهدا ولا مشقة ولا وقتا ، حتى يعودوا مطمئنين إلى ما بذلوه من جهد فى الظفر به إذا لم يجدوه فى الغار . .

إننا ننسى شيئا مهما ، بل بالغ الأهمية ، أجل إننا ننسى عناية الله بلا وسائل مادية ، عناية الله وحدها هى التى صرفت القوم عن اقتحام الغار ، عناية الله التى تجلت على محمد — حين بدا الروع على وجه أبى بكر وقد لمح أقدام القوم ، حتى اعتقد أن لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآهما — فقال له : يا أبا بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما !

« لا تحزن . . إن الله معنا »

● جعلت قريش فى محمد مائة ناقة لمن رده عليهم ، وبينما كان سراقة بن مالك جالسا فى نادى قومه إذ أقبل رجل يقول :

« والله لقد رأيت ركبا ثلاثة مروا على آنفا ، وإنى أراهم محمدا وأصحابه » فأومأ سراقة اليه أن يسكت ، أومأ اليه بعينه ، ثم قال : إنهم بنو فلان يبتغون ضالة لهم . .

وقام سراقة فدخل بيته وأمر بفرسه أن يقيد له إلى بطن الوادى ، وأمر بسلاحه فأخرج له من دبر حجرته ، ثم أخذ قداحه التى يستقسم بها ، ثم انطلق ، فلبس لأمته — درعه وسلاحه —

ثم أخرج قداحه فاستقسم بها .. ثم ركب فرسه فى إثره وأبى الا أن يتبعه ، وبينا فرسه يشتد به عثر به فسقط عنه ، وتكررت عثرات فرسه ، وتكرر سقوطه عنه ، لكنه أبى إلا أن يتبعه ، فلما بدا له القوم ورآه عثر به فرسه ، فغاصت يداه فى الأرض وسقط عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض ..

وعرف سراقة أنه قد منع منه ، فنادى القوم : أنا سراقة .. انظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ، ولا يأتيكم منى شىء تكرهونه ..

فأمر رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أبا بكر أن يجيبه : وما تبتغى منا !

قال : تكتب لى كتابا يكون آية بينى وبينك .. أى علامة أمن ..

فكتب له أبو بكر كتابا فى عظم أو فى غيره ، ثم ألقاه اليه وعاد من حيث أتى بعد أن طلبا منه أن يخفى عنهما ، وجعل لا يلقى أحدا من الطلبة إلا رده قائلا : « كفيتم هذا الوجه » .

حتى إذا كان فتح مكة ، وفرغ رسول الله — عليه السلام — من حنين والطائف ، خرج سراقة ومعه الكتاب ليلقاه ، فلقيه

بالجعرانة — بين الطائف ومكة وهى إلى مكة أقرب — فدخل فى كتيبة من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرعونه بالرماح صائحين فيه : « إليك . . إليك ، ماذا تريد ! » ثم دنا من رسول الله — صلوات الله عليه — وهو على ناقته ، ورفع يده بالكتاب ، ثم قال : « يا رسول الله هذا كتابك لى ، أنا سراقة . . » فقال الرسول : يوم وفاء وبر أدنه منى » فدنا فأسلم . .

أجل يوم وفاء وبر ، لم ينس رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه وعده بالأمان لسراقة ، وقد مضى على هذا الوعد ثمانية أعوام ، وقد وفى له قبل أن يسلم ، وما كان ليؤجله حتى فى أشد ساعات الزحمة ، لأن الوفاء لا يمكن أن يؤجل . .

* * *

سبق أن قلنا : إن الهجرة كانت معجزة كبرى ، وعرضنا فى الصفحات القليلة الماضية : كيف تمت هذه المعجزة الكبرى ! إنها عناية الله أولا ، والإيمان الصادق ، والعقيدة الراسخة ، والقيم العليا ، والمبادىء الرفيعة ، والفكر الثاقب ، والأفق الواسع ، والمرونة فى السلوك ، ثم الإرادة القوية ، وبقى أن نضم إلى هذه القيم العظيمة قيمة التضحية . .

فلا جدال فى أن الهجرة كانت عملا بطوليا ، وهذه البطولة مرتبطة بمنهج الهجرة والسلوك الذى اقترن بمسارها من مكة إلى المدينة ، وهذا العمل البطولى قد اتسم بالمغامرة ، التى سجلت أروع الصفحات للمهاجرين ، وارتبطت المغامرة نفسها بكثير من التضحيات . .

ولا جدال أيضا أن العقيدة القوية الراسخة هى التى دفعت إلى المغامرة ، ثم دفعت المغامرة نفسها بعد ذلك إلى التضحية ، والعمل البطولى لا ينحصر — وحسب — فى الإقدام والجرأة والمخاطرة ، واقتحام الصعاب ، والتغلب على العقبات ، وإنما يشمل كذلك الاستعداد للتضحية بأثمن شىء وأغلى قيمة باستثناء المبدأ والعقيدة . .

وفى الهجرة توافر للعمل البطولى كل القيم ، وفى مقدمتها التضحية والبذل والفداء ، تضحية وبذل وفداء ، تليق بعظمة الهجرة ذاتها ، كأعظم حدث عرفه التاريخ منذ بدأ التاريخ ، وسيظل أعظم حدث إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

قد تتفوق التضحيات المعنوية على التضحيات المادية ، وليس

ذلك قياسا مطردا ولا قاعدة مستقرة ، لأن الناس ليسوا جميعا على مستوى واحد من إدراك الأمور وتقييمها .

أحيانا يضحى الإنسان بمكانته الأدبية ، وربما سمعته وكرامته مثلا ، دون أن يكون مستعدا للتضحية بشىء مادى ، حتى لاستعادة مكانته ، وإنقاذ سمعته ، ورد اعتباره . .

ومثل هذا الإنسان ينظر إلى الأشياء بمنظار مادى قاتم ، يحجب الرؤية عن كل ماهو ليس بمادى ، ويزن الأمور بميزان مادى بحت مثل هذا الإنسان تستوى لديه القيم أعلاها وأدناها ، أعظمها وأحقرها ، فالقيمة الكبرى عنده المادة ولا قيمة فى غيرها ، حتى وجوده أحيانا ، يستوى عنده أن يكون وأن لا يكون .

وأحيانا أخرى ، نرى إنسانا آخر يضحى بأثمن شىء لقاء حفاظه على مكانته ، وإنقاذ سمعته . أما حين ترجى التضحية لإثبات وجود لم يكن معترفا به ، أو لرد اعتبار لم يكن إلا عدما ، أو لاسترداد حرية لم تكن إلا مسلوبة ، أو لإطلاق إرادة لم تكن إلا مغلولة ، فإن هذه التضحية تتجاوز حدود الماديات إلى التضحية بالنفس . .

وقد اشتملت الهجرة على اللونين من التضحيات : المعنوية والمادية معا ، التضحية بالوطن . . والتضحية بالمال . . والتضحية بالأهل التى هى مزيج من اللونين .

وإذا كان البعض من الفلاسفة يقول : ليس شىء أقسى على النفس من أن يهجر الإنسان وطنه وهو كاره له » فإن ما هو أقسى على النفس من ذلك ، أن يكره الإنسان على أن يهجر وطنه وهو أحب شىء لديه .

ولقد نشأت الدعوة الاسلامية أول ما نشأت فوق أرض مكة ، واستجاب لها أول من استجاب رجال و نساء من أهل مكة ، ولقوا ما لقوا من صنوف الأذى وأهوال العذاب ، وألوان الإضطهاد ، وأساليب الإرهاب ، فوق أرض مكة ، وبسياط السادة من أهل مكة ، وعجز كل أولئك عن النيل من عقيدتهم ، أو دفعهم على التخلى عن إيمانهم ، كما عجز كل أولئك عن النيل من حبهم لوطنهم أرضا وسماء ونباتا . . وطنهم الذى امتزج حبه بمشاعرهم وأحاسيسهم ووجداناتهم .

لـكن حين تتعارض الاقامة فى الوطن مع مصلحة العقيدة ، فإن

بهم الأذى مبلغه ، وهو لا يستطيع أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، وربما كان من تطمين النفوس وتطييب الخواطر أن قال:

- صلوات الله وسلامه عليه - لهم :

« فإن بها - أى أرض الحبشة - ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه »

فلم تكن المشكلة التى تعانيها نفوسهم تتعلق بالأرض الجديدة ولا بمكانها ، وإنما كانت مشكلة مرتبطة بهجرة الوطن الذى نشأوا فوق أرضه . وأظلتهم سماؤه ، وأروتهم مياهه وغذتهم خيراته . .

وكان حريا برسول الله - صلوات وسلامه عليه - وهو القائد الملهم ، والرائد الراشد ، أن يبعث الأمل فى نفوسهم ، ويفسح للرجاء مكانا فى وجداناتهم ، فيوحى إليهم ، بأن هذه الهجرة مؤقتة وأن الأمل فى الله كبير ، أن يردهم إلى أوطانهم ، ويقول لهم :

« حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه . . »

لذلك فلم تكد إشاعة عن إسلام أهل مكة تبلغ المهاجرين المسلمين بالحبشة حتى عادوا إلى مكة ، حتى إذا دنوا منها ، تأكد لديهم أن ما كان قد تحدث به من إسلام أهل مكة لم يكن صحيحا ، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار أو مستخفيا . .

إنه الحنين إلى الوطن . . والتشبث بالوطن . . !

إن رجلا كأبى بكر الصديق ـ رضى عنه عزم ذات يوم على الهجرة إلى الحبشة وأعد لكل شيء عدته ، وذلك حين ضاقت عليه مكة ، وأصابه فيها الأذى ، ورأى من تظاهر قريش على رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وأصحابه مارأى ، استأذن الرسول فى الهجرة فأذن له ، وكلاهما تفيض نفسه أسى ، فما كانت التضحية بالوطن مما تحتمله النفس ، لكن ماذا يفعل أبو بكر ، والحياة فى وطنه مكة لا تطاق ؟

وإنك لتحس بالأسى الذى كان يمتزج بأحاسيس أبى بكر ، من الحديث الذى دار بينه وبين ابن الدغنة فى الطريق وقد سار أبو بكر من مكة يوما ـ أو يومين ـ قال له ابن الدغنة :

« أين يا أبا بكر ؟

فأجابه أبو بكر : أخرجنى قومى . . وآذونى وضيقوا على . .

أجل ، أخرجه قومه ، أول عبارة نطق بها ، فلم يكن خروجه من وطنه عن رضا منه أو طيب خاطر ، وحز ذلك فى نفس ابن الدغنة إذ كيف يجبر مواطن صالح كأبى بكر على ترك وطنه ؟

وفى الحقيقة أن ابن الدغنة لم يكن يشفق على أبى بكر إشفاقه على بلده ، بلده الذى ستتعرض سمعته للاهتزاز ، فالسبة لاتلحق المهاجر الذى اضطر إلى التضحية بوطنه وكله أسى ، من أجل العقيدة والمبدأ ، وإنما تلحق البلد الذى اضطره للهجرة ، لذلك دهش ابن الدغنة، وتساءل وأجاب فى نفس الوقت ، قال : . . ولم ؟ فوالله إنك لتزين العشيرة ، وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم ، ارجع . فأنت فى جوارى . . .

ورجع أبو بكر ، وقام ابن الدغنة فقال :

« يا معشر قريش ، انى قد أجرت ابن أبى قحافة ، فلا يعرض له أحد الا بخير . . »

قبل أبو بكر الجوار على رغم منه ، كان — رضى الله عنه — كالمضطر الذى يركب الصعب .. من أجل الوطن . . لاجدال فى أن بأبى بكر رغبة فى البقاء إلى جانب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — لكن هذه الرغبة لا تتعارض على الاطلاق والحنين إلى الوطن . .

والذين هاجروا إلى الحبشة فى السنة الخامسة من النبوة ، برغم أنهم لم يهاجروا من وطنهم إليها إلا مكرهين . إلا أن إحساسهم

بالأسى لإكراههم على ترك وطنهم لم يفتر أبدا ، حتى وهم مستقرون فى مهجرهم آمنون .

إن عبد الله بن الحارث — وهو من بنى سهم — كان شاعرا وممن هاجروا إلى الحبشة ، فحين أمن المسلمون هناك ، وأمنوا جوار النجاشى ، وعبدوا الله لا يخافون فى ذلك أحدا ، كتب شعرا يدعو المضطهدين فى مكة من عباد الله إلى الهجرة ، وأن لا يقيموا على ذل الحياة :

يا راكبا بلغن عنى مغلغلة ... من كان يرجو بلاغ الله والدين
كل امرىء من عباد الله مضطهد ... ببطن مكة مقهور ومفتون
أنا وجدنا بلاد الله واسعة ... تنجى من الذل والمخزاة والهون
فلا تقيموا على ذل الحياة وخز ... ى فى الممات وعيب غير مأمون

مثل هذا الشاعر ، عاد فكتب شعرا آخر يذكر نفى قريش إياهم من بلادهم ويعتب على بعض بنى قومه ، ومن قصيدته بيت يصور الحالة النفسية التى كان عليها المهاجرون أدق تصوير :

نفتهم عباد الجن من حر أرضهم
فأضحوا على أمر شديد البلابل

والبلابل هى وساوس الأحزان .

وهذا عثمان بن مظعون يعاتب ابن عمه « أمية بن خلف » الذى كان يؤذيه فى إسلامه والذى أخرجه من بطن مكة ، وألجأه إلى أرض ما كان له أن يلجأ إليها ، لولا اضطراره إلى ذلك ، فى بيت من قصيدته بدا الأسي الذى يحز فى نفسه بسبب هجرته أرض وطنه :

أأخرجتنى من بطن مكة آمنـا

وأسكنتنى فى صرح بيضاء تقذع

كان حبهم لوطنهم يجرى فى دمائهم ، وسبق أن أشرت إلى أن التضحية بالإقامة فى الوطن من أجل العقيدة والمبدأ لا يتعارض على الإطلاق مع حب الوطن والتفانى فيه ، كذلك الهجرة من الوطن من أجل السعى على الرزق عن رضا ليست دليلا أبدا على الزهد فى الوطن ، والذين هاجروا إلى الحبشة ، إنمـا هاجروا حين لم يكن هناك حل لمشكلتهم أو مأساتهم إلا حلا واحدا هو الهجرة من الوطن . .

ولك أن تتصور قسوة هذا الاضطرار ، وهؤلاء يغادرون مكة

بين ماشى وراكب حتى انتهوا إلى البحر ، ثم استأجروا سفينة إلى الحبشة ، أى أن الجميع لم يكن يملك ما يمتطيه من مكة إلى شاطىء البحر ، وهى مسافة ليست بالقصيرة ، ومعهم أطفال ونساء .

يقول أنس بن مالك رضى الله عنه :

خرج عثمان بن عفان ومعه امرأته — رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم — إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خبرهما ، فقدمت امرأة من قريش ، فقالت :

« يا محمد قد رأيت ختنك — أى صهرك — ومعه امرأته »

قال : على أى حال رأيتهما ؟

قالت : رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة الضعيفة التى تدب فى المشى — يسوقها »

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

« صحبهما الله : إن عثمان أول من هاجر بأهله .. بعد لوط عليه السلام »

والرسول نفسه — صلوات الله وسلامه عليه — ألم يبد على

وجهه النزع فى بداية الوحى ، حين أخبره ورقة بن نوفل أن قومه سيخرجونه من مكة ؟

عندما أخذته السيدة خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وقص عليه ما رأى . قال :

سبوح . . سبوح . . هذا الناموس الذى أنزل على موسى .

يا ليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك . . »

فعندها قال رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — : أو مخرجى هم ؟

استفهام استنكارى ، قال السهيلى :

« وإنما قال ذلك ، لأن فراق الوطن شديد على النفوس . . !

وأجابه ورقة بن نوفل :

« نعم ، إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودى . . !

لا بد أن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — قد عادت به الذاكرة إلى الماضى ، إلى ثلاث عشرة سنة مضت وتذكر كلمات ورقة بن نوفل ، فامتزجت أحاسيسه بالأسى لفراق الوطن ، وهو يلقى النظرة الأخيرة على مكة التى أخرجته ، وانطلق لسانه بما اعتمل فى أعماقه يخاطب مكة :

« والله : إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى . . .

ولولا أن قومك أخرجونى منك . . ما خرجت . . ! »

قال ابن اسحق :

« بلغنى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما خرج من مكة مهاجرا إلى الله يريد المدينة ، قال :

« الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا . . اللهم أعنى على هول الدنيا ، وبوائق الدهر . . ومصائب الليالى والأيام . . اللهم اصحبنى فى سفرى . . واخلفنى فى أهلى . . وبارك لى فيما رزقتنى ، ولك فذللنى ، وعلى صالح خلقى فقومنى ، وإليك رب فحببنى ، وإلى الناس فلا تكلنى . . »

كلمات تكشف عما فى نفس الرسول — صلوات الله عليه — من أسى ، فليس أشق على النفس من أن يجبر المرء على ترك وطنه الذى رافق طفولته وشبابه وكهولته . . وهو أحب شىء لديه . . !

* * *

لقد ضحى المهاجرون كلهم بهذه التضحية العظيمة من أجل الوطن . . لا من أجل دنيا يصيبونها ، ولا من أجل جاه يطلبونه ، ولا من أجل سلطان تهفو نفوسهم إليه ، وإنما من أجل العقيدة والمبدأ والمثل ،

لذلك كانت التضحية مما يحسب له حساب فى تاريخ التضحيات ، ويحجز له أوسع الصفحات بين دفتى التاريخ المشرق الوضاء . .

والمهاجرون لم تقف تضحياتهم عند التضحية بالوطن ، وكلهم سواء فى هذه التضحية ، فلم يكونوا يملكون بديلا من هذه التضحية الكبرى ، بل تجاوزت التضحية إلى الماديات محك النفوس ، ومقياس الإيمان بالمبدأ والعقيدة والمثل ، كما تجاوزت تضحيات المهاجرين بالوطن والمال إلى التضحية بالأهل والولد . .

والتضحية بالأهل والولد تأتى فى المرحلة التالية بعد الوطن ، وما أقسى على النفس أن يفرق بين الرجل وبين من يحب ، فإذا كان من يحب الأهل والولد ، فإن القسوة تزداد أضعافا . .

إن الحزن والأسى يكادان ينطقان على وجه طائر من الطيور ، وإن يبعث ذلك على الدهشة ، إذا كان هذا الطائر قد أبعد عن زوجه وأولاده ، لأنها فطرة الله التى فطر الناس والحيوان عليها . .

فقد أودع الله فى الإنسان كما أودع فى الحيوان العاطفة نحو الرحم ، ولا سيما لأقرب رحما ، الزوج والولد ، لذلك كانت التضحية بالأهل والولد من القسوة على النفس بمكان . .

والمهاجرون الذين ضحوا بالأهل والولد من أجل العقيدة والمبدأ

ضربوا المثل الأعلى فى البطولة ، لكن تضحياتهم لم تكن عن رضا أو تفريط ، وإنما أكرهوا على ذلك إكراها ، واضطروا اضطرارا ، ولم يكن من التضحية مفر ، ولا بديل عنها إلا التضحية بالعقيدة والمبدأ ، وهذا مما لا يخطر على بال الجيل الأول للدعوة الإسلامية ..

قد يضحى إنسان بالأهل والولد عن رضا منه ، لكن إذا بحثت عن داخل نفسه ، وجدت طاقة من الأسى كامنة فى أعماقه ، مستقرة فى وجدانه ، لكن كبرياءه تحول دون أن تطفو هذه الطاقة من الأسى على السطح . .

أما حين يضحى إنسان بالأهل والولد على رغم منه ، ولا حيلة له فى ذلك ، فإن أكبر طاقة من الأسى تعتمل فى نفسه ، وتطفو على السطح ، فتنطق بها ملامح وجهه ، وأنات صدره ، ونبضات قلبه ، وهمسات روحه .

وقد عرف تاريخ الرعيل الأول للدعوة الإسلامية نماذج على أرفع مستوى ، أضافت فى مرحلة الهجرة ، إلى التضحية بالوطن أغلى شىء فى الحياة ، تضحيات أخرى بالأهل والولد والمال . .

كان أبو سلمة أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وكانت هجرته اليها قبل بيعة العقبة

بسنة ، كان من الذين عادوا من الحبشة ، وقد دخل مكة بجوار من خاله أبى طالب ، فأمه برة بنت عبد المطلب ، ولما اشتد أذى قريش به عزم على الرجوع إلى الحبشة ، ثم بلغه أن لهم بالمدينة إخوانا فعزم اليها .

يروى ابن اسحق عن أم سلمة :

قالت : لما أجمع أبو سلمة الخروج الى المدينة ، رحّل لى بعيره ثم حملنى عليه ، وجعل معى ابنى سلمة فى حجرى ، ثم خرج يقود بى بعيرى . .

فلما رأته رجال بنى المغيرة قاموا اليه فقالوا :

« هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد ! .

قالت : فنزعوا خطام البعير من يده وأخذونى منه .

قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة ، وقالوا :

« والله لا نترك ابننا عندها اذ نزعتموها من صاحبنا . . »

قالت : فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده . . وانطلق

به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة الى المدينة . .

قالت : ففرق بيني وبين ابني وبين زوجي . .

قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي ، سنة أو قريبا منها . . حتى مر بي رجل من بني عمر — أحد بني المغيرة — فرأى ما بي فرحمني ، فقال لبني المغيرة :

« ألا تخرجون من هذه المسكينة ! فرقتم بينها وبين زوجها وولدها ؟ !

قالت : فقالوا لي : الحقي بزوجك — إن شئت . .

قالت : فرد بنو عبد الأسد إلي عند ذلك ابني ، فارتحلت بعيري ، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحد من خلق الله ، حتى إذا كنت بالتنعيم — موضع على فرسخين من مكة — لقيت عثمن بن طلحة ، أخا بني عبد الدار ، فقال :

« إلى أين يا ابنة أبي أمية !

قلت : أريد زوجي بالمدينة .

قال : أو ما معك أحد !

قلت : ما معى أحد إلا الله وبنى هذا .

قال : والله مالك من مترك . .

فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوى بى ، فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ، ثم استأخر عنى ، حتى إذا نزلت ، استأخر ببعيرى فحط عنه ، ثم قيده فى الشجر ، ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح ، قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ، ثم استأخر عنى وقال : اركبى . . فإذا ركبت فاستويت على بعيرى ، أتى فأخذ بخطامه فقادنى حتى ينزل بى . .

فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء قال :

« زوجك فى هذه القرية — وكان أبو سلمة بها نازلا — فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعا إلى مكة . . »

فكانت أم سلمة تقول :

« ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة . . . وما رأيت صاحبا قط . . كان أكرم من عثمان بن طلحة . . »

هذه قصة هجرة أحد أصحاب رسول الله — صلوات الله وسلامه

عليه — أردت أن أضعها كاملة أمام القارئ ، ليدرك كم كانت تضحية أبي سلمة ، وكم تحمل آل أبي سلمة من المتاعب النفسية ، رجل يفرق بينه وبين زوجه وبين ولده ، وزوج مسلمة يفرق بينها وبين زوجها ووليدها ثم طفل برىء يفرق بينه وبين أبيه وأمه ، والقصة بدون أدنى تعليق تنطق بما عاناه آل بنى سلمة ، وحسبنا ما قالته أم سلمة :

« ما أعلم أهل بيت فى الإسلام ، أصابهم ما أصاب آل بنى سلمة .. !

وإن كان لابد من لحظات تأمل هنا ..

فأم سلمة — رضى الله عنها — وهى تروى القصة ، لم يفتها أن تشيد بأنبل موقف لعثمان بن طلحة ، إنه موقف ينم عن مروءة وشهامة ونبل ورجولة . . .

ووجه العظمة فى موقف عثمان بن طلحة ، أنه لم يكن مسلما ، بل كان كافرا ، ولئن كان عثمان بن طلحة كافرا ، إلا أن كفره لم يجرده من عروبته ، ومن ابرز صفات العروبة : النبل والشهامة والمروءة والرجولة . .

كذلك ، لئن كان كفر عثمان بن طلحة لم يحل دون أن يكون رجلا نبيلا شهما ذا مروءة ، فيجب أيضا أن لا يحول كفره دون أن يعترف له بالفضل ، وأن يقر له بالوفاء . .

يجب أن نضيف إلى ذلك ، أن سلوك عثمان بن طلحة دل عن اصالة فى جوهره ، ولقد أسلم متأخرا بعد الحديبية ، لكن سلوكه مع أم سلمة أوحى باستعداد نفسى للإسلام ، وربما كانت تضحيات أبى سلمة ، وزوجه أم سلمة من أجل العقيدة والمبدأ ، جعله يفكر كثيرا فى الإسلام ، هذا الذى صاغ اتباعه فى بواتق من البطولة التى لن يسمح التاريخ بمثيل لها . .

وربما كان تأخر إسلامه راجعا لظروف كانت أقوى منه ، وإن لم يمنع هذا التأخر من ان يكون ذا قلب كبير . .

لقد أسلم — كما قلنا — بعد الحديبية فى العام السادس الهجرى ، وهاجر مع خالد بن الوليد إلى المدينة ، وفى غزوة أحد قتل — على الشرك — أبوه وإخوته ، ويوم فتح مكة دفع إليه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وإلى ابن عمه شيبة مفاتيح الكعبة ، أقرها عليهم فى الإسلام كما كانت فى الجاهلية . .

أما عثمان بن طلحة الذى أسلم وحسن إسلامه ، فقد ظل مجاهدا حتى استشهد فى موقعة أجنادين ، فى عهد عمر بن الخطاب — رضى الله عنه .

* * *

وهذا نموذج آخر ، ولكن التضحية هنا كانت بالمال ، والمال عصب الحياة ، والمال محك الإيمان ، ومقياس لمدى ارتباط الإنسان بعقيدته ، وإذا كان تعارض الوطن والعقيدة يفرض على المسلم الصادق الإيمان أن يضمن ببقائه بين أهله وفى وطنه من أجل العقيدة ، وإن لا يضحى بالعقيدة من أجل الوطن ، فمن باب أولى المال ، المال الذى يمكن تعويضه ، لأنه — كما هو عرضة للبقاء ، كذلك فهو عرضة للزوال . .

إن صهيب بن سنان سابق الروم — كما سماه الرسول عليه السلام — كان فتى روميا ، من السابقين فى الإسلام ، أسلم وعمار فى يوم واحد ، وكان مولى لعبد الله بن جدعان .

عندما أراد الهجرة ، تعرض له كفار قريش :

« أتيتنا صعلوكا حقيرا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ، والله لا يكون ذلك . . »

فقال لهم صهيب :

« أرأيتم إن جعلت لكم مالى ، أتخلون سبيلى !

قالوا : نعم . .

قال : فإنى جعلت لكم مالى . . . .

وبلغ ذلك رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال :

« ربح صهيب .. ربح صهيب » .

أجل ربح صهيب ، لقد ابتاع من قريش نفسه وعقيدته ، ومهما كان الثمن باهظا ، فقد كان صهيب — رضى الله عنه — الرابح ولا جدال ..

لم يتردد صهيب فى أن يتنازل عن جميع أمواله ، ما دامت أمواله ستكون عائقا له عن الهجرة ، والهجرة لم تكن إلا تجربة للمسلمين ، وامتحانا لعزائمهم ، ليتبين من صقلتهم المحنة ، وصقلت إيمانهم خلال ثلاثة عشر عاما ، ممن لا يزال فى قلبه فراغ ، وفى إيمانه رخاوة ، وفى عزيمته خور ..

وصهيب رضى الله عنه ، كان بعقيدته الراسخة — وهو من احتمل فى مكة من العذاب أقساه — أكبر من أن يكون فى قلبه فراغ ، أو فى إيمانه رخاوة ، أو فى عزيمته خور ..

* * *

وهذا نموذج رابع من التضحيات التى بذلت فى ظلال الهجرة ، إنها ليست تضحية بالوطن ، لأن المهاجرين جميعا فى هذه التضحية

سواء ، وليست تضحية بالمال أو الأهل ، لأن المجال لم يكن فى حاجة إلى التضحية بالمال أو الأهل . .

إنها تضحية لم يكن فيها بذل شىء ، وإنما كان فيها استعداد لبذل ما هو أعز لدى الإنسان من المال والأهل ، إنها تضحية تتطلب من الإنسان أن يكون مستعدا لبذل نفسه فى سبيل تحقيق غاية من أنبل الغايات . .

وقد يقال : إن هذا اللون من التضحية عايش الدعوة الإسلامية منذ نشأتها فى مكة ، ألم يكن كل من الرعيل الأول للدعوة فدائيا ، وهو يتعرض فى كل لحظة للموت ! ألا يدل هذا على استعداده للتضحية بنفسه من أجل العقيدة والمبدأ !

ألم يكن كل مسلم طوال المعارك الإسلامية فى عهد الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وطوال الفتوحات الإسلامية فى عهد الخلافة الراشدة ، وعلى فترات متقاطعة على مسار تاريخ الإسلام النضالى — ألم يكن كل مسلم فى هذه الأحوال فدائيا مستعدا لأن يبذل نفسه ودمه فى سبيل العقيدة !

هذا حق ولا جدال فى ذلك . . ولكن هذا اللون من التضحية — وهو لون من الفدائية الفذة — يعتبر مثيرا ، لأن الظروف التى

أحاطت به هى التى جعلت منه لونا مثيرا من ألوان البطولة المغامرة والدائية . .

ولا يظن ظان أن قريشا قد هدأت نفوسها بعد هجرة المستضعفين فى الأرض وفرارهم بعقيدتهم ، بل لقد كانت تتميز غيظا ، وتتفاعل حقدا ، ولقد ازدادت حاقة الغيظ والحقد بعد هجرة الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — فى صدورها ، وقد أحست بالخطر الذى يحدق بكيانها بعد أن التأم شمل المستضعفين فى يثرب ، كما أحست بانهزامها أمام فئة مستضعفة ، كانت بالأمس مستعبدة لديها ، وهدفا لكل أساليبها من الإرهاب والبطش والاضطهاد ، حيث تمكنت هذه الفئة المستضعفة من أن تكون بعد الهجرة خطرا ينتظر له أن يهدد مصالحها . .

فأى مهاجر يفكر فى أن يعود الى مكة بعد أن نجاه الله منها ، وقد أصبحت تموج بسادتها غيظا وحقدا على المهاجرين ، يجب أن يعمل ألف حساب وحساب لصناديد قريش ، فلئن وقع فى أيديهم ليفعلن به الأفاعيل ، وليبتكرن له أساليب جديدة مصوغة فى بواتق من التشفى والانتقام . .

هذا إذا كان المهاجر يفكر فى العودة إلى مكة مسلما ، من أجل مصالح مادية أو عائلية . .

أما إذا كان هذا المهاجر يفكر فى العودة إلى مكة متحديا . .

أما إذا كان هذا المهاجر يفكر فى العودة إلى مكه ليخلص أخوين مسلمين ظفرت بهما قريش عند هجرتهما ، وحالت بينهما وبين الهجرة ، بل استطاعت أن تعيد أحدهما — وهو عياش بن أبى ربيعة — إلى مكه بعد أن وصل أطراف المدينة ، بحيلة أقل ما توصف به هو الخداع ، فإن هذا المهاجر حين يفكر فى ذلك . . فلا يكفى أن يعمل ألف حساب وحساب لقريش ، بل عليه قبل أن يبدأ رحلته الفدائية قبل أن يخرج من بيته بيثرب أن يضع روحه فوق كفه ، ويحتسبها عند الله وحده . .

كان هشام بن العاصى بن وائل السهمى ممن هاجر إلى الحبشة وعاد إلى مكه ، وعندما حاول الهجرة إلى يثرب حبس بمكه ، وكان عياش بن أبى ربيعة قد تمكن من الهجرة إلا أن أخويه قد أعاداه إلى مكه وحبس ، وهو ممن هاجر إلى الحبشة مع زوجه أسماء بنت سلمة وعاد مع من عاد . .

ولنترك لابن اسحق يقص علينا قصتهما . قال ابن اسحق على لسان عمر بن الخطاب بتصرف .

« اتعدت ، لما أردنا الهجرة إلى المدينة ، أنا وعياش ابن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل السهمي ، وقلنا :

أينا لم يصبح عند أضاة بني غفار ـ على عشرة أميال من مكة ـ فقد حبس ، فليمض صاحباه . .

قال . فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة حيث اتفقنا ، وحبس عنا هشام وفتن فافتتن .

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل بن هشام ، والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة ، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما ، حتى قدما علينا المدينة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بمكة ، فكلماه وقالا : إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك ، ولا تستظل من شمس حتى تراك ، فرق لها .

فقلت له : ياعياش ، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لا متشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت .

فقال عياش : أبر قسم امى ، ولى هناك مال فآخذه .

فقلت : والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قريش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما . . .

فأبى على إلا أن يخرج معهما . . فلما أبى إلا ذلك ، قلت : أما إذ قد فعلت ما فعلت ، فخذ ناقتى هذه ، فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها ، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها .

فخرج عليهما معهما ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل : « يا ابن أخى ، والله لقد استغلظت بعيرى هذا ، أفلا تعقبنى على ناقتك هذه ؟

قال عياش : بلى . .

فأناخ ، وأناخا ليتحول عليها ، فلما استووا بالأرض عدوا عليه ، فأوثقاه وربطاه ، ثم دخلا به مكة وفتناه ، فافتتن . »

قال ابن اسحق :

إنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهارا موثقا ، ثم قالا : « ياأهل مكة . هكذا فافعلوا بسفهائكم ، كما فعلنا بسفيهنا هذا »

ويواصل ابن اسحق روايته عن نافع عن ابن عمر عن عمر — رضى الله عنهم ، قال عمر :

« كنا نقول : ما الله بقابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة — الصرف . الحيلة ، والعدل ، الفدية — قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم »

قال عمر : وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم . . »

فلما قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم ـ المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفى قولنا :

« قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون . » .

قال عمر بن الخطاب : فكتبتها بيدى فى صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاص . . »

وللقارئ أن يتأمل معنا طويلا :

إن عياش بن أبى ربيعة من السابقين إلى الإسلام ، ومن أصحاب الهجرة إلى الحبشة ، وقد وفقه الله وأعانه حتى تمكن من الهجرة إلى يثرب ، وفى صحبة مؤمن قوى الإيمان ـ كعمر بن الخطاب ـ والسؤال الآن :

لماذا قبل عياش العودة إلى مكة ، وهو على الأقل يجب أن يتوقع الفتنة ، ولا سيما أن عمر قد حذره ؟

لا جدال فى أن عياش بن أبى ربيعة مر بتجربة عنيفة ، وجد نفسه بين عاملين كلاهما يشده إليه : عامل العقيدة وعامل البر بأمه، ولا نستطيع أن نؤكد على الإطلاق أن مسلما من السابقين الأولين كعياش يؤثر صلة رحمة على عقيدته . .

أغلب الظن أن عياش بن أبى ربيعة كان فى محنته النفسية مجتهداً فأخطأ ، لم يكن يتوقع فى مكة وهو من هو حسبا و نسبا وجاها ، وقد هاجر الى الحبشة ثم إلى يثرب دون أن يتعرض له أحد ، بالإضافة إلى أنه أخ لأبى جهل من جهة الأم ، وأبو جهل ليس فى حاجة إلى التعريف بموقفه من الدعوة الإسلامية ذلك الموقف الذى اتسم بالعدوان والعداوة حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة حين قتل ببدر . .

إذن فلا ضرر فى أن يشده عامل البر بأمه إلى أن يعود ، ربما وفق إلى هدايتها للإسلام و إلى هجرتها معه مسلمة . .

أما حديثه عما له من مال فى مكة ، وهو يطمع فى أن يعود به إلى يثرب . فأغلب الظن أنه ذكر المال كمبرر ثانوى لإرضاء عمر الذى كان معارضا بعنف فى عودته مع الوافدين من مكة من ناحية ،

ومن ناحية أخرى لقوية عامل البر بأمه فى نفسه ولنا أن نقف وقفة تأمل مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

إن عمر - رضى الله عنه - كان حريصا على إيمان أخيه ، خشى عليه الفتنة ، حاول أن يقنع عياش بن أبى ربيعة بالمنطق السليم ، ولم يترك له فرصة لتبرير ما اعتزم عليه ، وعندما ذكر عياش أمواله بمكة ، تصدى لهذا المبرر وأبدى استعداده للتضحية لعياش بنصف ماله وهو ذو مال كثير . .

واستعداد عمر — رضى الله عنه — للتضحية بنصف ماله ، يقدم صورة أخرى من صور التضحيات ، فالإنسان يضحى بماله من أجل عقيدته ، أما أن يضحى بماله من أجل عقيدة الآخرين — وهى عقيدته أيضا — فإن عمر يقدم لنا مفهوما جديدا للعقيدة نفسها ، العقيدة ، التى ترتبط أتباعها برباط وثيق من التضحية والإيثار . .

ليس هذا وحسب ، بل إن عمر - رضى الله عنه - لما لم يؤت منطقه السليم بالنتيجة المرجوة ، وهى إقناع عياش بعدم العودة ، بدا إشفاقه على أخيه فى الإسلام ، قدم ناقته النجيبة الذلول إليه ، لتعينه على النجاة إذا بدا فى أعين صاحبيه ورفيقيه الغدر ، ثم ذوده بنصيحته ليأخذ حذره . .

إن عمر ـ رضى الله عنه ـ يقدم لنا صورة مشرقة من الحب فى الله ، ولا معنى للأخوة فى الله إلا إذا قامت على الحب فى الله ، وأن يتحول هذا الحب فى أى موقف إلى سلوك وعمل ، ولم يتوقف إلى سلوك وعمل ، ولم يتوقف حب عمر لأخيه عياش بن أبى ربيعة ، حتى بعد أن علم أنه قد افتتن ، وما بدأ فى كلماته من قسوة حين قال :

« ما الله بقابل ممن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم . . »

ما بدا من قسوة فى كلمات عمر هذه لم تكن مصدر هذه القسوة بغضا لعياش ، ولا حقدا عليه ، وإنما مصدرها الحب الكامن فى أعماقه لعياش ، والإشفاق المتسم بالأسى عليه .

لذلك لم يكن ينزل القرآن يفتح باب التوبة والأمل لمن أسرفوا على أنفسهم — ومنهم أخوه فى العقيدة عياش — حتى بادر فكتب الآيات بيده ، ثم بعث بها إلى عياش بمكة ليتوج حبه وإخلاصه ووفاءه له . .

والقصة لم تنته بعد . . .

يقول ابن هشام . . فحدثنى من أثق به :

« أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم قال وهو بالمدينة :

« من لى بعياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاص ؟

لا شك فى أن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — كانت نفسه تفيض أسى من أجل عياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاص، فهما فى محنة ، حبسا عن دينهما بمكة ، فهو يعلم تماما أية أزمة نفسية يمر بها صاحباه ، وكرائد للدعوة لابد أن يحس بإحساسهما ، ويشعر بشعورهما ، ويتألم لآلامهما . .

وفوق هذا كله ، لابد أن يفكر فى وسيلة لتخليصهما من حبسهما وفى نفس الوقت — لتخليصهما من آلامها ، لكن المسألة فى حاجة ماسة إلى السرعة ، حتى لا يطيب مقامهما بمكة ، ربما تعرضا للفتنة ، لذلك تذكرهما بمجرد وصوله إلى يثرب . .

إنها مهمة شاقة مضنية ، مهمة تخليصهما من حبسهما ، تحتاج إلى ، فدائية فذة ، وأحس بذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولذا جاءت رغبته الملحة فى صيغة سؤال ينتظر الإجابة ، حتى لا يتحرج أحد من أصحابه .

كان فى استطاعته — صلوات الله وسلامه عليه — أن يأمر بمن يأتيه بعياش بن أبى ربيعة وهشام بن العاص ، فيطاع ، ومهما

كانت المهمة شاقة ، فإن رأى الرسول حين يتحول إلى صيغة الأمر ، فلا بد من الاستجابة ، لكن الرسول — عليه السلام — كان يعلم حال أصحابه ، لم يكن يستقر بهم القرار فى المدينة ، بعد رحلة شاقة مضنية ، رحلة كلفتهم الكثير من جهدهم وأعصابهم ، إنها رحلة الهجرة ، وتكليفهم بمهمة أخرى شاقة مضنية لا تحتاج إلى قوة بدن وحسب ، بل إلى فكر ثاقب ، وأعصاب من فولاذ ، ولهذا حول رغبته التى تجيش بنفسه إلى صيغة سؤال :

« من لى بعياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاص ؟

ولم يكد ينتهى — صلوات الله وسلامه عليه — من إلقاء سؤاله ، حتى تلقفه الوليد بن المغيرة : أنا لك يارسول الله بهما »

والوليد بن المغيرة أحدث إسلامه اهتزازا فى قريش ، فقد مشى رجال من بنى مخزوم إلى أخيه هشام بن الوليد ، وطلبوا تسليمه إليهم ، لكنهم تظاهروا بأنهم إنما يريدون عتابه . عندما رفض تسليمه إليهم قائلا مهددا :

« هذا فعليكم به فعاتبوه وإياكم ونفسه . . احذروا على نفسه ، فأقسم بالله إن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلا . . »

فتهامسوا : اللهم العنه ، من يغرر بهذا الحديث — أى من

من يلطخ نفسه به ويؤذيها — فوالله لو أصيب في أيدينا لقتل أشرفنا رجلا . . » وكان أن تركوه ونزعوا عنه .

قالها الوليد بن المغيرة : « أنالك يا رسول الله بهما » بملء فيه ، وهو واثق من نفسه وثوقه من إيمانه وعقيدته وثقته فى الله عز وجل »

وخرج إلى مكة وقدمها مستخفيا ، فلقى امرأة تحمل طعاما ، فقال لها .

« أين تريدين يا أمة الله ؟

وأجابت : « أريد هذين المحبوسين » .

تريد عياش بن أبى ربيعة ، وهشام بن العاصى ، فتبعها حتى عرف موضعهما ، وكانا محبوسين فى بيت لاسقف له ، فلما أمسى تسور عليهما ، ثم أخذ مروة — أى حجرا — فوضعها تحت قيديهما ، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما . فكان يقال لسيفه.

« ذو المروة » لذلك . . ثم حملهما على بعيره ، وساق بهما ، فعثر فدميت أصبعه . فأنشد :

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت ؟

ثم قدم بهما على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — المدينة . .

* * *

هذه نماذج من التضحيات المادية والأدبية التى عاشت مع الدعوة الإسلامية إبان الهجرة، نماذج قدمت لتاريخ البطولات على مسار التاريخ أروع الصفحات المشرقة الوضاءة . .

فلم تكن الهجرة مجرد حدث سياسى عادى ، ولكنها كانت مرحلة خطيرة .. لأنها مرحلة تحول من حياة بأسرها إلى حياة جديدة ومرحلة انطلاق من أضيق الآفاق . . إلى آفاق العالم بأسره .

هل كانت الهجرة ضرورة ملحة ؟

إن الإجابة التمهيدية عن هذا السؤال تقتضينا أن نطرح سؤالا آخر :

« ما الذى سوف يكون عليه مستقبل الدعوة الإسلامية لو أنها لبثت قابعة فى مكة ولم تقع الهجرة !

لو أن الدعوة الإسلامية كان مقررا لها أن تكون مجرد دعوة إلى مبادىء أخلاقية سلمية ، تهدف — ولا يراد منها غير ذلك — إلى تربية السلوك ، أو دعوة إلى مبادىء روحية خالصة يراد منها صقل الروح فى النفس البشرية — لكان فى مقدور دعوة شأنها هذا أو ذاك أن تقبع فى بقعة محددة . .

وحسبها أن تشع بتعاليمها على الأفق القريب والبعيد ، وتجتذب الناس إليها من كل حدب وصوب ، ينهلون من معينها ، ثم ينتشرون فى الأرض ، ليبثوا ما تلقوه من مبادىء وأخلاقيات . .

ليس معنى هذا أن الدعوة الإسلامية لم يكن ضمن منهاجها الدعوة إلى المبادىء الأخلاقية الرفيعة ، والمثل العليا ، والروحية العذبة ،

ولـكن معنى ما نقصد ، هو أن الدعوة الإسلامية ـ بالإضافة إلى ذلك ـ دعوة للدين والدنيا معا .

دعوة للدين كما رضيه الله لعباده ، خالصا من التحريف والتدليس اللذين تسللا إليه ، على أيدى ذوى الأهواء من كهنة الدينيين الـكبيرين السابقين على الإسلام : اليهودية والمسيحية . .

إن أصل الأديان السماوية واحد ، لـكن البناء الدينى ـ مع حفاظه على الأصل ـ قد قام تدريجيا مناسبا لتطورات البشرية وراعيا لها .

وكان الإسلام هو اللبنة الأخيرة التى اكتمل بها البناء الدينى . .

ودعوة للدنيا ، وربطها بالدين ، لتنظيم حياة الناس على أمثل طريقة ، وأعظم منهاج . .

وهذا هو الفرق بين الإسلام والأديان السماوية التى سبقته ، فـكل من الأديان السابقة كان مقررا له أن يؤدى دوره فى حدود البيئة التى بدأ فيها ، أما الإسلام ، فلم يكن مقررا له ـ وقد اكتمل البناء ـ أن يكون دوره محدودا زمانا ومكانا ، بل كان مقررا له أن ينطلق من حيث بدأ ، لا يحده زمان ولا مكان ، ولا يختص ببيئة دون أخرى ، ولا يخاطب قوما دون آخرين ، لا يؤثر الاهتمام

بالآخرة على الاهتمام بالدنيا ، ولا يؤثر الاهتمام بالدنيا على الاهتمام بالآخرة ، ولا ينعش الروح على حساب المادة ، ولا ينعش المادة على حساب الروح . .

إذن ، فلو قدر للدعوة الإسلامية أن تظل قابعة فى مكة ، لما استطاع الإسلام أن يؤدى دوره . .

كانت مكة منبت الدعوة الإسلامية ، وشاءت حكمة الله أن تنبت الدعوة الإسلامية فى أرض قاحلة ، وبين قلوب أكثر قحطا من أرض مكة ، لتتجلى قدرته سبحانه للعيان ، لأن دعوته استطاعت أن تنبت فى أرض جدبة ، وبين قلوب أكثر جدبا ، ولأن الرعيل الأول لهذه الدعوة كان من أصلاب ذوى القلوب القاحلة ، والأكباد الغلاظ ، والطباع الخشنة . .

كان هناك أمل فى أن تكون مكة — حيث نبتت الدعوة فوق تربتها — أن تكون مركز انطلاق للدعوة الإسلامية إلى آفاقها الواسعة ، إلى عالمها اللامحدود ، لكن هذا الأمل لم يتحقق ، فقد واجهت مكة الدعوة شر مواجهة ، واستقبلتها أسوأ استقبال ، وليتها اكتفت بأن ولتها ظهرها ، ومنحتها سكوتها ، أو حتى وقفت منها موقف الحياد ، لا تؤيدها ولا تعارضها ، لا تسندها ولا تسلمها ،

لا تنصرها ولا تخذلها ، ليتها فعلت شيئا من هذا ، إذن لا استطاعت الدعوة الإسلامية أن تشق طريقها فى الصخر ، وأن تواصل مسارها على الشوك . .

لكن مكة منذ اللحظات الأولى ، وقفت من الدعوة موقف المعارض الذى لا يعطى النصفة من نفسه ، والخصم الذى لا يعرف الشرف فى خصومته ، والعدو الذى تعمى العداوة بصيرته ، والعقل الذى يزكم أنفه المغرور ، ويملأ صدره الغيظ ، ويشغل وجدانه الاستعلاء . .

وأصبحت مكة المعتقل الذى حددت فيه إقامة الدعوة ، والقيود التى وضع فيها الرعيل الأول لها ، والإرهاب الذى شل إرادة الدعوة ورعيلها معا . .

وبعد ثلاثة عشر عاما من التجربة القاسية ، والابتلاء المرير ، أصبح من الواضح ، بل من المؤكد — أن أمل الدعوة فى مكة ليس إلا سرايا ، وأن التشبث بمثل هذا الأمل ، هو التشبث بخيوط العنكبوت . .

بل أصبح من المؤكد أن مكة لا تصلح بحال من الأحوال نقطة انطلاق للدعوة ، بينما الدعوة لا تمكن الانطلاق بين ديارها ،

ولا تصلح بحال من الأحوال مركز إشعاع لمبادىء الدعوة ، بينما الدعوة لا تملك أن تسلط أشعتها إلا على قلوب أتباعها . .

لـكن الدعوة لابد أن تنطلق . . . لتـكمل رسالتها . . وتحقق أهدافها . .

ولـكن تنطلق لتـكمل رسالتها ، وتحقق أهدافها ، لابد أن تحطم أسوار المعتقل الذى حددت إقامتها فيه ، ولابد من أن تحطم القيود التى وضع فيها أتباعها ، وقبل أن تحطم أسوار المعتقل الرهيب ، والاغلال العاتية ، لابد من أن تختار الأرض الجديدة التى تصلح نقطة للتحول والانطلاق ، ومركزا للإشعاع . .

واختار الله — سبحانه — الأرض الجديدة لدعوته . . إنها يثرب . .

وشتان بين مكة ويثرب أرضا وقلوبا وعقولا وطباعا . .

أرض مكة قاحلة . . وأرض المدينة خصبة .

قلوب أهل مكة قدت من صخرها ، وقلوب أهل المدينة فيها خصوبة ورقة .

عقول أهل مكة عنيدة . . وعقول أهل المدينة لديها قابلية للمرونة . .

طباع أهل مكة خشنة .. وطباع أهل المدينة فيها ليونة واستجابة ..

وشتان بين قوم مكة وقوم المدينة فى سلوك كليهما من الدعوة ..

أهل المدينة قطعوا الأميال بحثا عن الخير والحق فى الدعوة الجديدة . .

وأهل مكة غراهم الحق والخير فى مقر ديارهم فنفروا منها ، وأبوا إلا مقاومتهما . .

أهل المدينة رحبوا بالدعوة الجديدة فى ديارهم ، ورحبوا بأتباعها وأنزلوهم منزلا رحبا . .

وأهل مكة تنكروا للدعوة الجديدة وقد نبتت فوق أرضهم ، واضطهدوا أتباعها وهم جزء منهم .

إذن فالمسار إلى يثرب لتكون نقطة تحول وانطلاق للدعوة الجديدة ، بعد أن تلتقط الدعوة وأتباعها أنفاسهما ، ويتخلصا معا من أعباء ثلاثة عشر عاما من الإرهاق البدنى والنفسى . .

وكانت الهجرة من مكة إلى يثرب ضرورة ملحة ، وحتما مقضيا لا مفر منه ، ولا مندوحة عنه . . والذين قعدوا عن الهجرة إلا لعذر قهرى لا حيلة لهم فيه — هم كمن قعدوا عن الدعوة أو قعدوا عن الجهاد فى سبيل الله . .

* * *

لقد ظهرت الدعوة الإسلامية فى جو لم يكن مهيئا على الإطلاق لاستقبالها فضلا عن أن يرحب بها ويفسح صدوره لها .

لذلك اسر محمد — صلوات الله عليه — بالنبأ إلى زوجه خديجة رضى الله عنها ، وكانت اعرف الناس به معدنا وخلقا ، فهدأت من روعه ، واعلنت إسلامها أمامه ، وذكرته بقدره فى كلمات حكيمة موجزة ، لا لتسكن من روعه — وحسب — بل ايضاً ، لتؤكد له ثقته فى نفسه ، بعد ان قال لها : « لقد خشيت على نفسى » .

« كلا ، والله لا يخزيك الله ابدا ، إنك لتصل الرحم ، وتقرى الضيف ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق ..

أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو ان تكون نبى هذه الأمة . .

وأسلم على بن أبى طالب الذى كان فى حجر رسول الله — صلوات الله عليه — قبل الإسلام .

واسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله — صلوات الله عليه — كان مولى زوجه خديجة ثم وهبته له .

واسلم أبو بكر — رضى الله عنه ، وقد جمعته رسول الله — صلوات الله عليه — قبل الإسلام أكرم الصفات وأنبل الشيم ..

وكان أبو بكر اول من قام — بعد رسول الله عليه السلام — بالدعوة للإسلام ، فأسلم بدعائه :

« عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله » .

ثم توالى إسلام عدد من الرعيل الأول ، كأبي عبيدة والأرقم ابن الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وسعيد بن زيد وامراته « أخت عمر » وكذلك عائشة واسماء وخباب بن الأرت .

ومما هو جدير بالذكر ، ان إسلام هؤلاء وغيرهم كان يتم في سرية وكتمان ، وفي دار الأرقم بن أبي الأرقم كان الرسول — صلوات الله عليه — وهؤلاء القلة من الصحبة — مستخفين من قريش يدعون إلى الإسلام بحذر وحيطة ، حتى تكاملوا عددا لا بأس به ، غادوروا دار الأرقم ، وقد ظلت الدعوة مستخفية في دار الأرقم ثلاثة اعوام ..

أردت أن أبين من هذا الاستطراد السريع ، كيف بدأت الدعوة في جو صعب ، وفي ثلاث سنين ، كانت الدعوة سرية ، لم يدخل الإسلام إلا افراد معدودين ، معظمهم يمت بصلة القرابة إلى رسول الله — صلوات الله عليه . .

ثم أمر رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بأن يصدع

بأمر الله ، ويعلن الإسلام على رءوس قريش ، وبدأت مقاومة قريش للدين الجديد ومعاداتها له ، وتعقب اتباعه ، لإلحاق شر الوان الأذى بهم ، وسلطت عليهم من الإرهاب البدنى والنفسى مالا تحتمله الجبال . . مما اضطر البعض إلى الهجرة إلى الحبشة فرارا بدينهم . . وخلاصا من أذى قريش . .

وأصبح الإسلام واتباعه فى محنة قاسية ، حتى لقد كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يدعو الله أن يعز الإسلام بأحد العمرين : عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام « أبى جهل » وهذا يدل على ان الدعوة كانت فى مسيس الحاجة إلى مساندة أحد رجلين كان لهما عزة ومنعة .

وقد استجاب الله لدعوة رسوله — صلى الله عليه وسلم — واسلم عمر . .

واسلم قبل عمر ، حمزة بن عبد المطلب ، وأمد الدعوة الإسلامية إسلام رجل . . عزة ومنعة ، يقول ابن اسحاق :

« فلما أسلم حمزة ، عرفت قريش أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عز وامتنع ، وان حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه » .

ويقول ابن اسحق عن إسلام عمر :

« وأسلم عمر بن الخطاب ، وكان رجلا ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره ، فامتنع به أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبحمزة حتى غازوا قريشا - أى غلبوهم - وكان عبد الله بن مسعود يقول :

« ما كنا نقدر على أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ابن الخطاب ، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه » .

وفى أشهر الروايات أن إسلام عمر كان بعد هجرة الحبشة فى العام الخامس . معنى هذا أن المسلمين لم يكونوا يستطيعون الصلاة عند الكعبة ، بعد مرور خمسة أعوام من الدعوة ، وبعد عامين من الجهر بها وفشو أمرها .

وفى بعض الروايات أن إسلام عمر كان على رأس أربعين سبقوه إلى الإسلام ، ومعنى هذا أن الدعوة الإسلامية بعد خمس سنوات من عمرها لم تظفر إلا بأربعين تابعا لها .

* * *

لم تكتف قريش بما فعلته بمحمد وأصحابه ، وما فعلته ليس بالقليل ، ويبدو أنها بعد هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة ، واستقرارهم هناك فى أمن من أذاها ، وفى أمن بدينهم ، وبعد إسلام حمزة وعمر ،

أصيبت قريش بحالة من التوتر . فاضطهادها للدعوة لم يزدها إلا انتشاراً ، واضطهادها لأتباعهم لم يزدهم إلا قوة ، فبدأت ترسم خطة جديدة وتنفذها ، لتكيد للدعوة وأتباعها .

قررت أن تفرض حصاراً على بنى هاشم وبنى المطلب ، حصاراً اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ، ولئن دل هذا الحصار على شيء ، فإنما يدل على أن قريشا قد أصابتها طاقة كبرى من التوتر ، جعلتها تتخلى عن أبسط قواعد الأخلاق العربية وما عرف عنها من الشهامة والمروءة وعلو الهمة .

قال ابن اسحق :

« فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقرارا ، وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل ، واجتمعوا ، وائتمروا بينهم ، أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب ، على أن لا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم .

فلما اجتمعوا لذلك ، كتبوه فى صحيفة ، ثم تعاهدوا ، وتواثقوا

على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم . .

فلما فعلت قريش ذلك ، إنحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبى طالب بن عبد المطلب ، فدخلوا معه فى شعبه ، واجتمعوا إليه ، وخرج من بنى هاشم : أبو لهب . . إلى قريش فظاهرهم .

إن قريشا بفرضها الحصار الذى أتسم بالخسة ، لجأت إلى أسلوب جديد ، بعد أن فشلت كل أساليبها فى النيل من الدعوة الجديدة وأتباعها ما كانت تبغى ، مما يرضى غرورها ، ويروى أحقادها ، هذا الأسلوب الجديد ، هو إعلان حرب الأعصاب على بنى هاشم وبنى المطلب ، حتى يفرطوا فى محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أو حتى يتهاون عليه السلام فى دعوته ، ويهادن قريشا . .

وخابت قريش فيما كانت تؤمل وتتوقع ، فلقد انحاز كل بنى هاشم وبنى المطلب إلى شعب أبى طالب الذى أخذ على عاتقه أن يؤازر محمداً ودعوته ، وإن لم يدخل فى دعوته ، ولم يشذ إلا أبو لهب الذى لم يكن يرجى منه أى خير . .

وبالغت قريش فى حصارها المشئوم ، وأخذت ترصد الأعين تراقب كل وارد وصادر ، وكأنما كانت تريد أن تضيق على بنى هاشم

وبنى المطلب الخناق ، فتمنع عنهم الطعام والشراب حتى يهلكوا جوعاً وظمأ . .

يقول ابن اسحق :

« لقى أبو جهل حكيم بن حزام بن خويلد - ابن أخي السيدة خديجة - معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهى عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى الشعب ، فتعلق به وقال :

« أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة » .

فجاء أبو البختري بن هاشم بن الحارث - كان مشركا - فقال : مالك وماله ؟

قال أبو جهل : يحمل الطعام إلى بنى هاشم .

قال أبو البختري : طعام كان لعمته عنده بعثت إليه فيه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ! خل سبيل الرجل . .

فأبى أبو جهل ، حتى نال أحدهما من صاحبه ، وضرب أبو البختري أبا جهل فشجه ووطئه وطأ شديدا » .

إنها لتجربة قاسية مريرة مرت بها الدعوة والداعية والأتباع ، تجربة استمرت ثلاث سنوات ، يقول ابن كثير :

« واشتد عليهم البلاء والجهد ، وقطعوا عنهم الأسواق ، فلا يتركون لهم طعاماً يقدم مكة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه . .

يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله - ﷺ - .

فكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم ، أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاضطجع على فراشه ، حتى يرى ذلك من أراد به مكرا أو اغتيالا له ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه ، فاضطجعوا على فراش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمر رسول الله أن يأتى بعض فرشهم فينام عليه » .

صحيح - كما يقول ابن كثير - أنه لما كان رأس ثلاث سنين ، تلاوم رجال من بنى عبد مناف ومن قصى . ورجاله من سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بنى هاشم ، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم ، واستخفوا بالحق . .

واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراء منه . .

وكان فى مقدمة هؤلاء : أبو البخترى ، والمطعم بن عدى ، وزهير بن أبى أمية بن المغيرة ، وزمعة بن الأسود ، وهشام بن عمرو ، والأخير كانت الصحيفة المشئومة عنده . . لكنه كان يحمل بعيره طعاماً إلى الشعب ليلا . .

وعندما سمع أبو جهل ما قاله هؤلاء : نحن براء مما فى هذه الصحيفة ، قال : هذا أمر قضى بليل . .

ولم ينس التاريخ هشام بن عمرو بن ربيعة ، فقد سجل له صفحة مشرقة قبل أن يدخل فى الإسلام ، فقد كان يأتى بالبعير ، وبنو هاشم وبنو المطلب فى الشعب ليلا ، قد أوقره طعاماً ـ أى حمله طعاماً ـ ، حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبه ، فيدخل الشعب عليهم ، ثم يأتى به قد أوقره برا ، فيفعل به مثل ذلك .

وقد أبلى هشام بلاء حسنا حتى تم نقض الصحيفة ، فمشى إلى زهير ابن أبى أمية ـ وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ـ فقال :

« يا زهير : أقد رضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت ، لا يباعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟ .

واستطاع أن يضم إليه غير زهير المطعم بن عدى، وأبا البخترى ثم زمعة بن الأسود ، فاجتمعوا ليلا بخطم الحجون بأعلى مكة ، وأجمعوا أمرهم ، وتعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها .

قال زهير بن أمية :

« أنا أبدؤكم ، فأكون أول من يتكلم » . .

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم . وغدا زهير عليه حلة ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس ، فقال :

« يا أهل مكة ، أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة » . .

فتصدى له أبو جهل ، وكان فى ناحية المسجد :

كذبت ، والله لا تشق . . !

فقال زمعه بن الأسود : « أنت والله أكذب . ما رضينا كتابتها حيث كتبت » . .

قال أبو البخترى : « صدق زمعة ، لا نرضى ما كتب فيها ، ولا نقر به » .

قال المطعم بن عدى : صدقتما ، وكذب من قال غير ذلك . .

نبرأ إلى الله منها ، ومما كتب فيها .

قال هشام بن عمرو نحوا من ذلك . .

قيل كما جاء على هامش . . سيرة ابن هشام :

« إن المؤمنين جهدوا من ضيق الحصار ، حتى أنهم كانوا يأكلون الخبط وورق السمر ، حتى إن أحدهم ليصنع كما تصنع الشاة ، وكان فيهم سعد بن أبى وقاص ، روى أنه قال : لقد جعت حتى إنى وطئت ذات ليلة على شىء رطب ، فوضعته فى فمى وبلعته ، وما أدرى ما هو إلى الآن . .

وكانوا إذا قدمت العير مكة ، وأتى أحدهم السوق ليشترى شيئاً من الطعام لعياله ، يقدم أبو لهب — عدو الله فيقول : « يا معشر التجار ، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً ، فقد علمتم مالى ووفاء ذمتى ، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم ، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافاً ، حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع ، وليس فى يده شىء يطعمهم به » .

ويغدو التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس حتى جهد المسلمون ومن معهم جوعاً وعريا » .

إن الهدف من هذا الاستطراد لمأساة الحصار، هو أن نبين حقيقة مكة، وحقيقة موقفها من الدعوة الإسلامية، وهذا مما يساعدنا على الإجابة عن سؤالنا الرئيسى : هل كانت الهجرة ضرورة ملحة ؟ ؟

* * *

يقول ابن عباس :

« كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه محمد — ﷺ — : ولا تجهر بصلاتك » أى بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن « ولا تخافت بها » عن أصحابك، فلا تسمعه القرآن حتى يأخذوه عنك . « وابتغ بين ذلك سبيلا » .

ويسوق ابن إسحق رواية أخرى عن ابن عباس لا تختلف كثيراً عن سابقتها، يقول :

« كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا جهر بالقرآن وهو يصلى تفرقوا عنه، وأبوا أن يستمعوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يسمع من رسول الله بعض ما يتلو وهو يصلى، استرق السمع

دونها فرقاً منهم — بفتح الراء — أى خوفاً من قريش — فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع، ذهب خشية أذاهم. فلم يستمع، فإن خفض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يسمع الذين يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل الله تعالى: «ولا تجهر بصلاتك» فيتفرقوا عنك «ولا تخافت بها» فلا يسمع من أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك، لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع؛ فينتفع به. «وابتغ بين ذلك سبيلا».

هذه صورة مصغرة من صور الكبت الذى كانت الدعوة الإسلامية وأتباعها يعيشانها فى مكة، كبت لا يملكان حياله إلا القلق والحيرة، وحسبنا ماسبق أن قاله ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ من أن المسلمين لم يكونوا يستطيعون الصلاة عند الكعبة إلا بعد إسلام عمر..

* * *

إن أبا طالب عم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والسيدة خديجة — أم المؤمنين رضى الله عنها — كانا خير عون للدعوة الإسلامية، وكان من الوفاء لهما أن يسمى الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — عام وفاتهما «عام الحزن» وقد بدأ قدرهما للعيان

بعد وفاتهما ، حيث نالت قريش من رسول الله وأصحابه مالم تكن قد نالته قبل وفاتهما .

ولندع ابن اسحق يقول :

« ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المصائب بهلاك خديجة ، وكانت له وزير صدق على الإسلام ، يشكو إليها » .

وبهلاك عمه أبى طالب . . وكان له عضداً وحرزاً فى أمره ، ومنعة وناصراً على قومه ، وذلك قبل مهاجرته إلى المدينة بثلاث سنين ، فلما هلك أبو طالب ، نالت قريش من رسول الله - ﷺ - من الأذى ، مالم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا . .

ويواصل ابن اسحق روايته عن عروة بن الزبير . قال :

« لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التراب . فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول لها : لا تبكى يابنية . فإن الله مانع أباك » وكان رسول الله يقول :

« ما نالت منى قريش شيئاً أكرهه ، حتى مات أبو طالب .. »

ولنا أن نتصور مركز الدعوة وقائدها وأتباعها ، كيف كان

الجميع يلتمسون النصرة والمنعة بأبى طالب وخديجة ، وكيف أن مدتهما فى عام واحد ترك أثراً كبيراً ، وفراغاً شاسعاً ، فتضاعفت المحنة ، واشتدت التجربة مراراً . .

على أن الدعوة وقائدها وأتباعها لم يكونوا فى منعة كاملة فى حياة أبى طالب والسيدة خديجة ، بل رأوا من الاضطهاد والإرهاب والتعذيب والتنكيل ما لاطاقة للجبال الرواسخ بحمله ، وما تعجز الأقلام عن تصوير أعماقه وأبعاده ، وحسبنا أن الحصار اللا إنسانى المشئوم الذى فرضته قريش بعد أن تخلت عن أبسط مبادىء الشهامة والمروءة والرجولة ، هـذا الحصار لم تقمه قريش حول بنى هاشم وبنى المطلب إلا فى حياة أبى طالب وخديجة ، بل أن الإثنين كانا ضمن المحاصرين فى الشعب . . »

لـكن الحقيقة التى يجب أن تـكون واضحة ، أن أبا طالب وخديجة قد رفعا عن كاهل الدعوة ، وعن عواتق قائدها وأتباعها بعضاً من الأثقال والأعباء ، ومع ذلك فالذى احتملته الدعوة وقائدها وأتباعها فى حياتهما مما يجب وضعه فى الاعتبار ، لأنه سجل أخزى صفحات بين دفتى التاريخ لسادة قريش وصناديدها . .

ولنقف وقفة تأمل أمام هذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أنس رضى الله عنهما ، قال أنس :

قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

لقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ، وأخفت فى الله وما يخاف أحد . .

ولقد أتت على ثلاثون . . من بين يوم وليلة . . ومالى ولبلال ما يأكله ذو كبد . . إلا مايوارى إبط بلال . . !

ووقفة ثانية أمام حديث البخارى عن عروة بن الزبير ، قال :

« سألت ابن عمرو بن العاصى فقلت :

أخبرنى بأشد شىء صنعه المشركون برسول الله .

قال : بينا النبى — صلى الله عليه وسلم يصلى فى حجر الكعبة ، إذ أقبل عليه عقبة بن أبى معيط ، فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقا شديدا . .

فأقبل أبو بكر — رضى الله عنه — حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى — صلى الله عليه وسلم — وقال :

« أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » الآية .

ووقفة ثالثة أمام مايقول ابن هشام فى سيرته :

« إن أشد مالقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم من قريش ، أنه خرج يوما فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وآذاه ، لا حر ولا عبد ، فرجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى منزله ، فتدثر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله تعالى عليه :

« يا أيها المدثر قم فأنذر . . » ؟

كل هذا حدث لرسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى حياة أبى طالب وحياة خديجة ، وماحدث غيره أكثر من أن يحصى . .

أما مانال أصحابه فى حياة أبى طالب وخديجة ، فهو مما يجل عن الوصف . .

يقول ابن اسحق :

« ثم إنهم ـ أى قريش ـ عدوا على من أسلم واتبع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أصحابه .

فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم ، بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوه منهم ، يفتنونهم عن دينهم . .

فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذى يصيبهم ، ومنهم من يصلب ومنهم من يعصمه الله منهم . . .

فى هذا الإيجاز أما يغنى عن الاستيعاب الذى لا حدود له ...

لقد فقدت قريش أعصابها، وهى ترى لفيفا من الرقيق يستجيب للدعوة الاسلامية فى مطلعها، ويؤمن بها إيمانا عميقا، وليس العجيب فى أن يستجيب الرقيق للاسلام، ولكن العجيب أن هؤلاء خرجوا عن حوزة سادتهم بقلوبهم لأنها مستقر العقيدة، تاركين لهم أبدانهم يفعلون بها ما شاءوا ..

ومع أن السادة إنما يملكون الرقيق أجسادا وإرادة، لأن إرادة الرقيق من إرادة سادتهم، أو بمعنى أدق، يجب أن تكون من إرادتهم، ورهنا لإشارتهم، إلا أن الرقيق بدخولهم فى الإسلام قد انتزعوا جزءا من سلطان السادة عليهم، فأصبحت لهم إرادة مستقلة، دفعتهم إلى الدخول فى الإسلام على رغم من مقاومة سادتهم له، وعدائهم عليه، وتربصهم به، وتسلطهم على كل مستجيب له، ولو كان من ذوى رحمه ..

إن أبا بكر ــ وحده ــ قد أعتق عديدا من الرقيق، وفى مقدمتهم بلال ــ رضى الله عنه ــ أعتق كما يقول ابن اسحق :

« عامر بن فهيرة ــ شهد بدرا وأحدا، وقتل يوم بئر معونة شهيدا » .

وأعتق أم عبيس . . وزنيرة . .

وأعتق النهدية وبنتها . . وكانتا لامرأة من بنى عبد الدار ، فمر رضى — الله عنه بهما ، وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها ، وهى تقول لهما : والله لا أعتقكما أبدا » فقال أبو بكر — رضى الله عنه: حل يا أم فلان — أى تحللى من يمينك واستثنى فيها « فقالت : حل أنت أفسدتهما ، فأعتقهما » واشتراهما .

واشترى جارية بنى مؤمل — حى من بنى عدى — كان عمر فى جاهليته يضربها على الإسلام . . »

إذا كان أبو بكر — رضى الله — قد اشترى سبعة من الرقيق الذين أوذوا من أجل الدعوة ، فإن عشرات غيرهم لم يشترهم أحد ليعتقهم ويرد إليهم حرياتهم ، كما فعل الصديق . .

ومع ذلك فشراء العبيد وتحريرهم من الذين أسلموا وأوذوا من أجل الإسلام ، لا يحل المشكلة الحل النهائى . مادام الأحرار أنفسهم يتعرضون لأذى قريش فى أى وقت ، حتى أبو بكر نفسه — رضى الله عنه ؟؟

ومادام النبى نفسه — صلوات الله وسلامه عليه تعرض لأذى قريش .

وفى حيـاة عمه أبى طالب وزوجه خديجة ، اللذين كانت لهما عزة ومنعة ؟

* * *

إذا كانت الدعوة الإسلامية خلال عشرة أعوام بمكة - أى قبل وفاة أبى طالب والسيدة خديجة - لم تستطع أن تلتقط أنفاسها، لأن مكة كانت تقف لهـا بالمرصاد ، فأى أمل فى مكة بعد وفاة أبى طالب والسيدة خديجة ؟

يقول جابر بن عبد الله رضى الله عنه فيما رواه الإمام أحمد :

« كان النبي — صلى الله عليه وسلم ، يعرض نفسه على الناس بالموقف — بعرفة — فيقول :

« هل من رجل يحملنى إلى قومه ، فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربى عز وجل ؟ »

ولم يكتف —صلوات الله عليه —بأن يعرض نفسه على الحجيج فى مواسم الحج ، بل سعى بنفسه إلى القبائل القريبة بمكة والبعيدة عنها.

كان فى كل موسم يقف على منازل القبائل من العرب فيقول :

« يا بنى فلان ، إنى رسول الله إليـكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه ، من هذه

الأنداد ، وأن تؤمنوا بى ، وتصدقوا بى ، وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به »

أتى كندة فى منازلهم ، وفيهم سيد لهم يقال له « مليح » فدعاهم إلى الله — وعرض عليهم نفسه ، فأبوا عليه . .

وأتى بنى كلب فى منازلهم ، إلى بطن منهم يقال لهم « بنو عبدالله » فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول لهم : يابنى عبد الله : إن الله عز وجل قد أحسن اسم أبيكم ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم . .

وأتى بنى حنيفة فى منازلهم ، فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب اقبح عليه ردا منهم .

وأتى بنى عامر بن صعصعة ، فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم نفسه ، فقال له رجل منهم ، يقال له « بيحرة بن فراس » :

« والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب »

ثم قال له :

« أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك ؟

قال — صلوات الله عليه — الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . »

قال الرجل : أفتهدف نحورنا للعرب — أى تصير هدفا — دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك »

وأبوا عليه . .

يقول ابن اسحق :

« فكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على ذلك من أمره ، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه ، وما جاء به من الله من الهدى والرحمة . .

وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب ـ له اسم وشرف ـ إلا تصدى له ، إلى الله وعرض عليه ما عنده » .

وحسبنا أن نتأمل عبارة ابن اسحق الأخيرة : كان لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب إلا تصدى له . . لندرك أى جهد كان يبذله — صلوات الله وسلامه عليه — ليعرض الدعوة على الناس ، وما كان يتصدى للوافدين على مكة فى موسم الحج وغيره ، بمثل هذه الصورة المرهقة ، لولا صدود مكة عن الدعوة ، وعدالناس عنها لو أن مكة رحبت بالدعوة الجديدة ، وأحسنت استقبالها — بل حتى وقفت منها موقف الحياد على الأقل — لكانت القبائل العربية هى التى تعرض نفسها على الدعوة . .

يقول الزهرى :

« كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب فى كل موسم ، ويكلم كل شريف قوم ، لا يسألهم مع ذلك ألا أن يؤووه ويمنعوه ، ويقول :

« لا أكره أحداً منكم على شىء ، من رضى منكم بالذى أدعوه إليه . . فذلك . . ومن كره لم أكرهه ، إنما أريد أن تحرزونى فيما يراد لى من القتل حتى أبلغ رسالة ربى ، وحتى يقضى الله لى ولمن صحبنى بما شاء . . »

أرأيت كيف اضطر رسول الله — صلوات الله عليه — أن يعرض نفسه بهذه الصورة على القبائل ، إنه يريد مجرد الحماية ، ولا يشترط على من يقبل ذلك الاسلام ، فكل ما يرجوه الحماية من قريش . .

ثم يقول الزهرى :

فلم يقبله أحد منهم ، وما يأتى أحدا من تلك القبائل إلا قال :

« قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلا يصلحنا . . وقد أفسد قومه . . ولفظوه . . . »

أجل : قوم الرجل أعلم به . . .

لكن قوم الرجل كانوا حربا عليه وعلى دعوته وعلى أتباعه . .

قوم الرجل هم الذين دفعوه دفعا ليعرض نفسه ودعوته على كل قادم إلى مكة ليسمع مثل هذه العبارة . •

قوم الرجل هم الذين اضطروه إلى أن يقطع عشرات الأميال ليذهب إلى الطائف يدعو أهلها إلى الله تعالى ، وإلى نصرة دينه ، فيلقى من أهل الطائف كل جفاء . .

يقول ابن اسحق ، ونحن نعرضه بشيء من التصرف :

« لما هلك أبو طالب ، نالت قريش من رسول الله — ﷺ — من الأذى مالم تكن تنال منه فى حياته .

فخرج — صلى الله عليه وسلم — إلى الطائف ، يلتمس النصرة من ثقيف . والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاء به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده .

ولما انتهى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى الطائف ، عمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة عبد ياليل بن عمرو ، ومسعود وحبيب ، وعند أحدهم امرأة من قريش من بنى جمح ، فجلس إليهم رسول الله — ﷺ — فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الاسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم :

« هو يمرط – أى ينزع – ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.. »

وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا .. لئن كنت رسولا من الله – كما تقول ، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغى لى أن أكلمك . . »

وقد قام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من عندهم وقد يئس من خبر ثقيف . . »

ولك أن تتصور ما كان عليه – صلوات الله عليه – من حال نفسية مرهقة ، وهو يعود ولم يتحقق أمله فى ثقيف ، بعد أن سعى بنفسه إليها وتحمل الكثير من المشاق ، لكن شيئا آخر كان يشغل ذهنه ، ويعتمل فى أعماقه ، كان يشغله أن تعلم قريش ما قوبل به من أهل الطائف ، فيشمتوا به ، لذلك قال لهم فى رجاء :

« إذا فعلتم ما فعلتم ، فاكتموا عنى . . »

وكره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يبلغ قومه عنه ، فيذئرهم ذلك عليه – أى يثيرهم عليه . .

فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط – بستان –

لعتبة بن ربيعة وشيبة أخيه ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبلة من عنب — شجرة — فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان مالقى من سفهاء أهل الطائف ، وقد لقى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المرأة التى من بنى جمح فقال لها :

« ماذا لقينا من أحمائك . . ! »

ويضيف ابن كثير نقلا عن موسى بن عقبة .

« وقعد له أهل الطائف صفين على طريقه ، فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ، ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة ، حتى أدموه ، فخلص منهم ، وهما يسيلان الدماء . . »

يقول ابن اسحق :

« فلما رآه ابنا ربيعة ، وما لقى تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاما لهما نصرانيا ، يقال له — عداس — وقالا له :

« خذ قطفا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عداس . . »

يالها من صورة أليمة تعرض لها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ما كان أغناه عنها ، لولا أن مكة بالغت فى اضطهاده حتى ألجأته إلى أن

يعرض نفسه ودعوته على أناس — حتى ولو كان الأمل فيهم ضعيفا — لأنه لا أمل فى مكة على الإطلاق . .

وتزداد الصورة الحزينة ألما وحزنا ، وقد وقع ما كان يخشاه الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — من ألد أعدائه ، من أن تقف قريش على موقف أهل الطائف منه ، فقد ساق إليه قرشيان من ألد أعدائه ، ليريا بأعينهما ما تعرض له من سخرية وأذى ، بل حتى لجأ إلى بستان لهما وهما فيه . .

ومما هو أكثر ألما لنفس الرسول — صلوات الله عليه — أن هذين العدوين اللدودين يشفقان عليه ، ويرثيان له ولما وصل إليه ، وهذا أوقع على نفس الحر الأبى من وقع السيف المهند ، فالحقيقة أن مبعث الإشفاق والرثاء هو الشماتة والتشفى ، وهذا ما كان يخشاه — صلوات الله عليه — ورجا أهل الطائف أن يكتموا عنه ، حتى لا تتاح فرصة لقريش لتشمت وتتشفى فيه .

وإن كلمات الرسول — صلوات الله عليه — التى نطق بها من أعماقه بعد أن اطمأن ، كافية لاعطائنا الصورة الحقيقية للأزمة النفسية التى كانت تعتمل فى وجدانه :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى . . وقلة حيلتى . . وهوانى على الناس . .

يا أرحم الراحمين .. أنت رب المستضعفين .. وأنت ربى إلى من تكلنى ؟

إلى بعيد يتجهمنى ؟

أم إلى عدو ملكته أمرى ؟

إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى . . . ولكن عافيتك هى أوسع لى . .

أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات . . وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك . .

لك العتبى حتى ترضى . . ولا حول ولا قوة إلا بك . .

قالت عائشة — كما فى الصحيحين — للرسول — صلوات الله عليه :

« هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟

قال : ما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل . . فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب . .

مواقف كثيرة تحملها رسول الله — صلوات الله عليه — لا يحتملها أحد من الناس ، لكنه رسول الله ، وإن موقفا مثل ذلك الذى مر بنا آنفا ، عندما سعى وحيدا إلى الطائف — يكفى لأن يقدم لنا

الصورة الحقيقية لما كان يعانيه — عليه السلام — من قبائل العرب، وما ذلك إلا بسبب موقف مكة المتعنت منه ومن دعوته . .

والموقف الخاص بأهل الطائف لم ينته بعد، فقد سرت أنباؤه إلى قريش، فازداد عنادها، بل تفننت فى مضايقة الرسول — صلوات الله عليه — والتضييق عليه.

فلم يستطع — عليه السلام — دخول مكة، بعد عودته من الطائف إلا فى جوار المطعم بن عدى . .

بعث إلى أريقط إلى الأخنس بن شريق، فطلب منه أن يجيره بمكة، فقال :

« إن حليف قريش لا يجير على صميمها » .

وبعث إلى سهيل بن عمرو فقال :

« إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب . . »

وأجابه المطعم بن عدى، ثم تسلح وأهل بيته، وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثم بعث إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم . أن أدخل، فدخل . . فطاف بالبيت، وصلى عنده، ثم انصرف إلى منزله.

وتذكر رواية أخرى :

أن رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بات عند المطعم ابن عدى تلك الليلة ، فلما أصبح خرج هو وبنوه متقلدى السيوف جميعاً ، فدخلوا المسجد ، وقال لرسول الله ﷺ : طف . . واحتبوا بحمائل سيوفهم فى المطاف . .

فأقبل أبو سفيان إلى مطعم ، فقال : أمجير أو تابع ؟

قال المطعم : لا بل مجير . .

قال أبو سفيان : إذن لا تخفر . .

ومكث صلوات الله عليه أياماً . . ثم أذن له فى الهجرة . .

* * *

أعتقد أنه لا حاجة بنا الآن إلى مزيد من الإجابة عن السؤال الأساسى ؟

« هل كانت الهجرة ضرورة ملحة ؟ ؟ »

ولا عن السؤال الذى تفرع عنه :

ماذا سيكون مستقبل الدعوة الإسلامية لو أنها لبثت قابعة فى مكة ؟

حسبنا ما قاله جابر بن عبد الله رضى الله عنه وهو ممن شهد بيعة العقبة الأخيرة ومعه أبوه والحديث رواه الإمام أحمد :

« مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم — عكاظ ومجنة[1] — فى المواسم يقول :

« من يؤوينى ؟ من ينصرنى ؟ حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة » .

فلا يجد أحداً يؤويه ولا ينصره ، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر . . فيأتيه قومه وذوو رحمه ، فيقولون :

« احذر غلام قريش لا يفتنك » .

ويمضى بين رحالهم ، وهم يشيرون إليه بالأصابع . .

حتى بعثنا الله إليه من يثرب ، فآويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا ، فيؤمن به ، ويقرئه القرآن ، فينقلب إلى أهله ، فيسلمون بإسلامه ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام . .

ثم ائتمروا جميعاً ، فقلنا :

---

(١) مجنة اسم سوق للعرب بأسفل مكة .

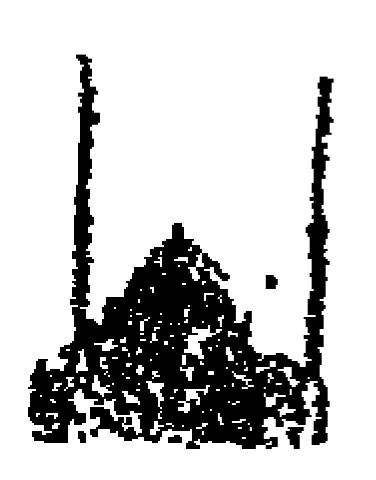
« حتى متى نترك ـ رسول الله ﷺ ـ يطوف ويطرد فى جبال مكة ، ويخاف ؟

فرحل إليه منا سبعون رجلا ، حتى قدموا عليه فى الموسم ، فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عندها بين رجل ورجلين ، حتى توافينا فقلنا يا رسول الله : علام نبايعك ؟ قال :

« تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. وأن تقولوا فى الله لا تخافوا فى الله لومة لائم . .

وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم ، مما تمنعون منه أنفسكم ، وأزواجكم وأبناءكم .. ولكم الجنة » .

فقمنا إليه . . فبايعناه » .



مرحلة التأسيس والانطلاق

* هذه المرحلة الجديدة .
* مناقشات .

هذه المرحلة الجديدة

إننا نسرف في التعبير حين نعتبر أن الدعوة الإسلامية قد استقرت في المدينة عقب الهجرة ، ونهيء للأذهان والأسماع أننا نقصد بكلمة الاستقرار مفهومها الشامل بلا ضوابط لهذا المفهوم الشامل . .

وعلى هذا فتكون الهجرة مجرد مرحلة انتقالية من بلد إلى بلد ، ومن بيئة إلى بيئة ومن حياة إلى حياة ، وتكون الأهداف التي حققتها هذه المرحلة الانتقالية ، هو نقل الفئة المؤمنة من بلد تضطهدهم إلى بلد ترحب بهم وتنزلهم منزلا كريما ، ونقل الدعوة من بيئة تلفظها وتكبت أنفاسها ، وتضيق عليها الخناق ، وتحدد إقامتها في الصدور والأذهان والوجدان ، إلى بيئة تتقبلها بقبول حسن ، وتحرر إرادتها ، وتطلق سراحها من القيود التي كانت مكبلة بها . .

لا جدال في أن مرحلة الهجرة لم تكن مجرد مرحلة انتقالية كل أهدافها ما أشرنا إليه الآن ، لكنها كانت مرحلة تحول وانطلاق نحو آفاق واسعة لا يحدها زمان ولا مكان ، حتى تتمكن من أن تحقق أهدافها الكبرى .

في أن تقيم البناء الإسلامي على أسس متينة أربعة :

● العقيدة — لتكون بداية انطلاق . . . حتى يكون الدين كله لله . .

● الدولة — لتكون بداية انطلاق . . . نحو أمة وسط . . حتى تصبح خير أمة أخرجت للناس .

● التشريع — ليكون بداية انطلاق . . . نحو غاية لرقى الحياة بأسرها . حاضرها ومستقبل أحيائها القادمة .

● القوة — لتكون بداية انطلاق . . . نحو غاية لإقرار السلام العالمى . .

وما دامت هذه هى أهداف الدعوة الإسلامية ، التى ما كان لها أن تتحقق فى مكة — حيث ثبتت الدعوة ، وقد اختار لها أرضا جديدة لتتمكن من تحقيق أهدافها هذه ، إذن فالهجرة مرحلة تمهيدية للعمل ، والعمل الشاق المضنى ، لأنه عمل يتصل بالبناء ، البناء الذى يجب أن يقوم على أسس متينة سليمة . .

كان من المقبول مثلا ، أن تمنح الفئة المؤمنة عقب الهجرة فترة — ولو وجيزة — من الراحة والدعة والاسترخاء ، وهى التى قضت ثلاثة عشر عاما ، مستعبدة مستضعفة ، مغلوبة على أمرها ، تواجه بإيمانها قوة الكفر ، وتواجه بالحق الذى هى عليه سطوة الباطل ،

وتواجه بأشعة النور الذى آمت به جحافل الظلام . . وتتحمل فى جهادها من الإرهاق البدنى ، والإرهاب الفكرى ، والاضطهاد النفسى ، والازدراء الأدبى ، مالم تكن تملك معه حقها فى الأنين من الإرهاق البدنى ، ولا حقها فى التذمر من الإرهاب الفكرى ، ولا حقها فى الاعتراض من الاضطهاد النفسى ، ولا حقها فى الشكوى من الازدراء الأدبى . .

بل ما هو أكثر من ذلك ، أنها لم يكن من حقها أن تصمد أمام الأذى الذى يلحق بها ، ولا أن تصبر على الألم الذى يعتمل فى أعماقها ، ولا أن تحتسب عند الله ما يصيبها من شر من أجل العقيدة والمبدأ . . فالقوة الباغية المعادية للفئة المؤمنة لم تكن — وحسب — ترصد حركاتها وسكناتها ، أو أقوالها وأفعالها ، بل كانت ترصد أنفاسها وخطرات نفسها ، وهواجس ذهنها ، كانت ترصد صمتها أدق مما ترصد نطقها وترصد نومها أدق مما ترصد يقظتها .

أجل ، كان من المعقول ان تمنح الفئة المؤمنة المرهقة فترة وجيزة من الراحة والدعة والاسترخاء ، بعد ثلاث عشرة سنة قضتها فزعة مروعة مهددة ، تتوقع الموت فى كل لحظة ، ويصحبها شبح الإرهاب ويمسيها ، إن غفل عنها ساعة من زمن ، فإنما لأنه كان

يستعد خلالها بوثبة جديدة بخطة جديدة وأسلوب طريف !.

لكن هذا لم يحدث . . .

لم يحدث ان منحت الفئة المؤمنة فترة وجيزة من الراحة والدعة والاسترخاء . . لأن الدعوة التى اعتنقتها لا تعترف بشىء من هذا ، لأنها حركة بناء ، ولا تعترف بالانتظار ، لأن الانتظار يدعو إلى مالم تعترف به من قبل . .

فما ان حل الركاب النبوى بالمدينة فى دار أبى أيوب الأنصارى فى قباء ، حتى سأل عن المربد الذى بركت فيه ناقته — صلوات الله عليه — والمربد هو المكان الذى يجفف فيه التمر — فقيل له : أنه لسهل وسهيل ابنى عمرو ، وهما يتيمان ، فاشتراه وأمر — على الفور — بأن يبنى مسجدا . .

ولقد عمل — صلوات الله وسلامه عليه — بنفسه فى بناء المسجد ، ليرغب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار معا ، ودأبوا فيه ، فقال قائل من المسلمين ، كما يذكر ابن اسحق :

لئن قعدنا والنبى يعمل لذاك منا العمل المضلل

كان لابد من بناء مسجد يجتمع فيه المسلمون ، ويتحدث فيه الرسول ، ويكون مركز إشعاع للعقيدة الإسلامية ، بل كان من سلامة

التفكير أن لا يؤجل بناء المسجد ، لا باعتباره ضرورة لإرساء العقيدة — وحسب — بل أيضا ، لأن الواجب كان يقتضى يومئذ أن أول عمل يقوم به المسلمون فى الأرض الجديدة ، هو تأسيس بيت لله يذكر فيه اسمه كثيرا ، ولأول مرة فى أمن لا يهدده روع . .

فإذا قام هذا المسجد ، وأصبح ملتقى المسلمين ، التقط المسلمون بين جدرانه أنفاسهم لأول مرة ، وعبدوا الله دون خوف أو تردد مستشعرين حرية العبادة لأول مرة أيضا ، فقد كانوا بمكة يتسللون إلى مكان خفى منعزل لتأدية الصلاة ، أما اليوم فهم سيذهبون إلى بيت الله ويجيئون متى شاءوا ، لا يلتفتون وراءهم ، ولا عن إيمانهم وشمائلهم ، وسيرفعون أصواتهم بذكر الله دون أن يحسبوا حسابا لمتجسس من قريش يسترق السمع . .

وكان من سلامة التفكير أن يكون هناك عمل سريع يقوم المسلمون به ، حتى لا تكون هناك فرصة لهم للدعة أو الاسترخاء ، فهم لم يهاجروا ليسترخوا ويستريحوا ، بل ليتمكنوا من العمل فى إقامة البناء الإسلامى المتكامل ، فإن على عواتقهم — كمسلمين — تبعات ثقالا . . أعباء جساما . .

ولم تمض إلا سبعة شهور على الهجرة ، حتى كان رسول الله

ـ صلوات الله عليه ـ يعقد أول لواء لعمه حمزة بن عبد المطلب على رأس ثلاثين راكبا ، فبلغوا سيف البحر ، يعترضون عيرا لقريش ، قد جاءت من الشام تريد مكة ، فيها أبو جهل فى ثلاثمائة راكب ، فالتقوا واصطفوا للقتال ، فمشى بينهم مجدى بن عمرو الجهنى ، حتى انصرف الفريقان بغير قتال ، وعاد حمزة رضى الله عنه بمن معه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره بما حجز بينهم مجدى ، وأنهم رأوا منه نصفة ، فقال ـ صلوات الله عليه : إنه ـ ما علمت ـ رشيد الرأى . .

ثم عقد ـ صلوات الله عليه ـ لواء لعبيدة بن الحارث ابن المطلب ، وبعثه ـ وهو أسفل ثنية المرة ـ على رأس ثمانية أشهر فى شوال : « قيل أن هذه السرية كانت مع سرية حمزة » فحمل اللواء مسطح بن أثاثة ، فخرج فى ستين راكبا من قريش ، فلقى مكرز بن حفص ، وقيل عكرمة بن أبى جهل ، وقيل أبا سفيان ، على ماء يقال له : أحياء من بطن رابغ ، وأبو سفيان فى مائتين ، ولم يحدث قتال إلا أن سعد بن أبى وقاص رمى بما فى كنانته ، وكان فيها عشرون سهما ، ما منها سهم إلا وأصاب ، فكان أول من رمى فى الإسلام بسهم ، ويرى بعض المؤرخين أن هذه السرية كانت سابقة على سرية حمزة . .

ثم عقد — صلوات الله وسلامه عليه — لواء لسعد بن أبى وقاص إلى الخرار — موضع بناحية المدينة — حمله المقداد بن الأسود ، فى عشرين رجلا على رأس تسعة أشهر من الهجرة ، يريدون عير قريش ففاتتهم .

ثم غزا — صلوات الله وسلامه عليه — ودان ، وهو جبل بين مكة والمدينة ، فخرج فى صفر على رأس أحد عشر شهرا من الهجرة ، واستخلف على المدينة سعد بن عبادة ، فبلغ الأبواء ، فلم يلق كيدا ، فوادع بنى ضمرة ، على ألا يعينوا عليه أحدا ، ثم عاد إلى المدينة . .

* * *

هذا ما وقع ، بل بعض ما وقع فى السنة الأولى من الهجرة ، وهو يعطينا فكرة واضحة ، أن مرحلة ما بعد الهجرة ، لم تكن مرحلة دعة وراحة واسترخاء ، وإنما كانت مرحل عمل وعناء . .

فإذا أضفنا إلى هذا الأعمال التنظيمية التى قام بها — صلوات الله وسلامه عليه — كالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وكموادعة اليهود ، وغير ذلك — وهو عمل ليس باليسير ، تبين لنا فى وضوح ، أن الهجرة كانت بداية عمل .

ونقطة تحول نحو الانطلاق . . . هذا الانطلاق الذى كانت قاعدته البناء الإسلامى المتكامل ، الذى يرتكز على أربعة أسس متينة :

١ — العقيدة الدينية .

٢ — الدولة الإسلامية .

٣ — التشريع الإسلامى .

٤ — القوة الإسلامية .

أولا :

كانت العقيدة الإسلامية إبان الفترة المكية تسير فى خطين غير متوازيين ليلتقيا فى النهاية ، وكان لابد لها أن تسير فى خطين متوازيين ليلتقيا فى النهاية وليس معنى هذا ، أن العقيدة الإسلامية بدأت منقسمة على نفسها ، ولكن معناه أنه كان للعقيدة منهجان فى وقت واحد ، لكل منهما مهمة يؤديها ، ولا تناقض بينهما . .

وإذا كان أحد المنهجين سلمياً والآخر هجومياً ، فلا يعنى أيضاً أن المنهجين متناقضان ، لأن كلا من المنهجين كان فى خدمة الآخر ، ليحققا معاً فى نهاية المطاف الهدف الأسمى المنشود . .

ولنضرب مثلا يقرب المسألة إلى الأذهان :

لو أن قائداً قسم جيشه إلى فرقتين : إحداهما هجومية والأخرى دفاعية ، فلا يمكن أن يقال :

إن الجيش منقسم على نفسه ، ولا يمكن أن يقال أيضاً : أن هناك تناقضاً بين الفرقتين . .

لماذا ؟ لأن كل فرقة تخدم الأخرى ، فالفرقة الدفاعية تيسر للفرقة الهجومية مهمتها ، كما أن الفرقة الهجومية تخفف عن الدفاعية من أعبائها . .

كذلك العقيدة الإسلامية فى مكة بمنهجيها السلمى والهجومى . كلاهما فى خدمة الآخر . .

فالمنهج السلمى : يعرض العقيدة الجديدة السليمة عرضاً هادئاً سلميا . .

والمنهج الهجومى يناقش العقيدة القائمة ليكشف عن حقيقتها . وتبدو عارية من كل منطق يقبله عقل سليم وفكر ثاقب ، حتى يتركها تتداعى على نفسها ثم تتحول إلى أنقاض . .

والمنهج السلمى ، حين يعرض العقيدة الجديدة السليمة إنما يخدم المنهج الهجومى ، لأنه يلفت الأنظار إلى أن ما عدا هذه العقيدة الجديدة السليمة باطل وزائف ، فييسر مهمة المنهج الهجومى التى تهدف إلى تعرية العقيدة الباطلة الزائفة . .

والمنهج الهجومي، حين يعرى العقيدة الباطلة الزائفة، إنما يخدم المنهج السلمي، لأنه ييسر له مهمته في إقرار العقيدة الجديدة السليمة، وفي أن تشق طريقها بسهولة بعد أن يحول ما يعترضها من مقاومة إلى أنقاض خائرة متناثرة.

فإذا أضفنا إلى ذلك: أن كلا المنهجين — وهو يودي مهمته — يعتمد على مناقشة العقل، وأن غاية المنهجين واحدة هي إحداث إنقلاب في التفكير أو في السلوك، بدا لنا في وضوح أن اختلاف الوسيلتين في المنهجين لا يعني تناقضهما، ولا سيما إذا كانت الغاية واحدة..

هذا تمهيد لا مندوحة عنه ليسلط الأضواء على طبيعة العقيدة في المرحلة المكية..

إن الدعوه الإسلامية في هذه المرحلة كانت تواجه وثنية متأصلة في عرب مكة، بل في المنطقة العربية، ولكن حديثنا الآن عن عرب مكة باعتبار أنهم أول جبهة واجهت الدعوة وقاومتها، وهذا شيء طبيعي، فالدعوة نبتت فوق أرضهم، ونشأت بين أحضانهم وتسللت إلى بيوتهم..

هذه الوثنية المتأصلة فيهم، هي تراثهم الروحي منذ مئات السنين،

لها فى عقولهم قداسة ، ولها فى أعناقهم ولاء ، ولها فى سلوكهم طاعة ، ولها فى وجدانهم إنابة ، ولها فى قلوبهم خشوع ولها فى أحاسيسهم ومشاعرهم رهبانية .

كذلك واجهت الدعوة الإسلامية بالإضافة إلى الوثنية المتأصلة فيهم ، عادات جاهلية مغرقة فى جاهليتها ، هى تراثهم الاجتماعى ، منذ مئات السنين ، لها لديهم ما للوثنية من قداسة ، وولاء ، وطاعة وإنابة ، وخشوع ورهبانية . .

وهاتان الجبهتان العريقتان : الوثنية والعادات ، تصدتا للعقيدة الجديده ، تحمل قريش فى مكة — رايتيهما معاً ، وتؤلف جيشيهما معاً ، وتتسلح بعداتهما معاً . .

ومع أن طبيعة المعركة فكرية ، ميدانها العقل ، ومجالها المنطق ، وأسلوبها المناقشة ، وغايتها الوصول إلى الحق ، وثمرتها احترام الكيان الإنسانى كآدمى إرادة الله أن يكون خليفته فى الأرض . . إلا أن قريشاً حولتها إلى معركة مسلحة من طرف واحد ، من طرفها هى . .

إن قريشاً حملت السلاح لأنها تملكه ، وتملك القوة البشرية التى تحمله ، وفى نفس الوقت لا تحمل منطقاً سليماً ، إنها تحمل وحسب قلوباً صماء ، وأفئدة هواء ، وبصائر عمياء ، وعقولا مغلقة ، وأفهاما متحجره ، ومشاعر ميتة ، وطباعاً خشنة ، وأكباداً غلاظاً . .

أما أتباع الدعوة فلم يحملوا السلاح، لأنهم لم يكونوا يملكون السلاح ، ولا الطاقة البشرية التى تحمله ، وفى نفس الوقت ، تملك عقيدة راسخة ، وإيماناً عميقاً ، ومنطقاً سليماً ثم حقاً يقيناً ، وثقة كبرى فى الله عز وجل .

ولبثت المعركة بين أتباع الدولة الإسلامية وقريش ، وبرغم الفارق الشاسع بين الفريقين ، فى العدد والعدة ، إلا أن النصر كان حليف العقيدة الإسلامية . .

وفى المعارك الفكرية لا يقاس النصر إلا بالنتيجة ، وكان هدف العقيدة الإسلامية فى الفترة المكية ليس ضم أراض ، ولا اكتساب بشر ، ولا ظفراً بغنائم ، وإنما كان هدفها إحداث انقلاب فكرى ، وإن استجابت له قلة — إلا أنه أحدث اهتزازاً عنيداً فى تفكير الكثرة الساحقة الباقية ، هذا الإهتزاز العنيف أصاب من الكثرة الساحقة الباقية — سادتها وعامتها على السواء ، أما السادة فقد حال كبرياؤها دون الاعتراف به ، وأما العامة فقد حال بينها وبين الاعتراف به — هيبتها . .

لقد انتهت المعركة الضارية التى لبثت ثلاثة عشر عاماً ، بين العقيدة الإسلامية وأتباعها من ناحية ، وبين الوثنية وأتباعها ، بأن

اضطر أتباع الدعوة الإسلامية إلى هجرة أرض المعركة حاملين عقيداتهم إلى أرض جديدة ، تاركين آثارها لتؤدى دورها فى الوقت المناسب . .

وخيل للأعداء أن النصر قد ظفرت به الوثنية على العقيدة الإسلامية ، وفاتهم أن العقيدة لم تنهزم ، وإنما انهزمت قلوبهم الجدبة لأنها لم تصلح لإنباتها ، وعقولهم المغلقة ، لأنها لم تصلح لإدراكها ، كما فاتهم أن حملة العقيدة لم ينهزموا ، وإنما انتصروا ، لأنهم حطموا القيود وتحولوا إلى أرض جديدة ليبدأوا منها الانطلاق :

* * *

وفى الأرض الجديدة بدأت العقيدة مرحلة جديدة ، أساسها مرحلتها القديمة فى مكة على مسار ثلاثة عشر عاما ، ومنهجها نفس المنهج ، غرس العقيدة السليمة ، ونقض العقيدة الفاسدة ، غرس العادات الصحيحة ونقض العادات المغرقة فى جاهليتها ، إلا أن العقيدة ضمت إليها شيئاً جديداً . . هو ارتباط العقيدة بالتشريع الأخلاقى فقد كانت العقيدة فى مكة يغلب عليها طابع الاعتقاد وهو جوهر الإيمان ، وفى نهاية الرحلة أضيف إليها سلوك عملى واحد ، هو الصلاة ، أما فى المدينة فقد تحولت العقيدة — مع احتفاظها بجوهرها إلى سلوك ، ففرض الصوم والزكاة والحج . . .

كما أن العقيدة فى مكة غلب عليها طابع نبذ العادات الجاهلية ، لكنها فى المدينة أضافت أخلاقيات سلوكية ، يلتزم بها أتباعها ، مع احتفاظها بالجوهر ، وهو استمرار نبذ العادات المغرقة فى جاهليتها .

ولنضع معاً إلى الكلمات الأولى لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فى المدينة ، وفى أيامه الأولى بها ، لنرى قيما جديدة يشير إليها ، ويركز عليها ، ولو أننا تتبعنا السور القرآنية الأولى بعد الهجرة ، وكذلك كلمات رسول الله عليه السلام ، لتبين لنا فى وضوح أن جوهر العقيدة واحد فى المرحلتين : المكية والمدنية ، إلا أنه فى المدينة حدثت إضافات اقتضتها ظروف الدعوة وظروف أتباعها فى كلتا المرحلتين .

فى مكة كانت العقيدة تواجه كثرة منكرة معارضة ، وفى المدينة كانت العقيدة تواجه كثرة مؤمنة طائعة . .

والعقيدة فى مكة كانت تمر بمرحلة دفاعية عن نفسها ، بينما فى المدينة كان يغلب عليها طابع التوجيه السلمى . .

وفى مكة كانت العقيدة ترسى قواعدها فى القلوب والأذهان ، وفى المدينة كانت ترسى قواعدها — بالإضافة إلى ذلك —

فى المجتمع ، وتعد نفسها لتكون أساساً فى البناء الإسلامى الشامل ، وأساساً أيضاً فى بناء الدولة الناشئة .

ولنصغ معاً إلى الكلمات الأولى لرسول الله ـ صلوات الله عليه ـ فى أول عهده بالمدينة :

« . . أما بعد ، أيها الناس .. فقدموا لأنفسكم .. تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالا فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها . . إلى سبعمائة ضعف .. »(١) .

كلمات غالية ثمينة لا تحتاج إلى شرح ، تدعو إلى تنمية إحساس المسلم نحو أخيه المسلم ، تذكر قاعدة الخير فى الإنسان ، وكان المجتمع الإسلامى الناشىء فى مسيس الحاجة إلى مثل هذه الكلمات

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير وسيرة ابن هشام من رواية البيهقى .

الغالية ، فى هذا المجتمع طبقة الفقراء من المهاجرين ، وطبقة الأثرياء من الأنصار .

وكلمات أخرى :

.. إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ..

قد أفلح من زينه الله فى قلبه .. وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه . .

أحبوا ما أحب الله . . وأحبوا الله من كل قلوبكم . . ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم . . فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى .

فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً . . واتقوه حق تقاته . .

واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم إن الله يغضب أن ينكث عهده . . »(١)

فى هذه الكلمات الغالية بدا مفهوم الحب ، وأنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالله عز وجل ، فإذا أحب المسلم فليحب ما أحب الله ، ثم ليسكن حبه لله من كل قلبه ، ثم ليقم الحب بين الجميع بروح الله .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير وسيرة ابن هشام من رواية البيهقى .

وفى هذه الكلمات الغالية ، بدا أيضاً مفهوم صلة المسلم بكتاب ربه هادياً له على الطريق ، كما بدا معنى سلوكى جديد ، هو أنه لا معنى للقول إذا لم يصدقه العمل ، والقول هنا ليس كل قول ، وإنما صالح القول . . وبدا كذلك معنى سلوكى جديد آخر ، هو أن المسلم فى كل شئونه مرتبط مع الله بعهد الله ، والله يغضبه أن ينكث عهده ، وكلمة يغضب تعطى مفهوماً جديداً ، إذ تبين مدى الإثم الذى يرتكبه من ينكث عهد الله عز وجل . .

إن العقيدة الإسلامية أدخلت فى المدينة ألواناً من التكاليف الجديدة ، ونقصد بها العبادات : الصوم والزكاة والحج ، ولم يكن فى مكة من العبادات سوى الصلاة،التى لم يستحكم أمرها إلا فى المدينة، حيث أقيم مسجد يجتمع فيه المسلمون للصلاة وشرع الأذان ينبه الأذهان والأسماع لميقاتها . .

والعقيدة الإسلامية أقرت مبادىء فى المدينة هى من جوهرها ، مبادىء تتصل بها ذاتها ، ومبادىء تتصل بمجتمعها ، ومبادىء تتصل بالإنسانية قاطبة ، ربما أشار القرآن إليها فى مكة أو أحاديث الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — لكنها بعد الهجرة ، والاستقرار النسبى للعقيدة واتباعها ، برزت كمبادىء لها مفاهيمها ، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من سلوك المجتمع . .

● مبادىء تتصل بالعقيدة :

الدين يسر لا عسر . .

لا تزمت فى الدين ولا جمود . .

لا تقصير فى الدين ولا قصور . .

لا إفراط فى الدين ولا تفريط . .

● مبادىء تتصل بمجتمع العقيدة :

الدين والدنيا معا . . الروح والمادة معاً . . لاطغيان للروح على المادة ، ولا طغيان للمادة على الروح . .

الحياة الدنيا والحياة الأخرى معاً . . لا طغيان للحياة الدنيا على الحياة الأخرى ، ولا طغيان للحياة الأخرى على الحياة الدنيا . . إلا أن الآخرة خير وأبقى . .

عزة المؤمن جزء من عقيدته . . فإذا أعطى الذلة من نفسه فكأنما أسلم فى جزء من حرية المؤمن جزء من إرادته وإرادته جزء من عزته وعزته جزء من عقيدته . .

● مبادىء تتصل بالإنسانية . .

إكرام البشرية . . وإكرام البشرية يعنى تحريرها من ربقة العبودية وضواغط الاستعباد . .

إرساء قواعد السلام . . الا إقرار لحرب إلا إذا كانت وسيلة إلى إقرار السلام .

* * *

هذه مجرد ملامح سريعة للعقيدة الإسلامية فى مرحلتها الجديدة ، ومجرد خطوط بارزة للمبادىء التى أرست قواعدها ، بعد أن اكتسبت فى المدينة جانباً من الاستقرار النفسى والاجتماعى معاً لأتباعها . .

يجب أن نعيد إلى الأذهان :

أن جوهر العقيدة الإسلامية سواء كان فى مكة ، أم فى المدينة ، واحد لم يلحقه تغيير ولا تبديل ، ولن يلحقه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . .

والذى حدث أن العقيدة فى مكة اتخذت أسلوباً لإرساء قواعدها ، يتفق مع الأوضاع المحيطة بها :

وثنية متمكنة راسخة فى العقول والأذهان ، وعادت مفرقة فى الجاهلية مهيمنة على السلوك ؛ تحمى هذه وتلك فئة عاتية جبارة ، مستبدة عنيدة ، ليس لديها أى استعداد لتناقش طريق الهدى فضلا عن أن تسلكه ، ولا أدنى استعداد لتناقش قضية الحق فضلا

عن تتبعه ، ولا أدنى استعداد لتتفهم العقيدة السليمة ، فضلا عن أن تؤمن بها . .

وإلى جانب العقيدة ، تقف فئة آمنت بها ، واستقر إيمانها بها فى أعماقها ، ورسخ فى أذهانها . . . لكنها فئة قليلة ، مستضعفة فى الأرض ، تعيش فى فزع وروع ، وتخشى أن تتخطفها فئة الباطل القوية . . .

وكان على العقيدة الإسلامية فى المرحلة الأولى بمكة ، أن تتصدى للفئة الباغية لمناقشتها وتعريتها ونقض عقائدها ، وعاداتها ، وفى نفس الوقت ، تأخذ بيد الفئة المؤمنة ، تصقل عزيمتها ، وتصمد إيمانها فى الثقة بالله ، وتمنح إرادتها طاقة من القوة حتى تصبر وتصابر ، وتحتمل وتصمد أمام جبهة عاتية ، لا تعرف الهوادة فى البطش ، ولا الرحمة فى التنكيل ، ولا المروءة فى الاضطهاد ، ولا الرجولة فى أى سلوك تجاه الفئة المؤمنة . .

أما فى المدينة ، فقد تغيرت الأوضاع نوعاً ما . .

فالوثنية تصفى نشاطها ، والعادات الجاهلة المعتمة تحمل عصا الترحال إلى أرض أخرى . .

والفئة المستضعفة المغلوبة على أمرها ، أصبحت جبهة قوية آمنة مطمئنة تملك إرادتها ، ولا تخاف إلا الله . .

والفئة الجبارة العاتية لاوجود لها ، فقد تركت فى مكة مع وثنيتها وجاهليتها ، تجتر الأسى ، لانتصار العقيدة الإسلامية وأتباعها على طريق الهجرة ، وتفكر من جديد فى جولة أخرى : . .

* * *

ويجب أن لا يفوتنا مرة أخرى :

أن الفترة المكية بالنسبة للعقيدة ، كانت بمثابة بداية لمرحلة تحول كان لا بد منه ، وأن الفترة المدنية كانت لها بمثابة قاعدة لهذا التحول ، وفى نفس الوقت قاعدة للانطلاق نحو آفاق واسعة لاحدود لها ، لتحقيق عالمية العقيدة ، حتى يكون الدين كله لله . .

ثانياً : الدولة :

إن آخر ما رجح من الآراء فى العصر الحديث ، أن الدولة لكى تكون دولة فى العرف الدولى ، يجب أن يتوافر لها أركان ثلاثة : الأرض . . والشعب . . والنظام السياسى . .

فإذا فقدت ركنا من هذه الأركان الثلاثة ، فقدت وجودها كدولة ، فى نظر القانون الدولى ، ومبادئه المتعارف عليها . .

فالأرض بلا شعب لا تعتبر دولة ، والشعب بلا أرض لا يعتبر دولة ، والأرض والشعب بلا نظام سياسى لا يمثلان دولة .

أما الإسلام . .

فالدولة عنده تقوم على أربعة أركان .

العقيدة : ولها مركز الصدارة . .

والأرض : التى تستقر عليها الدولة . .

والشعب : ويتضمن مفهوماً جديداً ، فالشعب المسلم جميعه يعتبر نفسه جيشاً للدعوة ، لحمايتها ونشرها . .

والنظام السياسى : ويشمل الحكومة والتشريع معاً . .

فالعقيدة هى أساس الإسلام الأول ، وركن له مركز الصدارة فى أركانه الخمسة ، وليس المقصود منه أن يكون ركناً اعتقادياً يقوم على الإيمان بالله ، ورسله ، وكتبه ، وملائكته ، واليوم الآخر بعثاً وحسابا ، والقدر خيره وشره ، حلوه ومره فقط ، وإنما المقصود منه أن يكون ركناً له فاعليته فى مسار الدولة الإسلامية . .

ويجب أن يكون مفهوماً لدينا ، الفارق بين الفرد والدولة فى نظر الإسلام . .

فالفرد ، إذا توافرت له الأركان الخمسة ، وكان ركن العقيدة ركناً اعتقادياً وحسب ، حتى ولو لم يكن لهذا الركن فاعلية فى حياته ، فإنه كاف لاعتبار الفرد مسلماً ـ وإن كان مسلماً مقصراً أو عاصياً ـ

كان له ما للمسلمين فيما يتصل بشئون الحياة كلها دينياً واجتماعياً ، فله أن يتزوج مسلمة ، وينسب أولاده للإسلام ، وإذا مات صلى المسلمون عليه ، ودفن فى مقابر المسلمين ، ويبقى أمره بعد ذلك مفوضاً إلى خالقه . .

أما الدولة فليست كذلك فى نظر الإسلام ، لأن العقيدة يجب أن يكون لها فاعليتها فى كل ما يتصل بالإسلام ، أرضاً وشعباً ونظاما . . .

* * *

قلنا : إن الشعب والجيش فى نظر الإسلام شىء واحد ، فكل مسلم يجب أن يعتبر نفسه جنديا فى جيش المسلمين ، وكل جندى فى جيش المسلمين هو واحد من أفراد الشعب المسلم . .

هذا معناه أن الإسلام يحتم على كل مسلم أن يكون مدربا على السلاح ، ولو لم يكن جنديا عاملا فى الجيش ، فإذا كان هناك نفير عام للجهاد فى سبيل الله هب الجميع دون تخلف ، إلا لعذر مقبول — كالعجز عن حمل السلاح — أو ظرف طارىء ، كالذى علم عنه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أن له أبوين كبيرين ، فمنحه رخصة التخلف عن الجهاد ، قائلا له : ففيهما فجاهد . .

وليس بعد ذلك من استثناءات كالتى لها اعتبارها فى الدولة الحديثة ، إلا ما يراه الإمام ضروريا لحراسة الحدود والثغور ، أو للإشراف على الأمن الداخلى للبلاد ، أو لإدارة الشئون الداخلية للبلاد . .

هذا كان شأن النظام الإسلامى فى المدينة ، والدولة الإسلامية تؤسس ، فالشعب المسلم هو الجيش الإسلامى ، والجيش الإسلامى هو الشعب المسلم ، لكن عندما اتسعت رقعة الدولة ، وكثر عدد المسلمين ، لم تكن المعارك فى حاجة ماسة إلى استيعاب كل المسلمين ، وإلا أصيبت الحياة الاقتصادية بالشلل ، لذلك كان منطقيا أن يكون للدولة جيش مهمته القتال ، يرتزق من بيت مال المسلمين فى الحرب والسلم معا . .

لكن المفهوم الإسلامى ظل باقيا ، وهو أن كل أفراد الدولة جنود فى وقت الحاجة ، معنى ذلك أنه يحتم على كل مسلم قادر على حمل السلاح أن يكون مدربا على الجندية تدريبا كاملا شاملا . .

فى العصر المدنى ، كان التطوع للجهاد فى سبيل الله على أشده ، والعقيدة هى التى تؤدى دورها ، فالجندى يذهب إلى المعركة ، وهو يشتهى الشهادة ابتغاء نصرة كلمة الله لتكون هى العليا ، وكثيرا

ما كان — صلوات الله وسلامه عليه — وهو يتهيأ للمعركة ، يرد شبابا صغيرا أخضر العود يلح على الاشتراك فى المعركة ، فيطيع وأعينه تفيض من الدمع . .

وهناك مسئولية ، تقع على عاتق الدولة والفرد ، إذا توقف الجهاد . . أو تعطل . .

ذلك لأن الإسلام ينظر إلى الجهاد على أنه فرض عين تارة وفرض كفاية تارة أخرى :

فإذا اعتدى على أرض إسلامية أو حدود إسلامية أو على شعب مسلم فالجهاد فرض عين . . على كل قادر على حمل السلاح . . وإذا لم يحدث شيء من هذا ، فالجهاد فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين ، وذلك لنشر الدعوة الإسلامية ، والمهم أن يكون الجهاد قائما . . وأن يكون الجيش على أهبة السلاح دائما . .

ويجب أن لا يفوتنا معنى جدير بأن نفقهه هو :

أن أرض الدولة الإسلامية ، كلها منطقة حرام ، بمعنى أن العدوان عليها هو عدوان على العقيدة ، والدفاع عنها ضد أى عدوان أجنبى أو عدوان داخلى ، يدخل ضمن الجهاد الذى هو فرض عين . .

والعدوان الخارجى ليس فى حاجة إلى مناقشة ، لكن العدوان

الداخلى هو فى حاجة إلى إلقاء بعض الضوء عليه ، فلو أن قبيلة كبرى حاولت الاستقلال بالأرض التى هى عليها عن الدولة ، فسلوكها هذا عدوان على الدولة ، وهم يومئذ بغاة ، وجهادهم أيضا فرض عين على كل مسلم قادر على السلاح . .

ويجب أن لا يفوتنا معنى ثان جدير بأن نفقهه بعناية ، هو :

أن الدولة الإسلامية ليست الغاية النهائية لمطالب الإسلام ، بل هى حلقة فى سلسلة متصلة الحلقات تؤدى إلى إيجاد أمة إسلامية كبرى ، فالدولة إذن وسيلة ، لكنها لا تفقد قيمتها إذا تحققت الغاية ، بل يجب ان تستمر فى اداء رسالتها من أجل تحقيق الغاية وبقائها ، فهى بالنسبة للأمة كالغذاء بالنسبة للحياة ، فالغذاء مثلا وسيلة لبقاء الحياة ، ولكى تستمر الحياة يجب أن يستمر الغذاء ، أى بقاء الغاية مرهون ببقاء الوسيلة . .

إذن فلا مانع من أن تكون هناك دولة إسلامية أو دول إسلامية ، بشرط أن تكون كل دولة حلقة فى سلسلة متصلة الحلقات هى الأمة ، وبشرط أن تصب كل دولة فى الأم الكبرى ، وإلا ، فالإسلام لا يكون قد حقق لبنائه الكبير غايته . .

ولا مانع من أن يطلق على الأمة كلمة « الدولة » ما دام مدلول

اللفظ يؤدى إلى مدلول كلمة : « الأمة » وعندئذ يطلق على الدولة بمفهومها التقليدى كلمة « ولاية » كما كان فى عصر الخلافة الراشدة .

ونعود إلى ما بدأنا به :

وهو أن الدوله التى تأسست بعد الهجرة فى يثرب ، لم تكن غاية الإسلام النهائية ، وإنما كانت وسيلة إلى غاية كبرى هى الأمة الإسلامية ، ولم تكن ظروف الدعوة الإسلامية عقب الهجرة تسمح بأكثر من إنشاء دولة ناشئة ذات حدود .

بقى من أركان الدولة ، النظام السياسى ، وهو يشمل التشريع ونظام الحكم أو الحكومة ..

تختلف الدولة فى الإسلام عن الدولة الحديثة ، فى أن تشريعات الدولة الحديثة تشريعات وضعية ، من صنع الفكر الإنسانى ، أما تشريعات الدولة الإسلامية فهى تشريعات سماوية ..

ويبدو الفرق أكثر وضوحا ، فى أن التشريعات الوضعية للدولة الحديثة ، قابلة للتغيير والتبديل ، والإضافة والإلغاء ، ما دام الإنسان الذى وضع هذه التشريعات حيا يرزق ..

ومعنى هذا أيضا ، أن هذه التشريعات ما دامت من وضع الإنسان ، فيمكن أن تخضع للأهواء والشهوات . .

أما التشريعات السماوية ، فلها أصول ثابتة ، وفروع قابلة للتصرف . . .

وإذا كان مرجع التشريعات الوضعية هو الإنسان ، فإن مرجع التشريعات السماوية هو الله عز وجل . . ثم الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — كمبلغ عن الله سبحانه . .

أما الحكومة أو نظام الحكم ، فالإسلام يترك هذا الوضع يأخذ الشكل الذى يرتضيه المسلمون ضمن إطار الخطوط العريضة التى أرادها له ، لأن الإسلام لا يعنيه هنا الشكل وإنما الجوهر ، لا يعنيه أن يكون الحكم رئاسيا أو برلمانيا ، أو رئاسيا برلمانيا معا ، وإنما يعنيه ان يقوم النظام على الشورى ، حتى لا ينشأ نظام ديكتاتورى استبدادى ، وان يقوم النظام على العدل والمساواة ، حتى لا ينحرف إلى الجور والتفرقة بين طبقة وطبقة ، أو بين فئة وفئة . .

ثالثاً : التشريع :

إن مرحلة ما بعد الهجرة ، هى مرحلة إرساء قواعد التشريع الإسلامى ، وهذه المرحلة تميزت بالإهتمام بالتشريع ، وما دامت هى البداية لتأسيس دولة ، وتكوين جماعة ، وإنشاء قوة ، وتركيز عقيدة ، فلابد أن تكون مجالا لتشريع ينتظم سلوك الدولة والفرد معاً . .

ومن الوهم أن نعتقد أن العناية بالتشريع فى الفترة المدنية يعنى إهمال الجوانب الأخرى من البناء الإسلامى ، فإن أول سورة نزلت بالمدينة — وهى سورة البقرة — كان لها مقصدان أساسيان : التشريع والعقيدة ، وما من سورة مدنية إلا وفيها العناية بالعقيدة والشريعة معاً .

والذى دعا إلى مثل هـذا الوهم ، هو أن التشريع فى الفترة المكية ، لم يكن له ما للعقيدة من مكان بارز ملموس ، فقد كانت الدعوة مهتمة بجانب العقيدة التى هى بمثابة الأساس للبناء ، وما دونها فرع لها ، وجانبٌ من جوانبها ، حيث لم تكن قد قامت دولة ، ولا أنشئت جماعة .

أما بعد الهجرة وفى الفترة المدنية ، حيث قامت دولة ، وأنشئت جماعة ، فقد كان للتشريع مكانه البارز فى كل شئون الحياة ، بالنسبة للفرد والجماعة والدولة . .

ومن الوهم أن نعتقد أن التشريع بالمدينة ، كان تشريعاً محلياً خاصاً بالجماعة المؤمنة بالمدينة ، والأجيال المسلمة القادمة بعد ذلك ، بل هو قواعد ومبادىء ترفع من قدر البشرية إذا هى أخذت بها ، وتضمن لها العدل ، وتحقق لها الإنصاف . .

إذن فالتشريع الإسلامى — وإن كان قد استقر بالمدينة ،

ولا سيما بعد أن أكمل الله للمسلمين دينهم — إلا أنه كان أيضاً بداية انطلاق نحو رقى الإنسانية ، وحياتها ، وأجيالها القادمة . .

إن الرأى القائل بأن سر الإعجاز فى القرآن الكريم هو ماجاء به من تشريع دقيق محكم ، مثل هذا الرأى يجب أن يكون له اعتباره ، وفوق الاعتبار التقدير بل والإجلال ، فلقد سبق التشريع الإسلامى تشريعات عديدة أبرزها تشريعات الرومان ، فإذا استعرضنا هذه التشريعات جميعها أحسسنا بعديد من الفجوات ، التى يهوى فيها العدل إلى الغاية الأساسية لكل تشريع . .

ولسنا نحن — كمسلمين — الذين نقول هذا فحسب بل كثير من رجالات التشريع والقانون غير المسلمين ، ولو أردنا الاستشهاد بأقوالهم لما اتسعت له صفحات هذا البحث المحدود . . وحسبنا هنا كلمة لمفكر مسيحى غربى ، هو « جيبون » قال فيها :

« القرآن مسلم به أنه الدستور الأساسى — ليس لأصول الدين فقط — بل للأحكام الجنائية والمدنية ، وللشرائع التى عليها مدار حياة نظام النوع الإنسانى ، وترتيب شئونه » .

وعظمة التشريع الإسلامى كامنة فيه ، وهو منذ زهاء أربعة عشر قرناً لا يزال يتحدى . وسيظل يتحدى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . .

إن التشريع الإسلامى قد أرسى أصوله فى الفترة المدنية على مسار عشرة أعوام ، قد شمل كل شئون الحياة الحربية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وقد اعتمد على مصدرين أساسيين هما القرآن والسنة النبوية ، على أن معظم الأحكام كانت نصوصاً عامة ، وقد ترك للعلماء والفقهاء تفسير هذه النصوص واستنباط أحكام فرعية منها . .

التشريع الإسلامى قد بلغ مرحلة الكمال ، واستوفى كل حاجيات الأمة الإسلامية ، بل والإنسانية قاطبة ، فيما يحقق الرخاء والعدل معاً . فإذا جد فى حياة الناس جديد ، فإذا كان هذا الجديد لا يصطدم بالأصول العامة للتشريع أو العقيدة ، فللمسلمين أن يتقبلوا ، إذا كان يحقق مصلحة لهم ، كما لهم أن يرفضوه ، إذا كان يجلب ضرراً عليهم . . .

وقد تضمن التشريع الإسلامى حدوداً ، لا تقبل التغيير ولا التبديل ولا الإضافة ولا الحذف ، لأن هذه تقيم قواعد العدل ، وتحقق للبشرية الأمن والاستقرار ، ووكل إلى الدولة تنفيذها على مرتكبيها بلا هوادة وبلا التواء . .

رابعاً : القوة :

عندما انتقلت الدعوة الإسلامية إلى المدينة ، وبدأت فى تأسيس العقيدة والدولة ، كان لابد لها من قوة ، تقف إلى جوارها وهى تنشر مبادئها فى كل مكان ، وتذود عنها أى جبهة عدائية تتصدى لها ، وتعوق مسارها ، أو تتآمر عليها لإزالتها من الوجود ، كما كان لابد للدعوة من هذه القوة لتنشر مبادئها فى حمايتها ، أو لتزود عنها قوى الشر التى تتربص بها ، كذلك كان لابد لهذه القوة من أن تكون ، لتقف فى ظل الدعوة إلى جانب الحق فى الدفاع عن مستضعفين فى الأرض ، أو فى مقاومة باطل يريد أن يستبد فى الأرض .

وإذا نحن إستعرضنا تحركات القوة الإسلامية فى عصر النبوة والخلافة الراشدة ، لما وجدنا لها مساراً فى طريق آخر غير الذى أشرت إليه فى هذه السطور ، ولما وجدنا لها هدفاً من تحركاتها إلا أن يكون هذا الهدف :

إما الدفاع عن كيانها وأرضها . . وتأمينها . .

وإما لصد المعترضين طريقها لنشر الدعوة . .

وإما لتغيير أوضاع ظالمة جائرة ضجت منها البشرية . .

ونحن نتحفظ بعبادة عصر النبوة والخلافة الراشدة — لأن

أى تحرك للقوة الإسلامية خلال هذه الفترة ، يعتبر الإسلام مسئولا عنه ، وليس معنى هذا أن القوة الإسلامية بعد هذه الفترة قد انحرفت دائماً عن المبادىء الإسلامية المقررة ، وإنما معناه أن أى إنحراف للقوة الإسلامية حدث بعد عصر النبوة والخلافة الراشدة يعفى الإسلام من المسئولية إذا قيست الأمور بمقاييس الإنصاف والنزاهة والمنطق السليم ، مادام الإنحراف لم يكن أساسه مبدءا إسلاميا مقرراً : .

إن مفهوم الدفاع ، ليس معناه أن تذود الدولة عن أرضها داخل حدودها ، معنى هذا أنها لا تبدأ الدفاع إلا إذا هوجمت وهى فى عقر ديارها ، إنه لمن السذاجة أن يقتصر مفهوم الدفاع عند هذا الحد ، وإذا كتب على الدول أن تكون قاب قوسين أو أدنى من الضياع .

إذا فمن حق الدولة — إذا هى أحست أن هناك خارج حدودها خطراً محدقاً بها ، أن تخرج إلى مكا من الخطر للقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره ، وتدفع هى الثمن غاليا باهظا .

وهذا ما حدث فى عصر النبوة فى أعوام المدينة العشرة ، فقد كانت سائر غزواته وسراياه — صلوات الله وسلامه عليه — دفاعا عن العقيدة ودولتها الناشئة وتأمينا لهما ضد طغيان الشر التى

لم تهدأ لحظة واحدة للانقضاض على العقيدة والدولة معا والإحاطة بهما .

إن قريشا التى أعلنت على الدعوة وأتباعها خلال ثلاثة عشر عاما بمكة — حربا شعواء لا هوادة فيها ، لم ترفع راية الاستسلام، عندما كتب النصر لها بالهجرة من مكة إلى المدينة ، بل حتى لم تفكر فى أن تقف من الدعوة وأتباعها موقف الحياد والمهادنة فضلا عن التعايش السلمى معهما . لكنها أخذ تستعدى القبائل العربية كلها لتقف إلى جانبها فى الانقضاض على الدعوة الجديدة ودولتها الناشئة . .

وحتى لو لم تكن هناك مؤامرات على الدعوة وأتباعها ، تدبر خططها فى مكة ، وتنسج خيوطها فى القبائل العربية المشركة المتحفزة ، أفليس من حق الدولة الإسلامية الناشئة أن تؤمن نفسها وحدودها ، والمنطقة العربية بأسرها تعتبر منطقة خطر بالنسبة لها .

ثم إن الدعوة الإسلامية التى تحمل منهجا إصلاحيا شاملا ، أليس من حقها أن تتحرك لتنشر مبادئها فى أى مكان ، فإذا تصدى لها من يضر على إعاقة مسارها ، أفليس من حقها أن تتصدى قوتها له حتى يفسح لها الطريق ؟ وهل تلام الدعوة الإسلامية إذا هى سيرت قواتها إلى دولتى الفرس والرومان المتاخمتين لدولتها ، لتضع

هذا الأوضاع الجائرة هناك ، والمظالم التى قصمت ظهور شعبيهما والفساد الذى استشرى حتى عصف بسائر القيم الإنسانية ؟

* * *

وماذا بعد ذلك ؟

إننا ننسى دائما أن للدعوة الإسلامية رسالة ليست خاصة بأتباعها وحدهم ، بل هى عامة تشمل الإنسانية والبشرية فى ظل زمان ومكان ، وليس فى هذا القول شىء من الخيال ، لأنه ليس هناك أى مجال لتأويل الآيات القرآنية التى أشارت إلى هذه الحقيقة المقررة ومنها :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » — « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » :

وإننا لا ننسى دائما أن للدعوة الإسلامية غاية كبرى — هى أن يكون الدين كله لله — وفى سبيل هذه الغاية تقوم مسئولية على عاتق الدعوة الإسلامية إذ هى تهاونت فى تحقيقها ، والجهاد الذى هو فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين ، إنما شرع من أجل تحقيق هذه الغاية .

وهذا كلام لا لبس فيه ولا غموض ، ولا يفسح مجالا للف أو الدوران .

لكن الذى حدث ، أن الجهاد الذى هو فرض كفاية وخاص

بنشر الدعوة حتى تتحقق الغاية الكبرى — أن يكون الدين كله لله — قد تعطل منذ أمد ، حتى نسيه المسلمون ، وليس له من أثر فى حياتنا ، ولا يكاد يحس به أحد إلا طلاب العلم ، وهم يدرسونه فى كتب الفقه الإسلامى .. حدث هذا ونسينا نحن المسلمين — هذا اللون من الجهاد المفروض ، وقاعدته المقررة فى الشريعة الإسلامية وبمرور الزمن خيل إلينا — نحن المسلمين — أن هذه القاعدة المقررة نشاز لم تعد تتقبلها نفس أو يهضمها عقل .

وماذا بعد ذلك أيضاً ؟

فإن المناوشات التى تسلط على الإسلام ، كثيرا ما تتجه إلى الإسلام كداعية حرب ، وهى مناوشات مغرضة سرعان ما ترد إلى نور القائلين بها .

وهؤلاء المغرضون لا يحاولون التعرض للاسلام لداعية سلام .

ولنا أن نقف وقفات تأمل عند بداية المرحلة الجديدة للدعوة الإسلامية فى يثرب .

فأول ما بدأ به الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — بعد تأسيسه مسجده وساكنه ، هو إقرار السلام بين أكبر قبيلتين فى يثرب ، هما قبيلتا الأوس والخزرج ، وهذا شىء ضرورى بالنسبة للدولة الناشئة ، وهاتان القبيلتان تمثلان الأغلبية من رعاياها . .

ثم اتجه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — إلى خطوة إيجابية أكثر إتساعاً وأكثر شمولا ، فقد كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه اليهود ، وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم كما يقول ابن اسحق .. ولا يتسع المجال هنا لتسجيل نصوص هذا الكتاب الذى يعد — بحق — وثيقة لا يعتز بها تاريخ الإسلام وتاريخ دعوته ، يكفى أن يكون من نصوصها :

• « وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين .. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .. مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يرتغ إلا نفسه — أى لا يهلك إلا نفسه — وأهل بيته ، وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .. » .

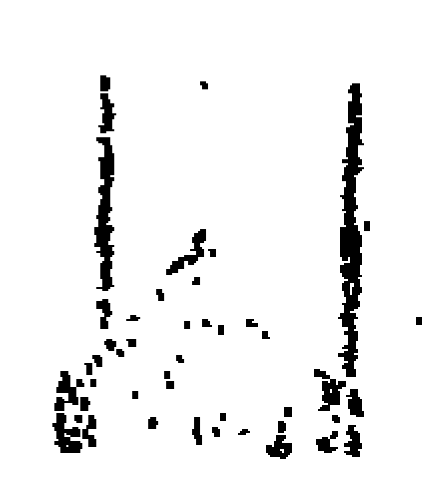
• « وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحفية .. وإن بينهم النصح والنصحية والبر دون الاثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه .. وإن النصر للمظلوم ..

• « وأنه وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو إشتجار يخاف فساده .. فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

« وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم . وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وليس الإسلام بعد ذلك مسئولا عن غدر اليهود بالصد ، ولا عن تأليفهم مع المنافقين طابورا خامساً ، فى قلب الدولة الإسلامية بيثرب ، ولا عن إشتراكهم فى مؤامرات عدوانية من الخارج مع قريش ..

ثم إن رسول الله مديد السلام إلى كل راغب فى السلام فوادع كثيرا من القبائل ، وبعث بعثات سلام إلى الأنحاء المتطرفة ، كما أرسل رسائل إلى الملوك فى الممالك البعيدة يدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولم يدع فرصة لتحقيق السلام إلا واغتنمها .. لأن السلام مبدأ مقرر فى شريعته .



مناقشات

هذه مناقشات على الطريق سنعرضها فى إيجاز :

• فصل الدين عن الدولة :

إن الذين يجهلون أن الدين والدولة مرتبطان ارتباطاً وثيقاً ، وأن الفصل بينهما هو طمس لجوهر الدين ، يجب أن يحتفظوا بآرائهم فى أذهانهم ، يجب عليهم أن يراجعوا أفكارهم قبل أن يصدروا أحكامهم ، فتلك حقيقة من البداهة بمكان .

أما الذين يعلمون أن فاصل بين الدين والدولة ، أو بين الدين والحياة ، ومع ذلك فهم يتمنون بل يشتهون أن يظل الدين فى معزل عن سياسة الدولة ، بل وعن حياة الناس بأسرها ، فهم خارجون عن دائرة المناقشة ، لأنهم — بطبيعتهم — يسعدون بالحياة التى تموج بالإباحية والانحلال ، بل ويضيقون أيضاً — دون أن يكشفوا عن ذلك — بضوابط الأخلاق والسلوك فى القانون الوضعى ، بلغة الإسلام !

وأما الذين يرون الفصل بين الدين والدولة إشفاقاً على الدين ، وحفاظاً على مكانته ، من أن تلعب به الأهواء ... فهؤلاء لهم موقف مائع لا ضابط له ، فالمسألة ليست إشفاقاً على الدين أو غير إشفاق

عليه ، وإنما هى مسألة لها ارتباط بقضية من قضايا الدين تناولتها الآراء فى بداية هذا القرن حتى اليوم . .

والحقيقة أن هذه المسألة أقل بكثير من أن تكون قضية من قضايا الإسلام . لكن ذوى الأهواء من كل من هب ودب ، هم الذين جعلوا منها قضية جديرة بالمناقشة . .

إن الإنسان لا يتصور على الإطلاق عاقلا — كائناً من كان — يدعى بسند من الدين أو التاريخ ، فصل الدين عن الدولة ، هل كان هناك أدنى فاصل بين الدين والدولة فى عهد النبى — صلوات الله وسلامه عليه — أو فى عهد الخلافة الراشدة — أو فى عهد الأمويين أو العباسيين أو الفاطميين ، أو حتى فى عهد آخر الخلافات الإسلامية فى عهد العثمانيين ؟

قد يقول قائل : لكن أوروبا لم تنهض ولم تتقدم إلا بعد أن فصلت الدين عن الدولة ، وأن الخلافة العثمانية الإسلامية ، كانت شراً لا على الإسلام والمسلمين — وحسب — بل على المدنية والحضارة . .

هذا كلام فيه كثير من الخداع ، ويمكن أن يقال رداً على هذا القائل :

إن الدولة العباسية مثلا قد بلغت شأوا من المدنية والحضارة

لم تـكن تحلم به أوربا ، وكذلك الدولة الأموية فى إسبانيا ، وإن مدنية أوربا أو حضارتها مدينة بالـكثير للإسلام فى عهد هاتين الدولتين الإسلاميتين اللتين لم ينفصل فيهما الدين عن الدولة . .

ثم إن أوربا لم تفصل الـكنيسة عن الدولة ، إلا بعد أن أصبحت هذه الـكنيسة سلطة دينية استبدادية ، تقف موقف العداء لـكل نهضة ، وموقف التربص بكل نظرية علمية قد تدفع الإنسانية إلى قمة الحضارة والرقى ، وعلى العـكس فى الإسلام ، فقد كان الخلفاء المسلمون يقفون خلف العلماء بتأييدهم المادى والأدبى ، والتاريخ حى لم يمت بعد . .

أما فيما يتصل بالخلافة العثمانية — فللحقيقة والتاريخ — أنها لم تـكن شراً إلا فى أواخر أيامها ، بعد أن أصبح الحـكم فيها كهنوتياً كالـكنيسة تماماً فى القرون الوسطى . .

إذن فالمسئول ليس الإسلام ، وإنما الأنحراف عن منهج الإسلام ومبادئه ، ولا يجرؤ إنسان — كائناً من كان — أن يدعى أو يزعم أن الإسلام يعارض الحضارة أو المدنية التى تهدف إلى خير الإنسانية ورفاهية البشرية ، إلا إذا كان هذا الإنســان يتمتع بعقلية الاستعمارى الوقح . . اللورد كرومر . . الذى يزعم أن الإسلام دين مناف للمدنية ، ولم يكن صالحاً إلا للزمان والمـكان اللذين

وجد فيهما ، وأن المسلمين لا يمكنهم أن يرقوا فى سلم الحضارة والتمدن إلا بعد أن يتركوا دينهم . . »

مثل هذا الهراء ، يرد عليه بكلمات منصفة جاءت على لسان مفكر من الإنجليز ، هو : « اسحق طيار » رئيس الكنيسة الإنجليزية فى مؤتمر الكنيسة ، قال :

« الإسلام ينشر لواء المدنية التى تعلم الإنسان ما لم يعلم » .

إن منافع الدين الإسلامى لا ريب فيها ، وفوائدها من أعظم أركان المدنية ومبانيها . . »

أما غوستاف لوبون فيقول :

« إن العرب — يقصد المسلمين — هم سبب انتشار المدنية فى بلاد أوروبا . . »(١).

* * *

● التشريع الإسلامى :

لست أدرى لماذا يحلو للبعض — وهم والحمد لله قلة أتفه من أن يقام لها وزن — أن يحاول النيل من التشريع الإسلامى فى سفور حينا ، ومن وراء حجاب أحيانا كثيرة ، ولا سيما فيما يتصل بالأحوال الشخصية ، فقد كتبت كاتبة مسلمة ، ذات يوم تندد

---

(١) الإسلام روح المدنية للأستاذ مصطفى الغلايينى طبعة ثالثة ص ٢٧ .

بقانون الأحوال الشخصية — كما هو فى الشريعة الإسلامية ، وترى أن تشريعات الأحوال الشخصية وضعت فى عهود الجهالة والتأخر ، واستمدت سلطانها من تفسيرات دينية ، وضعها أربعة من الأئمة آخرهم مات منذ ألف سنة ، أى فى العصور الوسطى ، ولم يكن هؤلاء الأئمة رسلا ولا ملائكة ولا قديسين . . !

ومسكينة هذه الكاتبة وأمثالها .

فهى لم يقدر لها أن تدرس الإسلام دراسة واعية كمثقفة ، وحتى لم تدرس تاريخ المرأة قبل الإسلام ، فى عهود الفرس والرومان والعهد الذهبى فى اليونان ، لتؤمن أن شريعة الإسلام لم ولن تضارعها شريعة فى إكرامها المرأة ورد اعتبارها إليها باعتبارها مخلوقاً له كيان ووجود . .

وإنما قدر لها — وحسب — أن تطلع على مفتريات المبشرين التى تفيض صليبية ، وأضاليل بعض المستشرقين التى تتفجر تعصباً ، فراحت تهذى . لا لشىء — إلا لتثبت أنها تقدمية متحضرة ، وأنها كاتبة عصرية ، تحمل قلماً ، وأنها تستطيع أن تكتب بقلمها ما تشاء . .

قال جيبون :

« إن الشريعة المحمدية تشمل الناس جميعاً فى أحكامها من أعظم ملك إلى أقل صعلوك . .

فهى شريعة حيكت بأحكم منوال شرعى ، لا يوجد مثله قط في العالمين . . » .

ويقول العلامة المرحوم محمد فريد وجدى فى مؤلفه : « الإسلام دين الهداية والإصلاح » :

« لم ترسخ شريعة أرسخ قواعد فى العدل ، ولا أبعد مدى فى المساواة واحترام الحقوق ، ولا أجمع لأصول الحياة الاجتماعية ، وأشمل لعناصر التطورات الإنسانية من الشريعة الإسلامية . .

ذلك لأنها قامت على مراعاة الحقوق الطبيعية ، وراعت فى وضعها ليس مصلحة المجتمع الإسلامى وحده ـ ولكن مصلحة المجتمع البشرى كله . . بل والمجموع العالمى عامة ، ولاحظت فى بناء جماعتها أن لا يكون أمرهم قائماً على التضخم بامتصاص دماء المقهورين ، ولكن على بذل النفس والنفيس فى سبيل إقامة المثل الأعلى . : »

هاتان كلمتان أسوقهما للذين لا يزالون يقومون بدور المرجفين فى المدينة ، كلمة لأجنبى ، وهى كلمة حق لم يدفع إليها هوى ، ولا مصلحة ذاتية ، وإنما دفع إليها الإنصاف وحب الحقيقة ليست إلا . . وكلمة لمسلم ومفكر عصرى ، يتجرد من عواطفه عندما يتصدى للدفاع عن الإسلام . .

هؤلاء المرجفون . . . لا يرون فى التشريع الإسلامى مصدراً

صالحاً للدساتير والقوانين . كأنما كتب علينا — نحن المسلمين — أن نظل إلى الأبد أسرى القوانين الغربية المستوردة ، التى وضعت لبيئة تخالف بيئتنا . .

ليس المجال هنا متسعاً للرد الشامل على هؤلاء ، وبخاصة بعد أن رد الشعب عليهم رداً عملياً خلال المناقشات التى جرت على مستوى الجمهورية قبيل إعلان الدستور . .

لعلهم سمعوا أحد المذيعين بالإذاعة المصرية وهو يقول :

١ — ما وصل من آراء حول الدستور — إلى الإذاعة بلغ أكثر من ثمانين ألف رأى ، وأن أكثر من خمسة وتسعين فى المائة من هذه الآراء تطالب بأن ينص فى الدستور على أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للقوانين . .

* * *

● الفتوحات العربية .. والعلوم العربية . .

الفتح العربى ، والحضارة العربية ، والعلوم عند العرب ، والفلسفة العربية .

إذا جاز لبعض المستشرقين من ذوى الأهواء أن يستعملوا مثل هذه الأساليب فى كتاباتهم ، ليوهموا القارئ أن الرسالة المحمدية ليست إلا رسالة قومية ، وأن الإسلام ليس إلا ديناً عربياً إقليميا .

وإذا جاز لبعض الكتاب المسلمين أن يسايروا المستشرقين فى استفحال هذه الأساليب ، دون أن يتنبهوا للاتجاه الخبيث الذى يهدف إلى أولئك المستشرقون، ودون أن يدركوا أن فى هذا طمساً للحقائق ، فالفتوحات إسلامية ، والحضارة إسلامية ، والفلسفة إسلامية ، والعلوم التى برع فيها علماء مسلمون علوم عربية لغة وإسلامية تفكيراً .

فهل يجوز لعلماء الدين المسلمين أن يستعملوا فى كتاباتهم مثل هذه الأساليب ؟ أهم يسايرون المستشرقين أيضا ، جاهلين خبث نواياهم ، أم أنهم لم ينتبهوا لما يؤدى إليه هذا الاستعمال من طمس للحقائق ؟

نرجو أن لا يكون هذا . . ولا ذاك . .

* * *

فى مفترق الطرق

* حقيقة مرة .
* بين الأمس اليوم .

حقيقة مرة

وقفت طويلا عند عبارة قالها مستر ولز من كبار مؤرخي هذا العصر :

« إن محمدا هو الذي استطاع في مدة وجيزة ، لا تقل عن ربع قرن ، أن يكتسح دولتين من أعظم دول العالم ، وأن يقلب التاريخ رأساً على عقب ، وأن يكبح جماح أمة اتخذت الصحراء المحترقة سكنا لها ، واشتهرت بالشجاعة ، ورباطة الجأش ، والأخذ بالثأر ، واتباع آثار آبائها .

ولم تستطع الدولة الرومانية أن تغلب الأمة العربية على أمرها . فمن الذي يشك أن القوة الخارقة للعادة ، التي استطاع محمد أن يقهر بها خصومه . هي من عند الله ؟ » .

أليست هذه الكلمات جديرة كل الجدارة بأن يقف المسلم أمامها طويلا يتأمل كل كلمة فيها في خشوع ؟ إن هذا المؤرخ لم يأت بجديد فيما قال ، ولكنه قرر حقيقة وقعت ، ولا يجادل فيها إلا معاند لا يلتفت إليه ، ولا يعبأ به ، غير أننا ـ نحن المسلمين ـ من حقنا أن نتذوق هذه الحقيقة مرة قاسية المرارة ، عندما نتساءل :

أين يقف الإسلام . . والمسلمون اليوم ؟ وأين هما من الأمس ؟

ما أيسر الإجابة لو أن السؤال عما كان عليه الإسلام والمسلمون بالأمس . .

ولكن ما أشقها على نفس المسلم لو أن السؤال عما عليه الإسلام والمسلمون اليوم . .

فالحديث عن ماضى الإسلام والمسلمين بما فيه من أمجاد بلغت حد الخيال ، هو حديث شيق ممتع ، ومعظمنا يحفظه عن ظهر قلب ، لأنه يبعث فى نفوسنا النشوة والسعادة .

أما عن حاضر الإسلام والمسلمين اليوم ، فهو حديث غير شجى ، لأنه يثير فى نفوسنا كثيراً من الأسى ، هذا بالنسبة للمسلمين الذين لا يزالون بجانب من الخير ، فيعيشون ـ على الأقل ـ بمشاعرهم وأحاسيسهم ووجداناتهم مع قضايا الإسلام وشعوبه ، أما غير هؤلاء ، فهم على هامش الإسلام ، لا تعنيهم قضاياه فى شىء ، كما لا تعنيهم مشكلات شعوبه فى قليل أو كثير .

وماذا عن السؤالين السابقين ؟

أين يقف الإسلام والمسلمون اليوم ؟

وفى إيجاز يمكن أن نقول :

« إن الإسلام اليوم يقف على هامش حياة المسلمين ، وإن المسلمين اليوم يقفون على هامش الإسلام .

أما عن السؤال الثانى : « أين مكان الإسلام والمسلمين اليوم من الأمس ؟ » .

يمكن أن نجيب فى إيجاز أيضاً لنقول :

« إن الحاضر يقارن بالماضى إذا كان امتدادا له ، أما إذا كان الحاضر فى واد والماضى فى واد آخر ، وبعد ما بينهما هو بعد السماء من الأرض . . فعندئذ لا يكون هناك معنى للسؤال .

إن لقائل أن يقول :

إن الإسلام بخير وإن المسلمين بخير . . وأننا ننظر إلى الأمور بمنظار أسود قاتم دائماً .

وما دام هذا القائل يملك أن يقول هذا ، فنحن أيضاً نملك أن نضحك بملء أفواهنا على مثل هذه السذاجة .

ربما خيل إلى قائلنا الطيب القلب أن المساجد ما دامت فى كل أرض إسلامية عامرة بالمصلين . . فى كل وقت من أوقات الصلاة . . فالإسلام بخير .

وما دام موسم الحج عامرا فى كل عام بالألوف بحجاج بيت الله من المسلمين . . فالإسلام بخير .

وما دام المسلمون يقيمون الاحتفالات فى المواسم الدينية : الهجرة ، وميلاد الرسول ، وليلتى الإسراء ، والنصف من شعبان ، ويوم عاشوراء . . فالإسلام بخير .

وربما خيل إلى قائلنا الطيب القلب أيضاً :

أن المسلمين اليوم وقد بلغوا ستمائة مليون مسلم أو يزيدون . . فهم بخير . .

ولكن . . .

أيمكن أن يؤرخ للإسلام اليوم بتعمير المساجد وكثرة الحجاج إلى بيت الله الحرام ، وإحياء المواسم الدينية ؟

وهل يمكن أن يؤرخ للمسلمين بأنهم بلغوا ستمائة مليون مسلم أو يزيدون . . ؟ ؟

وسؤال آخر :

أيمكن أن يؤرخ لحاضر الإسلام بما له من ماض تليد مجيد بالأمس ؟ . .

إن الذين يحلو لهم دائماً الحديث عن أمجاد الإسلام وعظمة المسلمين فى الماضى ، هو شبيه بالنواح من الشعراء الذين كان يحلو

لهم بكاء الأطلال ، إنهم فى الحقيقة لم يخلدوا من يبكونهم ، وإنما خلدوا الأطلال . . ليس إلا . .

لا جدال فى أن من حق المسلمين أن يعتزوا بالماضى المشرق للإسلام ديناً وشريعة ونظاما ، وأن من حقهم أيضاً أن يفخروا بأمجاد المسلمين يوم أن كانوا أمة فتية لا يشق لها غبار . .

لكن بشرط أن يكون لهم من ماضى الإسلام المشرق طاقة من الإيمان تجعلهم جديرين بإسلامهم ، وبشرط أن يكون لهم من أمجاد أمتهم الغابرة دفعة من العمل الجاد تجعل منهم خير خلف لخير سلف . .

وإلا فليسألوا أنفسهم قبل كل شىء :

أين هم من الإسلام ذى الماضى المشرق ، وأين الإسلام ذو الماضى المشرق منهم اليوم ؟

أين هم من الأمة الإسلامية ذات الأمجاد الغابرة ، وأين الأمة الإسلامية ذات الأمجاد الغابرة منهم اليوم ؟

بين الأمس واليوم

يعقد المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه « الامبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة » فصلا عن أسباب قوة الامبراطورة الإسلامية وأسباب تدهورها .

إنه يرى أن قيام الأمبراطورية الإسلامية كان حادثا فذا فى تاريخ الإنسانية ، ففى خمس عشرة سنة ، كانت تضم الشام والعراق وفارس ومصر وشمالى أفريقيا ، وامتدت إلى حدود الهند وتاخمت الصين ، وقيام امبراطورية بهذه السعة فى هذا التاريخ القصير ، معجزة لذاته ، لكن من حوادث التاريخ ما يشبه هذه المعجزة .

وضرب مثلا بحروب الاسكندر وحروب المغول ، لكنه أشار إلى فارق ذى أهمية ، فكلتا الامبراطوريتين تناثر عقدها بمجرد انتهاء حروبها ، أما الامبراطورية الإسلامية فقد استقرت قرونا ، وأقامت حضارة سادت شئون العالم كل هذه القرون ، فلما آن للامبراطورية الإسلامية أن تنحل بقيت هذه الحضارة تناضل عن نفسها .

ويجمل الدكتور هيكل أسباب قوة الامبراطورية الإسلامية

فى سبب واحد هو الإيمان لا. إيمان المسلمين بأن القدر ألقى عليهم رسالة وأوجب عليهم تبليغها للناس كافة لخير الإنسانية فى مشارق الأرض ومغاربها، ولم تكن هذه الرسالة إلا رسالة الحرية والإخاء والمساواة فى أسمى مثل يدركها العقل لمعانى الحرية والإخاء والمساواة . .

هذا الإيمان هو الذى أقام الامبراطورية الإسلامية ، وهو الذى أبقاها ما بقيت من القرون . .

فلما اضمحل الإيمان . . بدأ الانحلال يدب فى أرجاء الامبراطورية . . يمزقها وينتهى بها إلى مثل ما انتهت إليه الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية .

مثل هذا الرأى لا غبار عليه ، ولا سيما أن الكاتب يعرض القضية من زاوية التحليل السياسى . .

لكن من زاوية شاملة للتحليل السياسى والدينى معا ، يمكن أن نرد عظمة الإسلام وعظمة أمته فى الماضى إلى هذه النقاط ، كما نرد أسباب التدهور الذى لحق رسالة الإسلام ورسالة أمته إلى إهمال هذه المبادئ والانحراف عنها والتفريط فيها ، وهذه هى :

• عقيدة سليمة لا ركود فيها لأنها بطبيعتها متركة متفاعلة ..

• تشريع ثابت قوى لا تزمت فيه ، لأنه بطبيعته يتناسب مع الأجيال البشرية .

• أمة فتية لم تنحرف عن الإسلام ، بل كانت مرتبطة به ارتباطا وثيقا .

• مجتمع مثالى ، لكنه لم يبعد عن الواقعية المنطقية .

• ثقافة ناضجة لا هزل فيها ولا ضمور لأنها كانت واعية هادفة جادة .

إن هذه المبادئ الرئيسية التى نهض بها الإسلام كدين ، والمسلمون كأمة ، قد أرست الدعوة الإسلامية قواعدها بعد تحولها إلى يثرب بعد الهجرة ، لتكون هذه القواعد مراكز انطلاق نحو آفاق أوسع وآمال كبار .

فإذا أردنا أن نعرض على أنفسنا الوضع الراهن للإسلام والمسلمين بالنسبة لماضيهما ، فعلينا أن نتساءل .

هل ما تزال العلاقة قائمة بيننا نحن المسلمين وبين هذه المبادئ التى أشرت إليها . . أم أن هذه العلاقة لم يبق منها إلا ذكراها ، نتسلى بها لمجرد التسلية ، ونتعطف عليها فنذكرها بخير كلما سنحت الفرصة لذكرها ؟ .

هل ما يزال الإسلام كما أراده الله دينا يقيم دولة كبرى ، ويبنى أمة وسطا ، ويبارك نظاما عادلا ، ويرعى نهضة ترقى بالإنسانية جمعاء ؟

هل المسلمون اليوم ما يزالون - كما كانوا من قبل - قوة تقيم صرح العدل والحق ، وتحمى حمى العقيدة ، وتصون كلمة الله ، وتحفظ البشرية من غوائل الشر وجرائر الفتن ؟

* * *

منذ بضعة وعشرين عاما انتزعت الصهيونية الآثمة جزءا من قلب الأمة العربية الإسلامية ، لتقيم عليه وطنا قوميا لها ، ثم لتسعى بعد ذلك فى خطوات هادئة منظمة لتحقيق مطامعها فى بقيـة الأراضى العربية الإسلامية ، وما تزال الصهيونية الآثمة - وهى الآن تحتل أجزاء من أراضى ثلاث دول عربية مسلمة - تخرج ألسنتها فى غير حياء لثمانى عشرة دول عربية مسلمة ، وستمائة مليون مسلم أو يزيدون .

ومنذ سنوات بعيدة سقطت دولة إريتريا المسلمة ضائرة القوى ، ولم تظفر حتى بدموع المسلمين .

ومنذ عشرة أعوام . . فى « رانجون » قامت مظاهرة لإحراق ثلاثة مساجد كانت قد أنشئت حديثا .

ومنذ وقت غير بعيد ، أحرقت المسجد الأقصى مشاعل الصهيونية الفاجرة ، وترددت فى الأجواء صيحات الاستنكار ، والاحتجاج والتهديد والوعيد .. لكن مصير هذه الصيحات سرعان ما تحول إلى ذرات خفيفة فى مهب الرياح .

ومنذ شهور انفجرت فى الفلبين مجزرة بشرية انتهت بذبح بضعة وثلاثين ألفاً من المسلمين المواطنين .

فماذا حدث ؟ كل ما حدث أن أذرف المسلمون المتدينون الدموع على الشهداء !!!

هذا عرض موجز نجيب به عن الأسئلة التى لا تزال فى حاجة إلى مزيد من الإجابة .

* * *

وبعد :

فلا أظن أن هناك إثنين يختلفان فى أن الهجرة كانت نقطة تحول فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، دعت إليها كل الظروف والأحوال التى أكدت أنه لا استقرار للدعوة فى تربة قاحلة كتربة مكة ، ولا اطمئنان لها فى عقليات كعقليات سادتها ، تملكتها تقاليد موروثة لا تمت إلى المنطق السليم بصلة ، وسيطرت عليها خلال

مئات الأعوام وثنية بلهاء رانت على القلوب حتى أغلقتها ، وغشيت البصائر حتى أعمتها ؛ وتكاثفت فى النفوس حتى أفسدتها ..

ولا يختلف إثنان أيضا .. فى أن نقطة التحول هذه كانت بمثابة قاعدة لانطلاق الدعوة لتحقق رسالتها الكبرى فى إقامة أمة موحدة على الحق ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

• تأسيس دولة ذات شأن وقوة تحمى العقيدة فتذود عن حمى الأمه ..

وإقرار مبادىء تقوم على الحق والخير والجمال ، لا من أجل المسلمين وحدهم بل من أجل الإنسانية جمعاء .



الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٢/٢١٧٦

كلمة الاشراف

عزيزى القارىء ....

لا يفوتنا فى هذه المرحلة المصيرية لأمتنا ، وفى هذه المناسبة التاريخية فى مطلع العام الهجرى الجديد التى غيرت مجرى تاريخ الانسانية ، وهزمت جحافل الظلام والشرك ، وأعطت طاقة خلاقة ضخمة لطليعة الجماعة الاسلامية التى اتخذت من يثرب قاعدة صلبة ومنطلقا ثابتا لدفع الدعوة الاسلامية وهى فى ابان شبابها دفعات قوية بهرت العالم بأخلاقها ومبادئها ورجالها الذين سطر لهم التاريخ بحروف من نور فى صفحاته الذهبية .

ولا يسعنا بعد أن قدمنا لك (فن ادارة المعركة فى الحروب الاسلامية) الا أن نقدم لك النجاح الكامل والانتصار الحقيقى والانطلاق العريض للدعوة الاسلامية متمثلا فى هجرة الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من مكة الى المدينة ، وارساء دعائم دعوته ..

ذلك هو كتاب (الهجرة بداية مراحل التحول والانطلاق) ..
« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة » ... « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » ..

طلعت غنام



المؤلف فى سطور

* من مواليد (طما ــ الحما) محافظة سوهاج .
* اشتغل فى بداية حياته بالتدريس .
* أصدر سلسلة الثقافة الاسلامية عام ١٩٥٨م .
* اشتغل محررا بمجلة الرسالة .
* يعمل الآن محررا بمجلة الأزهر الشريف .
* نشر له كثير من المقالات فى الصحف والمجلات الاسلامية .
* له مايقرب من أربعين كتابا مابين مؤلف ومحقق .

الكتاب القادم :

تعدد الزوجات
من النواحى
الدينية والاجتماعية والقانونية

تأليف
دكتور عبد الناصر توفيق العطار

الشركة المصرية للطباعة والنشر

ص ١٠